المتميزون

سكوت ويسترفيلد

«السلطات الخاصة»... ظلت هذه الكلمات تثير الرجفة في قلب تالي منذ أن كانت واحدة من المتمردين في مجتمع القبح.

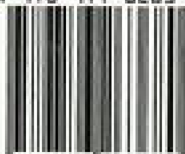
كان المتميزون في ذلك الوقت شائعات تتناقلها الألسن؛ وكان يشاع أنهم ذوو جمال يخلب الألباب، وقوة تثير الرهبة، وسرعة تحبس الأنفاس.

الآن أصبحت تالي واحدة من هؤلاء: أصبحت آلة قتال خارقة صُمِّمت لكبح جماح مجتمع القبح والإبقاء على غباء مجتمع الجمال. وهي منتشية معظم الوقت بقدراتها الجديدة، لكن شيئًا آخر ظل يحتل ركنًا صغيرًا في قلبها.

وعندما تتاح لها فرصة القضاء على متمردي الضباب الجديد، تضطر أن تختار للمرة الأخيرة: إما إتمام المهمة التي بُرمجت من أجلها، أو الإنصات إلى همس قلبها الخافت الذي لا يزال ينبئها أن شيئًا ما ليس على ما يرام ...

٣٠٦ صفحة

ISBN 978-977-6263-68-0



كلمات عربية

http://www.kalimat.org

المحتويات

إهداء

إلى كل القراء الذين راسلوني ليخبروني بتعليقاتهم حول هذه السلسلة، أشكركم لإخباري بما أعجبكم وما لم يعجبكم، وما جعلكم تقذفون القصة إلى آخر الغرفة. (أنتم تعرفون أنفسكم!)

الجزء الأول

أن تكون من المتميزين

«أنت لا تحصد جمال الزهرة حين تقطف بتلاتها.»

رابيندرانات طاغور، طيور شريدة

الفصل الأول

اقتحام حفل

انطلقت الألواح الستة الطائرة بين الأشجار برشاقة تشبه رشاقة أوراق اللعب وهي تُلقى بسرعة خاطفة. انحنى ركابها وداروا ضاحكين حول أفرع الشجر المثقلة بالجليد، وهم يثنون رُكَبهم ويبسطون أذرعهم عند الانعطاف. وفي أعقابهم تلألأ وابل ثلجي بلوري بفعل تساقط الكتل الجليدية الصغيرة التي تدلت من أوراق شجر الصنوبر الإبرية إثر اهتزازها، وقد بدت متوهجة في ضوء القمر.

شعرت تالي بكل ما حولها بوضوح تام: فشعرت بشدة برودة الرياح القاسية وهي تصطدم بوجنتيها العاريتين، وبالجاذبية المتغيرة وهي تلصق قدميها باللوح الطائر، وأخذت تستنشق هواء الغابة، حتى شعرت بأغصان الصنوبر تغلف حلقها ولسانها وكأنها شراب سكري ثقيل القوام.

كانت برودة الهواء تجعل الأصوات أكثر حدة: فذيل سترتها الفضفاض كان يرتطم بالهواء مصدرًا صوت أجش مثل العلم الذي تقرعه الرياح، وحذاؤها المقاوم للانزلاق كان يصدر صريرًا وهي تطأ به على سطح اللوح الطائر كلما انعطفت. وكان فاوستو يبث موسيقى راقصة عبر شبكة التواصل الاستشعارية المتصلة بجلدها، لكنها لم تكن مسموعة لمن حولها. وعلى خلفية الإيقاع الصاخب للموسيقى، كانت تالي تسمع صوت كل خلجة من خلجات عضلاتها المغلفة بأنسجة أحادية الخيوط. أخذت تالي تضيق عينيها لتتقي الهواء البارد، فدمعت عيناها. غير أن الدموع زادت من حدة بصرها. وأخذت الكتل الجليدية المتدلية من الأشجار تمر بجوارهم في شكل شرائط متلألئة، وغلف ضوء القمر العالم بغلاف فضيّ، فبدا كل شيء من حولها أشبه بفيلم قديم غير ملون عاد ينبض بالحياة.

كان ما يميز جماعة الجارحين رؤية كل شيء جليديًا شفافًا الآن، وكأن العالم من حولها يكشف لها عما تحت جلدها.

انقضت شاي من أعلى حتى أصبحت بجوار تالي، فاحتكت أصابعهما للحظة وابتسمت لها ابتسامة سريعة. حاولت تالي أن تبادل شاي الابتسام، لكنها شعرت باضطراب في معدتها عندما نظرت إلى وجهها. فالجارحون الخمس متنكرون الليلة، وقد أخفوا حدقاتهم السوداء تحت عدسات لاصقة باهتة اللون، وأضفت الأقنعة البلاستيكية الذكية ملمسًا أملس على فكوكهم ذات الملامح القاسية. لقد حوَّلوا أنفسهم إلى قبحاء لأنهم كانوا سيتطفلون على حفل مقام في حديقة كليوباترا بارك.

لم يستعد عقل تالي بعد للحفلات التنكرية؛ فهو رأى أنه كان مبكرًا للغاية أن تنهمك في حفل تنكري، فلم يمضِ على انضمامها إلى المتميزين سوى شهرين، وعندما نظرت إلى شاي توقعت أن ترى أعز صديقة لها في طلعتها الجديدة الرائعة بعد أن اكتسبت جمالًا بمسحة من القسوة، لا أن تراها وهي متنكرة في هيئة قبيحة. انعطفت تالي بلوحها لتتفادى غصنًا مثقلًا بالجليد فابتعدت عن شاي، وصبت تركيزها على العالم الذي يتلألأ من حولها، وعلى تحريك جسدها حتى ينطلق اللوح بين الأشجار. وكان لاندفاع الهواء البارد ليساعدها على إعادة التركيز على البيئة المحيطة بها بدلًا من التركيز على إحساس الافتقاد الذي يعتمل بداخلها، ذلك الإحساس الذي انتابها بسبب عدم وجود زين معهم.

قالت شاي: «أمامنا مجموعة من القبحاء عندهم يقين بأنهم في طريقهم إلى حفل». وانطلقت كلماتها وسط الموسيقى فالتقطتها الشريحة المغروسة في فكها، وبثتها عبر شبكة التواصل الاستشعارية المغروسة في جلودهم بدرجة أقرب إلى الهمس. أضافت: «هل أنت واثقة أنك مستعدة لهذا يا تالي-وا؟».

أخذت تالي نفسًا عميقًا وهي تستنشق الهواء البارد الذي يساعد على تصفية الذهن، وكانت لا تزال تشعر باهتياج أعصابها، ولكن لن يكون من المنطقي أن تتراجع الآن. قالت: «لا تقلقي أيتها القائدة، سيكون هذا مثيرًا».

قالت شاي: «يجب أن يكون مثيرًا، فلا تنسي أنه حفل. لنستمتع بوقتنا أيها القبحاء الصغار».

ضحك بعض أعضاء جماعة الجارحين ضحكة خافتة وهم يتطلعون إلى وجوه بعضهم البعض المستعارة. عادت تالي إلى التفكير في القناع الذي ترتديه والذي يبلغ سمكه مليمترات قليلة، إذ كان وجهها مغطى بانتفاخات ونتوءات بلاستيكية جعلت وجهها يبدو معيبًا تكسوه البثور وتغطيه شبكة من الوشوم فائقة الجمال التي

على وجهها. واختفت أسنانها الحادة خلف أسنان زائفة معوجة، بل وغطت يديها المزينتين بالوشوم بشرة مستعارة توضع بالرش.

نظرة عابرة واحدة في المرآة كشفت لتالي كيف تبدو، إنها تشبه القبحاء تمامًا: فهي بشعة معوجة الأنف ممتلئة الخدين، وارتسمت على وجهها أمارات اللهفة والتوق إلى عيد ميلادها التالي و إجراء عملية تشويش العقل وعبور النهر؛ بعبارة أخرى أصبحت صبية مرة أخرى في الخامسة عشرة من عمرها.

هذه هي أول حيلة تقوم بها تالي منذ أن صارت من المتميزين. وتوقعت أن تكون مستعدة لأي شيء الآن، فالعمليات الكثيرة التي أجريت لها زودتها بعضلات جديدة قوية، واستجابات مضبوطة على سرعة أشبه بسرعة الأفاعي، علاوة على أنها قضت شهرين تتدرب في معسكر الجارحين، كانت أثناءهما تعيش في البرية دون أن تحصل على قسط كافٍ من النوم ودون أي مؤن.

غير أن نظرة واحدة في المرآة كانت كفيلة بأن تهز ثقتها.

لا جدوى من قدومهم إلى المدينة عبر ضواحي مدينة كرامبل قبل محلقين فوق صفوف متماثلة لا نهاية لها من البيوت التي بدت من أعلى كظلال قاتمة، وكان إحساس الضجر العشوائي الذي استشعرته تجاه المكان الذي نشأت فيه ليبعث داخلها بشعور بالوخز على طول باطن ذراعيها، ولم يجد ملمس الزي القاتم المعاد التدوير نفعًا لجلدها الجديد الحساس. وخيل إليها أن الأشجار المشذبة في المنطقة الخضراء تضيق الخناق عليها، وكأن المدينة تحاول أن تعيدها بالقوة إلى الأحوال العادية. كان يروق لها كونها من المتميزين، وانطلاقها في الهواء الطلق، واستمتاعها بالإثارة والقوة، وشعورها بأنها أفضل من الآخرين، ولم تطق صبرًا على العودة إلى البرية ونزع هذا القناع القبيح عن وجهها.

أطبقت تالي قبضتيها وأخذت تنصت إلى شبكة التواصل الاستشعارية التي تربطهم. غمرتها موسيقى فاوستو وأصوات الآخرين: أصوات تنفسهم المنخفضة، وصوت ارتطام الرياح بوجوههم. تخيلت أنها تسمع صوت دقات قلوبهم، وكأن الحماس المتزايد الذي كان ينتاب الجارحين يتردد صداه في عظامها.

وحين لاحت أنوار الحفل، قالت شاي: «تفرقوا، لا نريد أن نبدو مترابطين أكثر من اللازم».

تفرق تشكيل الجارحين، فبقيت تالي مع فاوستو وشاي، وانفصل عنهم هوو وتاكس تجاه أعلى الحديقة. ضبط فاوستو جهاز الموسيقى الذي معه فخفتت

الموسيقى، ولم يبق سوى صوت الرياح المندفعة والصخب البعيد الصادر من الحفل.

أخذت تالي نفسًا آخر في توتر، وداهمتها رائحة الحاضرين: رائحة عرق كريهة، ومشروبات كحولية مسكوبة. لم يكن نظام الموسيقى الراقصة في الحفل يعتمد على أجهزة التواصل المغروسة في الجلد، وإنما كان يبث الموسيقى في الهواء ببساطة، فتتبعثر الموجات الصوتية وتتحول إلى مئات الانعكاسات بين الأشجار. لطالما كان القبحاء يميلون إلى الضجيج.

وبفضل التدريب علمت تالي أنه من الممكن أن تسير أغوار الغابة وهي مغمضة العينين اعتمادًا على صدى الصوت، وإن كان شديد الضعف، مثل الخفاش الذي يهتدي بصوته. أما الليلة فكانت في حاجة إلى حاسة البصر الخاصة التي تتمتع بها. وكان لشاي عيون في مدينة آجلي فيل، وقد سمعوا أن غرباء سيحضرون الحفل دون دعوة، وأن هؤلاء الغرباء هم من «الضبابيين الجدد» الذين يوزعون جزيئات النانو ويثيرون المتاعب.

وهذا هو سبب حضور الحارسين الحفل، فهذا ظرف خاص يستدعي تدخل السلطات الخاصة.

هبط الثلاثة مباشرةً خارج دائرة الأضواء المتقطعة الوامضة التي تشعها المصابيح العائمة المائلة، وقفزوا على أرض الغابة التي تكسوها أوراق الصنوبر إبرية الشكل وقطع الصقيع. وجهت شاي الألواح لتنتظرها عند قمم الأشجار، ثم رمقت تالي بنظرة باسمة وقالت: «رائحتك تنم عن أنك متوترة».

هزت تالي كتفيها وهي تشعر بعدم الراحة في زي عنبر القبحاء الذي ترتديه. لقد كانت شاي تتمتع بالقدرة على التعرف على شعور المرء من رائحته. ردت تالي: «من المحتمل ذلك أيتها القائدة».

وهنا — وهم على أعتاب الحفل — نشطت بقعة مؤلمة من ذاكرتها، فتذكرت المشاعر التي كانت دائمًا تنتابها عند الوصول إلى أي حفل. حتى باعتبار تالي فتاة جميلة تعاني من التشوش الذهني، كانت تكره القشعريرة التي تنتابها كلما اشتد الزحام من حولها، وتمقت الحرارة الناجمة عن كثرة الأجساد، وتبغض ثقل وطأة عيونهم عليها وهم يرمقونها. والآن شعرت بأن القناع الذي ترتديه لزج وغريب، وبأنه حاجز يفصلها عن العالم. هذا أبعد ما يكون عن حال المتميزين. مرت ثوانٍ شعرت خلالها بحرارة في وجنتيها تحت القناع البلاستيكي، وكأنما داهمها إحساس مفاجئ بالخجل.

مدت شاي يدها وضغطت على يد تالي قائلةً: «لا تقلقي يا تالي-وا.»

وهمس فاوستو فشق همسه الهواء قائلًا: «ما هم إلا حفنة من القبحاء، ونحن لن نفارقك». ووضع يده على كتف تالي ودفعها إلى الأمام برفق.

أومأت تالي برأسها وسمعت أنفاس الآخرين الهادئة البطيئة عبر أجهزة التواصل المغروسة فيهم. صدق وعد شاي: إذ توجد صلة قوية تربط الجارحين بحيث صاروا عصبةً مترابطة، لن تجد تالي نفسها وحيدةً بعد الآن، وإن شعرت بوجود نقص ما فيها، وإن أثار فيها غياب زين شعورًا بالذعر الجارف.

انطلقت بسرعة بين الأغصان في إثر شاي إلى حيث الأضواء المتقطعة الوامضة.

أصبحت ذكريات تالي الآن واضحة كفلق الصبح، وليس مثلما كان حالها حين كانت من مشوشي العقل، مما كان يجعلها مرتبكة ومشوشة طيلة الوقت. تذكرت أهمية حفل الربيع لدى القبحاء، فحلول الربيع كان يرتبط بطول فترة النهار مما يتيح لهم أداء الحيل وركوب الألواح وإقامة المزيد من الحفلات في الهواء الطلق.

لكن بينما كانت تالي وفاوستو يشقان طريقهما وسط الحاضرين وراء شاي، لم تشعر بأي قدر من الحيوية التي تتذكر أنها كانت تسري في المكان العام الماضي، إذ هيمن على الحفل جو من الملل وفتور الهمة وعدم التنظيم. وكان القبحاء يقفون في أرجاء المكان في خجل شديد، حتى إن كل من يرقص منهم بدا وكأنه يبذل جهدًا أكبر من طاقته. وكانوا جميعًا يبدون متكلفين تعوزهم الحيوية، وكأنما هم مجموعة من صغار الممثلين يظهرون على شاشة عرض جدارية انتظارًا لوصول الأشخاص الحقيقيين.

ومع هذا كان ما يروق لشاي أن تردده صحيحًا: فالقبحاء ليسوا في سذاجة مشوشي العقل. أخذ الحاضرون يفسحون لها الطريق بعفوية، إذ كان الجميع يتنحون عن طريقها. ومع أن وجوه القبحاء غير متناسقة وتغطيها البثور، فإن عيونهم حادة ومفعمة بوخزات من الوعي المشوب بالتوتر. فهم أذكياء بما يكفي ليشعروا بأن الجارحين الثلاثة مختلفون عنهم. لم يحدق أحد في تالي كثيرًا، ولم يدرك أحد هويتها المتوارية وراء القناع البلاستيكي الذكي، لكن أجسادهم كانت تتنحى عند أدنى لمسة منها، وكانت الرجفات تسري في أكتافهم وهي تمر بهم، وكأنهم شعروا في الوقت نفسه بوجود خطرٍ ما.

من السهل أن يرى المرء الأفكار وهي تترقرق على وجوههم، ورأت تالي مشاعر الغيرة والكراهية، والتنافس والانجذاب كلها مطبوعة على تعبيرات وجوههم وفي حركاتهم. الآن وقد صارت من المتميزين أصبح كل شيء ظاهرًا أمامها بوضوح، وكأنها تنظر من أعلى إلى ممر في غابة.

وجدت نفسها تبتسم، وأخيرًا صارت تشعر بالاسترخاء وأنها مستعدة للمطاردة المنوطة بها. إنّ اكتشاف المتطفلين على الحفل سيكون يسيرًا.

ألقت تالي نظرةً فاحصة على الحاضرين باحثة عن أي شخص يبدو عليه أنه مختلف عن الآخرين، بأن يكون واثقًا من نفسه أكثر مما ينبغي، أو مفتول العضلات، أو سفعت الشمس بشرته إثر العيش في البرية؛ فهي تعرف كيف يبدو الضبابيون.

ففي الخريف الماضي — في فترة القبح — هربت شاي إلى البرية حتى تفلت من الخضوع لعملية التحول إلى حسناء مشوشة العقل، وتعقبتها تالي حتى تعيدها، وانتهى بهما الأمر إلى الإقامة في «الضباب القديم» أسابيع طويلة. كان النبش في الذاكرة يعذبها حقًّا. أما الآن فالذكريات تتدفق إلى ذهنها طواعيةً. فالضبابيون يتسمون بالعجرفة؛ فهم يظنون أنهم أفضل ممن يعيشون في المدينة.

لم تستغرق تالي سوى ثوانٍ حتى لمحت هوو وتاكس في الحفل المزدحم. كانا يلفتان الانتباه كقطتين تتسللان بين سرب من البط يتهادى في سيره.

همست تالي حتى تنقل الشبكة كلماتها: «أتظنين أن وجودنا ملحوظ أكثر من اللازم، أيتها القائدة؟»

– «كيف يكون ملحوظًا؟»

– «جميعهم يبدون سذجًا ونحن نبدو ... متميزين.»

التفتت شاي إلى تالي وعلى وجهها ابتسامة تتراقص وقالت: «نحن متميزون في حقيقة الأمر.»

– «لكنني ظننت أنه من المفترض أن نكون متخفين.»

ردت شاي: «لكن هذا لا يعني ألا نتسلى!» وانطلقت فجأة مبتعدة وشقت طريقها بين الحاضرين.

مد فاوستو يديه ولمس كتف تالي قائلًا: «انظري وتعلمي.»

كان فاوستو قد سبقها في الانضمام إلى المتميزين بفترة طويلة. فمع أن الجارحين يشكلون قسمًا جديدًا تمامًا من السلطات الخاصة، فإن العملية التي أجريت لتالي استغرقت وقتًا أطول من أقرانها؛ إذ كانت تقوم بالكثير من الأمور العادية في الماضي،

ولذا استغرق الأمر من الأطباء وقتًا طويلًا حتى يمحوا كل ما تراكم بداخلها من شعور بالذنب والخزي، فالأحاسيس المتبقية قد تتسبب في تشوش الذهن، وهذا أبعد ما يكون عن خصال المتميزين؛ فالقوة تأتي من الوضوح الشديد، ومعرفة جوهر الذات معرفةً دقيقةً، وإحداث الجروح.

لذا ظلت تالي بصحبة فاوستو وأخذت تشاهد وتتعلم.

شدت شاي إليها فتى اختارته عشوائيًا، وأبعدته بعنف عن الفتاة التي كان يتحدث إليها، فانسكب شرابه على الأرض عندما بدأ يحاول الابتعاد عنها اعتراضًا على ما فعلته، لكن عندئذٍ التقت عيناه بعينيها.

لاحظت تالي أن شاي لم تبدُ قبيحة مثل باقي المتميزين، فمع تنكرها في هيئة القبحاء، كان اللون البنفسجي لعينيها لا يزال ملحوظًا، وكانت عيناها تلمعان في الأضواء المتقطعة الوامضة كعيني حيوان مفترس وهي تجذب الفتى إليها وتقترب منه، وعضلات جسدها تتحرك بمرونة فائقة.

بعد هذا لم يرفع عيناه عنها قط، حتى وهو يعطي الجعة التي يحتسيها للفتاة التي كان يحادثها، فأخذت الفتاة تنظر إليهما فاغرةً فاها. لامس الفتى القبيح بيديه ذراعي شاي وبدأ جسده يتحرك وفقًا لحركاتها.

صار الآخرون يتابعونهما الآن.

قالت تالي بخفوت: «لا أذكر هذا الجزء من الخطة».

ضحك فاوستو قائلًا: «المتميزون لا يحتاجون إلى خطط، أو على الأقل لا يحتاجون إلى خطط جامدة». وكان فاوستو يقف خلف تالي وهو يحيط خصرها بذراعيه. وشعرت بأنفاسه تصطدم بعنقها من الخلف، وبدأت تشعر بوخزة تسري في جسدها.

ابتعدت تالي عنه. فلا يكف الجارحون عن لمس بعضهم بعضًا، لكنها لم تكن معتادةً على هذه السمة من سمات المتميزين، وكان مما زاد شعورها بالاغتراب عدمُ وجود زين معهم.

وعبر شبكة التواصل المغروسة في الجلد سمعت تالي شاي وهي تهمس للفتى. لاحظت أن أنفاسها بدأت تتلاحق مع أنها تستطيع أن تجري مسافة كيلومتر في دقيقتين دون أن يفرز جسدها قطرة عرق واحدة. وجاء عبر الشبكة صوت حاد ينم عن احتكاك جسم بآخر غير حليق، وذلك عندما اقتربت شاي بخدها من خد الفتى، وضحك فاوستو ضحكة خافتة حين أجفلت تالي.

قال وهو يدلك كتفيها: «اهدئي يا تالي-وا، هي تعرف ما تفعله».

كان واضحًا جدًا أن رقصة شاي تَلقى اجتذابًا من المحيطين بها. فحتى تلك اللحظة كانت أجواء التوتر تخيم على الحفل؛ إذ كان أشبه بفقاعة تحلق في الجو مفعمة بالتوتر، لكنها قضت على التوتر السطحي الذي شاب تلك الفقاعة وأطلقت منها شيئًا مثيرًا كان حبيسًا بداخلها. وبدأ الحاضرون ينقسمون إلى أزواج من الأشخاص يحيط أحدهما بالآخر بذراعيه، وبدأت تزداد حركة الحاضرين. ولا بد أن المسئول عن الموسيقى قد لاحظ هذا؛ إذ رفع الصوت، وزاد من عمق النغمة، وأخذت الأضواء الطائرة فوق الحاضرين تتذبذب من القتامة إلى التألق الباهر، وبدأ الحاضرون يقفزون لأعلى ولأسفل مع إيقاع الموسيقى.

شعرت تالي بتسارع نبضات قلبها، إذ أذهلها كيف أن شاي تمكنت بسهولة من إقناع الآخرين بتقليدها بالإيحاء، وبدأت أجواء الحفل تتغير، وانقلب الحفل رأسًا على عقب، وكل هذا بفضل شاي. لم يكن ما يحدث يشبه الحيل الغبية التي كانوا يقومون بها أيام القبح، كعبور النهر خلسة، أو سرقة سترات القفز، فهذا سحر بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

هذا سحر من نوع خاص، سحر المتميزين.

إذن ما المشكلة في ارتدائها قناعًا قبيحًا؟ فكما كانت شاي تردد دائمًا أثناء التدريب: إن مشوشي العقل يُسيئون فهم الأمر تمامًا، فمظهر المرء ليس هو المهم، وإنما فكرته عن نفسه ونظرته إلى نفسه. فالقوة وسرعة الاستجابة لا يمثلان سوى عنصر من عناصر التميز، وكانت شاي تدرك أنها من المتميزين، وهكذا كانت؛ أما الآخرون جميعًا فكانوا في الهامش، فقط خلفية قاتمة لا حياة فيها، وذلك إلى أن بثت فيها شاي الحياة بأسلوبها الخاصة.

همس لها فاوستو قائلًا: «تعالي». وسحبها بعيدًا عن الجمع الذي يزداد ازدحامًا، واتجها نحو أطراف الحفل، وتسللا دون أن تلحظهما العيون المأخوذة بشاي وصاحبها، وقال لها: «اذهبي في هذا الاتجاه وابقي منتبهة».

أومأت تالي برأسها وسمعت الجارحين الآخرين يهمسون وهم ينتشرون في أرجاء مكان الحفل، وفجأة فهمت تالي الموقف برمته ...

كان الحفل في البداية رتيبًا مملًا، وكان فاترًا لدرجة تحول دون التغطية على المتميزين أو طريدتهم؛ أما الآن فالحاضرون يرفعون أذرعهم ويتمايلون بها إلى الأمام وإلى الخلف مع الإيقاع، وصارت الأكواب البلاستيكية تتطاير في الهواء، واجتاحت

موجة من الحركة المكان. لذا إن كان الضبابيون يخططون للتطفل على الحفل فهذه هي اللحظة التي كانوا ينتظرونها.

أصبحت الحركة أصعب الآن، وشقت تالي طريقها بين حشد من الفتيات الصغيرات — اللاتي كن فعلاً من الصغار — اللاتي كن يرقصن معًا وعيونهن مغمضة. وكانت المادة اللامعة التي علت بشرتهن الخشنة تلمع في الأضواء المتقطعة التي تشع من المصابيح الطائرة، ولم يرتجفن عندما شقت تالي طريقها بينهن؛ إذ كانت الهالة التي تميزها لتختفي وسط الروحُ الجديدة التي طرأت على الحفل، ويطغى عليها سحرُ رقصة شاي.

أخذت الأجساد الضئيلة القبيحة تقفز أمام تالي فذكرتها بمدى التغير الذي طرأ عليها من الداخل. فعظامها الجديدة مصنوعة من الخزف الذي يدخل في صناعة الطائرات، وصارت عظامها خفيفة كخشب الخيزران، وصلبة كالماس. كانت عضلاتها روافع تغلفها أنسجة من خيوط أحادية ذاتية الإصلاح في حالة التمزق. وحينما كانت تمر بين القبحاء، كان تشعر بملمسهم اللين الرخو كدمى محشوة تدب فيها الحياة، كانوا صاخبين ولكن لا يخشى من ورائهم أي شيء.

دوى طنين في عقلها عندما زار فاوستو من نطاق شبكة التواصل المغروسة في الجلد، وتناهت إلى مسامعها أصداء قليلة من الضوضاء، من بينها صرخات الفتاة التي كانت ترقص بجوار تاكس، وإيقاع مدمدم آتٍ من المكان الذي يقف فيه هوو إذ اتخذ موقعه بجوار مكبرات الصوت، وتزامن كل ذلك مع شاي وهي تهمس في أذن صاحبها حتى تشتت انتباهه. كل ذلك جعلها تشعر وكأنها خمسة أشخاص في آن واحد، وكأن إدراكها أصبح يحيط بكل ما يحدث في الحفل، ويستقبل كل ما فيه من أصوات أو أضواء.

أخذت تالي نفسًا عميقًا، وبدأت تتوجه نحو طرف الساحة المكشوفة طلبًا للمنطقة المظلمة التي لا تصل إليها أضواء المصابيح الطائرة. من ذلك الموقع أحست أنها ستتمكن من المشاهدة على نحو أفضل، وستزداد سيطرتها على صفاء ذهنها.

وعندما بدأت تتحرك وجدت أنه من الأسهل أن ترقص وتساير حركة الحاضرين بدلًا من أن تشق طريقها بينهم، فتركتهم يدفعونها بلا مقصد، تمامًا مثلما كانت تترك لتيارات الرياح القوية دفة قيادة لوحها الطائر وهي تتخيل نفسها طائرًا جارحًا.

أغمضت تالي عينيها وأخذت تساير الحفل بباقي حواسها. ربما يتلخص جوهر كونها من المتميزين فيما يحدث الآن: الرقص مع الآخرين والشعور كأن المرء هو الشخص الحقيقي الوحيد بين الحاضرين ...

فجأة انتصب شعرها في مؤخرة عنقها واتسعت فتحتا أنفها؛ إذ شمت رائحةً مختلفة عن عرق الإنسان والجعة المسكوبة جعلت ذهنها يعود إلى أيام القبح، إلى الهروب، وإلى أول مرة انطلقت فيها بمفردها في البرية.

شمت رائحة دخان، تلك الرائحة القوية التي تميز نيران المعسكرات ولا تتلاشى سريعًا.

فتحت تالي عينيها، فالقبحاء الذين يعيشون في المدينة لا يحرقون الأشجار، بل لا يستخدمون المشاعل؛ إذ لا يُسمح لهم بهذا. ومصدر الضوء الوحيد في الحفل هو المصابيح الطائرة ذات الأضواء الباهرة المتقطعة، والقمر الذي لم يصل بعد إلى كبد السماء.

لا بد أن الرائحة صادرة من مكان ما خارج المدينة.

أخذت تالي تتحرك في دوائر متسعة وهي تجول بعينيها بين الحاضرين محاولةً أن تعثر على مصدر الرائحة.

لم تجد شخصًا يبدو مختلفًا عن الآخرين، ولم تر سوى مجموعة من القبحاء السذج الذين يرقصون وهم يتمايلون برؤوسهم وأذرعهم والجعة تتطاير من أكوابهم. لم يكن بينهم شخص أنيق أو واثق من نفسه أو قوي البنية ...

ثم رأت تالي الفتاة.

كانت تشارك فتى ما في رقصة رومانسية هادئة وتهمس في أذنه بانتباه. كانت أصابعه ترتجف بانفعال على ظهرها، وكانت حركاتهما غير موائمة لإيقاع الموسيقى، وبدا الاثنان كصغيرين في موعد مرتب مسبقًا للمشاركة في إحدى الألعاب. كانت سترة الفتاة مربوطة حول خصرها وكأنها لا تعبأ بالبرد، وتظهر بطول باطن ذراعها نقوش لمربعات باهتة في المواضع التي لصقت فيها لصوقات واقية من الشمس.

هذه الفتاة أمضت وقتًا طويلًا في البرية.

عندما اقتربت تالي منها، شمت رائحة الدخان الناجم عن حرق الأخشاب مرة أخرى. ورأت عيناها الجديدتان البالغتان حد الكمال خشونة قميص الفتاة المصنوع من الألياف الطبيعية، الذي تظهر فيه غرز خياطة مصطفة وتنبعث منه رائحة أخرى غريبة ... إنها رائحة منظف؛ فلم تكن ملابسها مصممة لكي تلبس مرة واحدة

ثم تُلقى في آلة إعادة التدوير، بل كان يجب غسلها بالصابون ثم ضربها بالأحجار في مياه غدير بارد. ولاحظت تالي شعر الفتاة غير الأنيق إذ كان مقصوصًا يدويًا بمقص معدني.

همست تالي قائلةً: «أيتها القائدة».

ردت عليها شاي بصوت ناعس: «بهذه السرعة يا تالي-وا؟ إنني أتسلى».

– «أظن أنني وجدت واحدة من الضبابيين».

– «أمتأكدة؟».

– «تمامًا، إن رائحتها كالرائحة التي تفوح من المغاسل».

اخترق صوت فاوستو الموسيقى قائلًا: «أراها الآن، أتقصدين من ترتدي قميصًا بنيًا وترقص مع ذاك الفتى؟».

– «نعم، وهي ذات بشرة سفعتها الشمس».

سمعوا شاي تتنهد بانزعاج وضيق، وتغمغم ببضع عبارات اعتذار وهي تبتعد عن صاحبها القبيح، ثم قالت لهم: «هل يوجد آخرون؟».

ألقت تالي نظرة فاحصة على الحاضرين مرة أخرى وهي تدور حول الفتاة في حلقة واسعة باحثةً عن رائحة دخان جديدة، ثم قالت «لا».

فجأة رأت تالي فاوستو إلى جوارها وهو يشق طريقه بصعوبة نحو الفتاة، وقال: «لا يوجد أي شخص آخر يبدو غريبًا لي». وكان تاكس وهوو يقتربان من الفتاة قادمين من الناحية الأخرى.

سألت شاي: «ماذا تفعل الفتاة؟».

أجابت تالي: «ترقص و...» ثم توقفت وقد لمحت عيناها يد الفتاة تنسل إلى داخل جيب الفتى، وأضافت: «أعطته شيئًا ما لتوها».

أطلقت شاي صيحة استياء مكتومة. فحتى أسابيع قليلة مضت لم يكن الضبابيون يجلبون إلى مدينة «أجلي فيل» سوى الأفكار المرجوة لهم، لكنهم الآن يهربون شيئًا ما هو أخطر بكثير، ألا وهو الأقراص المحشوة بجزيئات النانو.

تقضي أقراص النانو على التلف المخي الذي يجعل الملاح مشوشي العقل، وتزيد من قوة عواطفهم الهوجاء وشهواتهم الفطرية. ومفعول هذه الأقراص دائم، وذلك على عكس بعض العقاقير التي يزول أثرها بعد فترة من الزمن؛ فأقراص النانو عبارة عن آلات شرهة مجهرية تنمو وتتكاثر ويزداد عددها يوميًا، وقد تلتهم بقية مخ المرء إن لم يحالفه الحظ، فقرص واحد فقط كفيل بالقضاء على المخ.

وقد سبق أن رأت تالي هذا يحدث بنفسها.

قالت شاي: «اقبضوا عليها».

تدفق الأدرينالين في مجرى دم تالي، ووصل صفاء ذهنها إلى حد جعلها لا تشعر بالموسيقى ولا حركة الحاضرين. هي أول من كشف موقع الفتاة، لذا فالقبض على هذه الفتاة مهمتها هي، وحقها هي.

حرّكت الخاتم الذي ترتديه في إصبعها الأوسط حركة دائرية وشعرت بإبرته الصغيرة تبرز، فوخزة واحدة كفيلة بأن تجعل الفتاة الضبابية تترنح وتقع فاقدة الوعي وكأنها قد سكرت، ثم تستعيد وعيها في مقر السلطات الخاصة، وتصبح جاهزة للخضوع لعملية جراحية.

أثارت تلك الفكرة الغثيان في نفس تالي، فالفتاة ستصبح عما قريب من مشوشي العقل: جميلة، مثالية، تنعم بالسعادة، وشديدة السذاجة.

لكنها على الأقل ستكون أحسن حالًا من زين المسكين.

كورت تالي أصابعها حول الإبرة حرصًا على ألا تطعن بها أحدًا من القبحاء الحاضرين، واقتربت بضع خطوات من الفتاة، ومدت يدها الأخرى وهي تزيح الفتى وتساءلت: «أتسمحين لي بالرقص معك؟».

اتسعت عيناه وابتسم ابتسامة واسعة وقال: «ماذا؟ تريدان الرقص معًا؟»

قالت الفتاة الضبابية: «لا بأس، ربما تريد أن ترقص معنا هي الأخرى». وفكت السترة من حول خصرها ثم رفعتها إلى كتفيها وأدخلت يديها في كميها ثم مدت يديها في جيوبها، فسمعت تالي خشخشة الكيس البلاستيكي.

قال الفتى: «ارقصا إلى أن تقعا من التعب». ورجع خطوة إلى الخلف ناظرًا إليهما شزرًا. وحين لاحظت تالي التعبير المرتسم على وجهه شعرت بحرارة تلفح وجنتيها مرة أخرى؛ فالفتى كان يتكلف الابتسام لها، وكأن تالي فتاة عادية يمكن لأي شخص أن يفكر في الفوز بها، وكأنها لم تكن من المتميزين. حينئذ بدأت تالي تشعر بازدياد سخونة القناع المصنوع من البلاستيك الذكي الذي يجعل ملامحها كملامح القبحاء.

هذا الفتى الغبي ظن أن تالي جاءت الحفل لتسليته، فلا بد أن يتبين له العكس، وعزمت تالي أن تتبع خطة جديدة.

ضغطت على أحد أزرار سوار الصدمات فانتشرت الإشارة التي أطلقها السوار في القناع البلاستيك الذكي الذي ترتديه على وجهها ويديها بسرعة الصوت، وأخذت

الجزيئات الذكية تتباعد، وتحول القناع القبيح إلى ذرات من الغبار كاشفًا عما يخفيه من جمال يشوبه القسوة. وأخذت تطرف بعينيها بشدة حتى تخلصت من العدسات اللاصقة، وظهرت حدقتاها فاحمتا السواد اللتان تشبهان عيون الذئاب في برد الشتاء. وشعرت بالأسنان الزائفة تنفك عن أسنانها فبصقتها لتسقط عند قدمي الفتى، فردت على ابتسامته بابتسامة كشرت فيها عن أنيابها.

كل هذا التحول استغرق أقل من ثانية، فلم يجد وقتًا كي يغير التعبير الذي على وجهه.

ابتسمت وقالت له: «انصرف أيها القبيح، وأنت» والتفتت إلى الضبابية وقالت: «أخرجي يديك من جيوبك».

ازدردت الفتاة ريقها وبسطت ذراعيها إلى جانبيها.

شعرت تالي بالأنظار تتجه نحو ملامحها القاسية فجأة، وشعرت باندهاش الحاضرين من الوشوم النابضة التي تزركش بشرتها. واختتمت عبارة القبض على الفتاة قائلة: «لا أريد أذيتك، لكنني سأفعل إن اضطررت».

قالت الفتاة بهدوء: «لن تضطري إلى ذلك»، ثم فعلت شيئًا بيديها وهي ترفع إبهاميها.

بدأت تالي تقول: «إياك أن تفكري ...»، ثم رأت بعد فوات الأوان نتوءات مخيطة في ملابس الفتاة، تشبه أحزمة سترة القفز، وبدأت الأحزمة تتحرك من تلقاء نفسها بحيث التفت حول كتفي الفتاة وفخذيها.

قالت الفتاة بصوت غاضب قوي: «يحيا الضباب».

مدت تالي يدها ...

... في اللحظة نفسها التي اندفعت فيها الفتاة في الجو وكأنها شريط مطاطي مشدود على آخره أُطلق سراحه من أسفل، ومرت يد تالي في الفراغ. أخذت تحدق إلى أعلى في ذهول وهي فاغرة فاهها، إذ كانت الفتاة لا تزال منطلقة إلى أعلى. فبطريقة مجهولة هُيئت بطارية سترة القفز بحيث تطلق الفتاة في الجو من وضع السكون مباشرةً.

لكن ألن تسقط على الفور؟

التقطت عينا تالي حركة في السماء المظلمة، إذا مر لوحان طائران بسرعة فوق مكان الحفل، أحدهما يركبه شخص ضبابي يرتدي ملابس مصنوعة من جلد غير مدبوغ والآخر خالٍ، وكان اللوحان قادمَين من عند حافة الغابة. وعند أعلى المنحنى

الذي انطلقت فيه الفتاة مد الضبابي يديه، دون أن يبطئ من سرعته وسحبها وهي في الجو إلى اللوح الخالي.

سرت قشعريرة في جسد تالي عندما تعرفت على سترة الفتى الضبابي، إذ كانت مصنوعة يدويًا من الجلد. وعلى ضوء ومضة قوية صدرت من أحد المصابيح الطائرة، التقط بصرها الفائق ندبة تمتد على أحد حاجبيه.

قالت لنفسها: «ديفيد!»

– «تالي، انتبهي!»

أفاقت تالي من انبهارها على تحذير شاي، ولفت نظرها وجود ألواح طائرة أخرى تمر فوق الحاضرين على ارتفاع منخفض للغاية فوق مستوى الرءوس بقليل. وشعرت تالي بسوار الصدمات الخاص بها يسجل حركة عنيفة من لوحها فثنت ركبتيها استعدادًا للقفز بالتزامن مع وصول اللوح.

بدأ الحاضرون يبتعدون عن تالي وقد صدمهم وجهُها ذو الملامح الجميلة القاسية وصعود الفتاة المفاجئ. أما الفتى الذي كان يرقص مع الفتاة الضبابية فحاول الإمساك بتالي لعرقلتها قائلًا: «إنها من المتميزين، ساعدوهم على الهرب».

لكن محاولته الإمساك بذراعها كانت بطيئة وغير بارعة، فضربت تالي الإبرة التي لم تستخدمها ضربة خفيفة بطرف إصبعها حتى توخزه بها كفه، فنظر الفتى إلى يده وحدق فيها وقد ارتسم على وجهه تعبير أبله لثوان ثم سقط على الأرض.

وعندما اصطدم جسده بالأرض كانت تالي قد انطلقت في الجو، وأمسكت بكلتا يديها طرف اللوح الذي يسهل الإمساك به بإحكام ثم دفعت قدميها إلى أعلى على سطح اللوح، وغيرت مركز ثقلها عليه حتى تغير وجهته إلى الاتجاه الذي تريده.

كانت شاي قد سبقتها إلى الصعود على متن لوحها، وأصدرت أوامرها وهي تشير إلى الفتى القبيح الغائب عن الوعي: «أحضره يا هوو»، وبينما تحول قناعها إلى ذرات من الغبار أضافت: «والباقون يتبعونني».

كانت تالي تنطلق إلى الأمام والرياح الباردة تضرب بعنف وجهها العاري، وهي تطلق صيحة قتال قوية، وتتطلع إليها مئات الوجوه على الأرض المشبعة بالجعة.

إن ديفيد أحد قادة الضبابيين، وهو أفضل جائزة يطمح الجارحون إلى الفوز بها في هذه الليلة الباردة، ولم تصدق تالي أنه قد تجرأ على دخول المدينة، لكنها ستبذل ما في وسعها حتى تمنعه من الخروج منها ثانية.

انطلقت تالي بلوحها في مسار متعرج بين المصابيح الطائرة التي تصدر أضواء متقطعة، وحلقت من مكان الحفل إلى الغابة. تأقلمت عيناها بسرعة مع الظلام، ورأت الضبابيَّين على بعد لا يزيد عن مائة متر عنها. كانا يطيران على ارتفاع منخفض ويميلان إلى الأمام وكأنهما متزلجان يركبان موجة عالية.

كان الضبابيان يسبقانها بمسافة كبيرة، لكن اللوح الطائر الذي كانت تالي تركبه مميز أيضًا؛ فهو الأفضل في المدينة. أخذت تالي تحرض اللوح على الانطلاق إلى الأمام فاحتك طرفه الأمامي بقمم الأشجار التي تعصف بها الرياح، فحطمها وحولها إلى قطع طويلة من الجليد.

لم تنس تالي أن والدة ديفيد هي من اخترعت جزيئات النانو، تلك الآلات التي تركت عقل زين على الحال التي آل إليها، ولم تنس أن ديفيد هو من أغرى شاي بالهرب إلى البرية منذ عدة أشهر، ولم تنس أنه أغوى شاي ثم أغواها هي وبذل كل ما في وسعه حتى يفسد صداقتهما.

المتميزون لا ينسون أعداءهم أبدًا.

قالت: «نلت منك الآن».

انطلقت تالي بلوحها في مسار متعرج بين المصابيح الطائرة التي تصدر أضواء متقطعة، وحلقت من مكان الحفل إلى الغابة. تأقلمت عيناها بسرعة مع الظلام، ورأت الضبابيَّين على بعد لا يزيد عن مائة متر عنها. كانا يطيران على ارتفاع منخفض ويميلان إلى الأمام وكأنهما متزلجان يركبان موجة عالية.

كان الضبابيان يسبقانها بمسافة كبيرة، لكن اللوح الطائر الذي كانت تالي تركبه مميز أيضًا؛ فهو الأفضل في المدينة. أخذت تالي تحرض اللوح على الانطلاق إلى الأمام فاحتك طرفه الأمامي بقمم الأشجار التي تعصف بها الرياح، فحطمها وحولها إلى قطع طويلة من الجليد.

لم تنس تالي أن والدة ديفيد هي من اخترعت جزيئات النانو، تلك الآلات التي تركت عقل زين على الحال التي آل إليها، ولم تنس أن ديفيد هو من أغرى شاي بالهرب إلى البرية منذ عدة أشهر، ولم تنس أنه أغوى شاي ثم أغواها هي وبذل كل ما في وسعه حتى يفسد صداقتهما.

المتميزون لا ينسون أعداءهم أبدًا.

قالت: «نلت منك الآن».

الفصل الثاني

صيادون وفريسة

قالت شاي: «انتشروا، لا تدعوهم يغيرون اتجاههم وينطلقون نحو النهر».

ضيقت تالي عينيها وهي تحاول النظر من خلال الرياح القوية، وأخذت تمرر لسانها على أطراف أسنانها التي صارت مكشوفة بعد أن أزالت الأسنان الزائفة من عليها. وكان اللوح الذي تركبه تالي والمخصص للجارحين مزود بمراوح تساعده على الارتفاع من طرفيه الأمامي والخلفي، والتي كانت عبارة عن ريشات دوارة تمكنه من الطيران خارج حدود المدينة. أما الألواح الطائرة القديمة التي يركبها الضبابيان فستسقط كالحجارة لو تخطت نطاق الشبكة المغناطيسية. فالضبابيون لم يجدوا من العيش في البرية سوى إعصار البرد، وآفات الحشرات، والتكنولوجيا الرديئة. وفي لحظة ما سيضطر الضبابيان إلى الإسراع نحو النهر للطيران فوقه نظرًا لأنه غني بالرواسب المعدنية.

سأل فاوستو: «أيتها القائدة؟ هل أذهب إلى المعسكر لكي أجلب التعزيزات؟».

– «إنه أبعد من أن تعود منه في الوقت المناسب».

– «هل نستعين بدكتورة كابل؟».

قالت شاي: «دعك منها، هذه مهمة خاصة بالجارحين، ولا نريد أن يذهب فضل إنجازها إلى أي من المتميزين النظاميين».

قالت تالي: «خاصة هذه المرة، فديفيد أحدهما».

مرت فترة صمت طويلة، ثم نقلت الشبكة ضحكة حادة أطلقتها شاي، فسرت قشعريرة في جسد تالي، قالت شاي: «حبيبك القديم، أليس كذلك؟».

جزت تالي على أسنانها وكشرت عنها وهي تواجه الرياح الباردة، وشعرت للحظات بوطأة المواقف المحرجة التي عاشتها حينما كانوا قبحاء، وبشكل ما لم

يمح الشعور القديم بالذنب تمامًا، قالت: «وحبيبك أنت أيضًا أيتها القائدة، حسبما أذكر».

لم يكن من شاي إلا أن ضحكت مرة أخرى وقالت: «أظن أن لكل منا حسابًا يصفيه، لا تطلب نجدةً مهما يكن الأمر، فأمر هذا الفتى يخصنا وحدنا».

ارتسم تعبير يوحي بالتصميم على وجه تالي، لكن الاضطراب الذي أصاب معدتها من فرط الانفعال لم يهدأ. فعندما كانت شاي وديفيد في منطقة الضباب كانا متحابين، ولكن في ذلك التوقيت وصلت تالي إلى تلك المنطقة واكتشف ديفيد أنه معجب بها أكثر من إعجابه بشاي، وفسدت الأمور كالمعتاد بسبب الغيرة والحرمان العاطفي المرتبطين بكون المرء من القبحاء. ولم يختف غضب شاي بسبب تلك الخيانة قط حتى بعد تدمير منطقة الضباب، وحتى عندما كانت شاي وتالي من مشوشي العقل السذج.

الآن وقد أصبحتا من المتميزين، لم يعد من المفترض أن تكون لهذه المواقف القديمة أية أهمية، لكن رؤية ديفيد عكرت الصفاء الذهني لتالي وجعلتها تشك أن شاي لا تزال تضمر في أعماقها غضبًا من الأخرى.

ربما يؤدي القبض على ديفيد إلى وضع نهاية حاسمة للمشكلة التي بينهما. أخذت تالي نفسًا عميقًا ومالت إلى الأمام لكي تحث لوحها الطائر على زيادة سرعته.

كانت حافة المدينة تقترب أكثر، وفجأة تحول الحزام الأخضر الذي كان يبدو أسفل الألواح الطائرة إلى ضواحي ضمت صفوفًا من بيوت كئيبة المنظر يربي فيها الحسان الراشدون متوسطو العمر صغارهم. هبط الضبابيان إلى مستوى الشوارع وأخذا يندفعان بسرعة عند منعطفات حادة، وكلٌ منهما يثني ركبتيه ويبسط ذراعيه من آخرهما.

انعطفت تالي مع أول منعطف حاد في المطاردة، وبدأت ترتسم على وجهها ابتسامة حينما كان جسدها ينثني وينحني مع المنعطف. لقد كانت هذه هي الطريقة المعتادة لهروب الضبابيين، لأن المتميزين النظاميين لا يستطيعون الانطلاق بسرعة بعرباتهم الطائرة غير المجهزة إلا إن كانت تطير في خط مستقيم، لكن الجارحين يعدون من صفوة المتميزين الذين يتمتعون بقدرة الضبابيين نفسها على الحركة والجموح نفسه.

قالت شاي: «اتبعيهما يا تالي-واه». كان الآخرون لا يزالون متخلفين عنها بعدة ثوانٍ.

– «على الرحب والسعة أيتها القائدة.» مرت تالي بسرعة فوق الشوارع الضيقة حتى إنها كانت تحلق على ارتفاع متر واحد فوق المباني الخرسانية. من حسن الحظ أن الحسان الراشدين متوسطي العمر لا يخرجون في هذا الوقت المتأخر؛ إذ إنه لو تصادف وجود أحدهم في مسار المطاردة فإن ضربةً غير مباشرة من اللوح الطائر كفيلة بأن تمزقه إربًا.

لم يكن ضيق المسافة بين تالي ومن تطاردهما ليجبرهما على إبطاء سرعتهما. وكانت تالي تذكر من المدة التي قضتها في منطقة الضباب كم كان ديفيد يجيد ركوب الألواح الطائرة، وكأنه ولد على لوح طائر، أما الفتاة الأخرى، فربما تكون قد تمرنت كثيرًا في أزقة الأطلال القديمة، وهي مدينة مهجورة قديمة يشن منها الضبابيون هجماتهم على المدينة.

لكن تالي أصبحت الآن من المتميزين. وقدرتها على الاستجابة بسرعة مناسبة تفوق قدرة ديفيد على ذلك بكثير، وكل ما تلقاه من تدريب لا يغني عن فكرة أنه وليد الفطرة؛ أي أنه مخلوق ما يزال على فطرته. أما تالي فقد تشكلت — أو أعيد تشكيلها بتعبير أدق — خصوصًا لمطاردة أعداء المدينة وتقديمهم للعدالة، وحماية البرية من الدمار.

زادت تالي من سرعتها وهي تنحرف عند منعطف صعب وارتطمت بزاوية منزل مظلم محطمة مزرابه تمامًا. كان ديفيد قريبًا جدًا حتى إنها سمعت صرير حذائه المقاوم للانزلاق وهو يغير اتجاهه على لوحه الطائر.

في غضون ثوان معدودة ستتمكن من القفز من على لوحها وجذبه فيسقطان إلى أن يوقفهما سواراهما الواقيان من الصدمات بغتة في هبوط لولبي يشعرهما بانتزاع كتفيهما. وبالطبع مع هذه السرعة سيشعر جسدها بشيء من الألم وإن كان جسدًا له سمات خاصة، أما الأجساد البشرية العادية فربما تصاب بإصابات شتى ...

أطبقت تالي قبضتيها لكنها تركت لوحها يتراجع قليلًا؛ فعليها أن تتخذ الخطوة التالية في مكان مفتوح، فهي لا تريد أن تقتل ديفيد على أية حال، بل تريد أن تراه وقد صار مروضًا ومن مشوشي العقل، أي أن يصبح من الحسان والسذج وأن يخرج من حياتها للأبد.

وعند المنعطف الحاد التالي، التفت ديفيد خلفه وألقى نظرةً خاطفة، فلمحت تالي على وجهه نظرةً تنبئ بأنه تعرف عليها. لا بد أن ملامحها الجديدة الجميلة المشوبة بالقسوة قد صدمته صدمةً شديدة.

همست قائلةً: «نعم، هذه أنا يا صاحبي».

قالت شاي: «على رسلك يا تالي-وا، انتظري حتى تصلي إلى حافة المدينة، احرصي على أن تكوني قريبة منه فحسب».

– «حسنًا أيتها القائدة.» خففت تالي سرعتها قليلًا مرة أخرى وهي سعيدة لأن ديفيد صار يعلم هوية من يطارده.

وسرعان ما بلغت المطاردة التي كانت تجري بسرعة قصوى إلى المنطقة الصناعية ... حلقوا جميعًا عاليًا حتى يتفادوا شاحنات النقل الآلية التي تنطلق في الظلام وهي تدمدم والمزودة بأضواء سفلية برتقالية تقرأ علامات الطريق حتى تصل إلى وجهاتها، انتشر الجارحون الثلاثة الآخرون خلف تالي، وبهذا حرموا الضبابيَّين من أية فرصة للرجوع.

ألقت تالي نظرة خاطفةً على النجوم وأجرت حسابات سريعة، فتبين لها أن الضبابيَّين لا يزالان يبتعدان عن النهر منطلقين بسرعة سعيًا وراء شبكة معدنية معينة تلتقط لوحيهما عند حافة المدينة.

قالت تالي: «هذا غريب نوعًا ما أيتها القائدة، لماذا لا يتجه ديفيد نحو النهر؟»

– «ربما ضل طريقه، فهو فقط شخص فطري يا تالي-وا، ولم يعد ذلك الفتى الشجاع الذي تتذكرينه».

سمعت تالي ضحكات خافتة عبر الشبكة وشعرت بوجنتيها تتقدان من الحرارة التي تدفقت فيهما. لم لا يكفون عن التصرف وكأن ديفيد يحتل مكانة في قلبها؟ إنه لا يعدو أن يكون شخصًا قبيحًا جبل على فطرته. ومع هذا فإن التسلل إلى المدينة على هذا النحو يعكس درجة من الشجاعة ... وإن كان هذا التصرف غبيًا جدًا.

قال فاوستو: «ربما يتوجهان نحو ممشى التريلز».

هذا الممشى هو محمية طبيعية كبيرة على الجانب المقابل لمدينة كرامبلي فيل، وهو مكان يتنزه فيه الحسان الراشدون متوسطو العمر سيرًا على الأقدام لمسافات طويلة، وقد صُمم بحيث يمنحهم انطباعًا بأنهم يخرجون إلى الطبيعة، فهو يشبه البرية، غير أنه تتوفر فيه إمكانية الاستعانة بالعربات الطائرة إن أُصيب المرء بالإرهاق.

ربما ظنا أنه يمكنهما الهرب سيرًا على الأقدام في هذا الممشى. ألا يدرك ديفيد أن الجارحين يستطيعون الطيران إلى ما وراء حافة المدينة؟ وأنهم يستطيعون الرؤية في الظلام؟

سألت تالي: «هل أنقض عليه؟» فهنا في المنطقة الصناعية، يمكنها أن تسقط ديفيد من على لوحه دون أن تقتله.

ردت شاي ببرود: «اهدئي يا تالي، ذاك أمر عليك أن تطيعه. فنطاق الشبكة المعدنية سينتهي أيًا كان الطريق الذي سيسلكانه من هنا».

ضمت تالي قبضتيها لكنها لم تجادلها.

لقد سبقتهم شاي في الانضمام إلى المتميزين منذ وقت طويل، فقد كان عقلها صافٍ جدًا حتى إنها حولت نفسها إلى واحدة من المتميزين — عقلًا على الأقل — وتخلصت من حالة التشوش الذهني ولم تستعن في ذلك إلا بسكين حادة قطعت بها جلدها. وشاي هي من عقدت مع دكتورة كابل الصفقة التي سُمح بموجبها للجارحين بتدمير منطقة الضباب الجديد بالطريقة التي يريدونها.

لذا فإن شاي هي القائدة، وإطاعة أوامرها ليست أمرًا شديد السوء في واقع الأمر، بل إنه أفضل من التفكير؛ إذ إنه قد يصيب المرء بالارتباك.

ظهرت الأبنية الرائعة لمدينة كرامبلي فيل أسفلهما، ورأوا حدائق غير مزروعة تنتظر أن يزرع فيها الحسان كباب السكر وزهور الربيع. هبط ديفيد وشريكته إلى مستوى لا يرتفع عن مستوى الأرض إلا قليلًا؛ وظلا على هذا الارتفاع المنخفض حتى يتيحا للروافع المثبتة في الألواح الطائرة فرصة الاستفادة من الشبكة المعدنية للمدينة إلى أقصى حد ممكن.

رأت تالي أصابعهما تتلامس وهما يقفزان فوق سياج منخفض، وودت أن تعرف إن كانا متحابين. فعلى الأرجح وجد ديفيد فتاة أخرى من الضبابيين يحطم حياتها.

لقد كان شغله الشاغل هو تجنيد القبحاء حتى يهربوا، وإغواء أفضل أطفال المدن وأكثرهم ذكاءً بوعد الثورة. ودائمًا ما يتخذ منهم أصفياء، في البداية كانت شاي، ثم تالي ...

هزت تالي رأسها حتى تصفي ذهنها، وذكرت نفسها بأن الحياة الاجتماعية للضبابيين لا تهم أيًا من المتميزين.

مالت تالي إلى الأمام حتى تحث لوحها على الإسراع. فقد كان ممشى تريلز — الذي بدا رقعة معتمة — أمامها مباشرة. كادت هذه المطاردة تنتهي.

غاب الاثنان في الظلام واختفيا بين الأشجار الكثيفة. ارتفعت تالي حتى تمر بخفة على الغطاء الشجري للغابة، باحثةً على ضوء القمر الساطع عن علامات ترشد إلى الطريق الذي سلكاه. وكانت البرية الحقيقية تمتد فيما وراء التريلز، حيث الظلام الحالك للبرية.

اندفع اللوحان الطائران اللذان يركبهما الضبابيان كرياح تهب على الغابة، فارتجفت قمم الأشجار ...

قالت تالي: «لا يزالان يتجهان إلى الخارج مباشرةً».

ردت عليها شاي: «نحن خلفك مباشرةً يا تالي-وا، أتودين أن تنضمي إلينا بالأسفل هنا؟»

– «بالتأكيد أيتها القائدة.» غطت تالي وجهها بيديها وهي تهبط، وأخذ يرتطم بها وابل من الأوراق الإبرية ينهمر من أخمص قدمها وحتى أعلى رأسها لتمر أغصان الصنوبر بمحاذاة جسدها وتلامسها بلطف أثناء هبوطها، ثم أصبحت بين جذوع الأشجار فانطلقت بلوحها في الغابة وقد ثنت ركبتيها واتسعت عيناها.

كان الجارحون الثلاثة قد لحقوا بها واتخذ كل منهم موقعًا يبعد عن موقع الآخر نحو مائة متر، واكتسبت الوجوه الحسناء ذات الملامح القاسية هيئة شيطانية على ضوء القمر المتقطع.

وعلى الحدود بين المشي والبرية الحقيقية كان الضبابيان اللذان يتقدمانهم قد بدآ رحلة الهبوط، إذ خرجت الروافع المغناطيسية في لوحيهما عن المجال الذي تتوفر فيه المعادن. وتردد في الغابة صوت لوحيهما وهما يهبطان وينزلقان فوق الشجيرات، وتبعته أصوات أقدام تجري.

قالت شاي: «قضي الأمر».

بدأت مراوح الرفع المثبتة في لوح تالي في العمل على نحو مفاجئ، فانطلق بين الأشجار أزيز مكتوم يشبه صوت زمجرة حيوان في البيات الشتوي. أبطأ الجارحون سرعتهم وهبطوا حتى وصلوا إلى ارتفاع لا يتجاوز بضعة أمتار، باحثين في الأفق المظلم عن أية حركة.

سرت رجفة ممتعة في جسد تالي؛ إذ تحولت المطاردة إلى لعبة غميضة.

لكن فرص الفريقين ليست متكافئة على الإطلاق. حركت تالي إصبعها فاستجابت الشرائح المغروسة في يديها ومخها وعرضت على مجال رؤيتها حزمة ترددات من الأشعة تحت الحمراء. تغير شكل العالم من حولها — فتحولت الأرض المكسوة بالثلج إلى لون أزرق مائل إلى الأخضر وانبعثت من الأشجار هالات بلون أخضر فاتح — وأصبحت كل الأشياء تضيء بالحرارة المنبعثة منها. وباللون الأحمر ظهرت بوضوح بضع ثدييات صغيرة أخذت تنبض، ورءوسها ترتعش وكأن حدسها أنبأها أنه يوجد خطر بالقرب منها. وفي مكان غير بعيد، ظهرت صورة متوهجة لفاوستو

وهو يطير، وبدا لون جسده المتقد أصفر فاقعًا، وخُيل إلى تالي أن يديها صارتا تضطرمان بلهيب برتقالي.

لكن في الظلام الممتد أمامها الذي صار يتخذ لونًا أرجوانيًا، لم تلمح أي شيء بالحجم البشري.

قطبت تالي جبينها وأخذت تنظر تارة ببصرها الطبيعي وتارةً بالأشعة تحت الحمراء، ثم قالت: «أين ذهبا؟»

همس فاوستو قائلًا: «لا بد أن لديهما بذلتي للتخفي، وإلا لاستطعنا أن نراهما».

قالت شاي: «أو نشم رائحتهما على الأقل. ربما ليس صاحبك قطريًا تمامًا يا تالي-واء».

قال تاكس: «ماذا نفعل؟»

– «ننزل من على الألواح ونستعين بآذاننا».

تركت تالي لوحها الطائر يهبط إلى الأرض، فتسببت أذرع الروافع في تكسير الغصون الصغيرة وأوراق الشجر الجافة وهي تكون استعدادًا للتوقف. قفزت من على سطح اللوح حين سكن في مكانه، واخترق برد أواخر الشتاء حذاءها المقاوم للانزلاق.

أخذت تالي تحرك أصابع قدميها وبدأت تستمع إلى الأصوات الصادرة في الغابة وهي تراقب أنفاسها وهي تتصاعد أمام وجهها في تموجات، وراحت تنتظر تلاشي طنين الألواح الأخرى. عندما خيم الصمت على المكان، التقطت أذناها صوتًا خافتًا ينطلق في إيقاع سريع متكرر من كل مكان حولها، وكان ذلك هو صوت الرياح تحرك أوراق شجر الصنوبر الإبرية المكسوة بطبقة رقيقة من الجليد. ورفرفت بضعة طيور فكسرت سكون الهواء، وأخذت السناجب الجائعة تبحث عن الجوز المدفون بعد أن استيقظت من سبات شتوي طويل. تناهى إلى سمع تالي صوت تنفس الجارحين الآخرين عبر قناة شبكة التواصل الخفية منعزلًا عن باقي العالم.

لكن لا يوجد شيء يتحرك على أرض الغابة يشبه البشر.

ابتسمت تالي؛ لأن ديفيد نجح على الأقل في إضفاء جاذبية على اللعبة، وذلك بحرصه على ألا يحرك ساكنًا هكذا. لكن الضبابيين لا يستطيعان أن يظلا بلا حركة إلى الأبد حتى وإن كانا يرتديان بذلات التخفي التي تحجب حرارة الجسد.

إضافةً إلى هذا فإنها تشعر بوجوده، إنه قريب.

وتنفت تالي عمل شبكة التواصل حتى لا تسمع ضجيج الجارحين الآخرين، وظلت وحدها في عالم صامت تراه بالأشعة تحت الحمراء. ركعت وهي مغمضة العينين واضعة إحدى راحتيها العاريتين على الأرض الصلبة المغطاة بالجليد. وكانت يداها المتميزتان مزودتين بشرائح تلتقط أخف الذبذبات، وأخذت تنصت بجسدها كله إلى الأصوات الشاردة.

شعرت بشيء ما يسري في الهواء ... طنين يتجاوز حدود السمع، فبدا أقرب إلى حكة في أذنها من كونه صوتًا حقيقيًا. وكان هذا من بين الأشياء الخفية التي أصبحت قادرة على سماعها الآن، مثل غمغمة جهازها العصبي وأزيز الأضواء الفلورية. لقد كان المتميزون يتمتعون بالقدرة على سماع الكثير جدًّا من الأصوات التي يعجز القبحاء ومن يعانون من التشوش الذهني عن سماعها، وتكون غريبةً وغير متوقعة مثلما تبدو ثنيات الجلد البشري غريبة تحت المجهر.

لكن ما هذا الصوت بالتحديد؟ كان يرتفع ويخبو مع النسيم، كالأصوات التي تصدر من خطوط الضغط العالي الممتدة من صفوف الخلايا الشمسية في المدينة. ربما كان هناك شيء ما، ربما كان الصوت صادرًا من سلك مشدود بين شجرتين، أو من سكين حادة وُضعت بحيث تهب عليها الرياح.

ظلت تالي مغمضة العينين وأخذت تصغي باهتمام أكبر وهي تقطب جبينها.

بدأت تسمع أصواتًا أخرى فضلًا عن الصوت الأول، أخذت تتردد من جميع الاتجاهات الآن. بدأت تدوي ثلاثة أصوات حادة ثم أربعة ثم خمسة، ودرجة ارتفاعها مجتمعة لا تعلو على صوت طائر طنان على بعد مائة متر.

فتحت تالي عينيها وبينما تتأقلمان مع الظلام، إذ بها تراهم فجأة. فقد تبينت وجود تغير طفيف تمثل في صورة ظلية لخمس هيئات بشرية منتشرة في الغابة، وبذلات التخفي التي يرتدونها مموهة ببراعة مع الخلفية.

ثم لاحظت طريقة وقوفهم — كان كل منهم يقف وقد باعد بين رجليه ودفع بذراع إلى الخلف ومد الذراع الأخرى للأمام — وأدركت كنه الأصوات ...

لقد كان صوت أوتار أقواس مشدودة وعلى استعداد لإطلاق سهامها.

قالت تالي: «كمين» ثم أدركت أنها أطفأت شبكة التواصل المغروسة في جلدها. أعادت تشغيلها وفي اللحظة نفسها انطلق أول سهم.

الفصل الثالث

قتال تحت جنح الليل

مرت السهام في الهواء.

تدحرجت تالي على الأرض مستلقيةً على طبقة من أوراق الشجر الإبرية المكسوة بالجليد. ومر بجوارها شيء يطلق صفيرًا، وكان قريبًا حتى إنه أهاج شعرها.

على بعد عشرين مترًا منها، أصاب أحد السهام هدفًا وسمعت صوت أزيز كهربائي كالصوت الذي يصدر حين يزداد حمل على شبكة ما وأطلق ناكس صيحة مكتومة، ثم انطلق سهم آخر فأصاب فاوستو وسمعته يشهق ثم سكتت الأصوات الصادرة من شبكته. فأسرعت تبحث عن ساتر خلف أقرب شجرة إليها، وفي الوقت نفسه سمعت صوت ارتطام جسدين بالأرض الصلبة. همست تالي وهي تنادي على القائدة: «شاي!»

جاءها الرد: «لم يفلحوا في إصابتي، فقد رأيت السهم وهو قادم نحوي».

– «أنا أيضًا رأيته، لا شك أن معهم بذلات تخفٍ» وعادت تالي تحتمي أمام الجذع الضخم، وأخذت تبحث بعينيها عن صورهم الظلية بين الأشجار.

قالت شاي: «وأشعة تحت حمراء أيضًا». كان صوتها هادئًا.

نظرت تالي إلى يديها اللتين تتوهجان بشدة في الأشعة تحت الحمراء وابتلعت ريقها، وقالت: «أتقصدين أنهم يستطيعون رؤيتنا بوضوح، ولا نستطيع نحن رؤيتهم؟»

– «أظن أنني بخست صاحبك قدره يا تالي-وا».

– «ربما لو تذكرت أنه كان صاحبك أنت أيضًا ســ ...» تحرك جسم ما بين الأشجار أمامها، وما إن كفت عن الكلام حتى سمعت صوت طقطقة وتر قوس. ألقت بنفسها جانبًا في الوقت نفسه الذي اصطدم فيه سهم بالشجرة مصدرًا أزيزًا كأزيز العصا الكهربائية، وغامرًا الجذع بشبكة من الأنوار المتقطعة.

ابتعدت تالي مسرعة وأخذت تتدحرج نحو بقعة تلتف فيها أغصان شجرتين بعضها حول بعض. حشرت نفسها في بقعة ضيقة بين غصنين متقوسين وقالت: «ما الخطة الآن أيتها القائدة؟»

وبختها شاي بلطف قائلة: «الخطة هي أن نسحقهم يا تالي-وا، نحن المتميزون، صحيح أنهم فازوا في الجولة الأولى لكن هذا لا يغير واقع أنهم ليسوا سوى فطريين.» صدر صوت وتر آخر وأطلقت شاي صيحة مكتومة، وتبع ذلك صوت وقع أقدام تجري بأقصى سرعة في الأجمة.

سمعت تالي أصوات أوتار أخرى فانبطحت أرضًا، لكن السهام انطلقت نحو المنطقة البعيدة التي لجأت إليها شاي. اهتزت في أرجاء الغابة ظلال متراقصة، أعقبتها أصوات تفريغ شحنات كهربائية.

قالت شاي وهي تضحك ضحكة خافتة: «أخطئوا الهدف مرةً أخرى».

ابتلعت تالي ريقها وهي تحاول الإصغاء متجاهلة دقات قلبها الجنونية، وهي ناقمة لأن الجارحين لم يكلفوا أنفسهم عناء إحضار بذلات تخفٍ، أو أسلحة رماية أو أي شيء يمكنها استخدامه الآن. كل ما لديها هو السكين، وأظافرها، وقدرتها الفائقة على الاستجابة بسرعة مناسبة، وعضلاتها.

الأمر المحرج أنها أصبحت مشوشة دون أن تدري كيف حدث هذا. هل هي مختبئة حقًا خلف هذه الأشجار؟ أم أن مهاجمًا ينظر إليها مباشرةً وهو يثبت سهمًا آخر في الوتر بهدوء حتى يصيبها؟

رفعت تالي بصرها لتحاول الاهتداء بالنجوم، لكن الأغصان كانت تحول دون ذلك. انتظرت وحاولت أن تتنفس ببطء لتهدئ من روعها. ما داموا لم يطلقوا عليها سهامًا أخرى، فلا بد أنهم لا يرونها.

لكن ترى هل الأفضل أن تفر، أم تظل في مكانها؟

شعرت تالي أنها عارية وهي محشورة بين الشجرتين. لم يحارب الضبابيون على هذا النحو من قبل، وإنما كانوا دائمًا ما يهربون ويختبئون عند ظهور المتميزين. كان التدريب الذي تلقته لتصبح من الجارحين يقوم بأكمله على اقتفاء الأثر والأسر، ولم يتناول قط طريقة مواجهة مهاجمين لا تراهم.

لمحت تالي هيئة شاي المتوهجة باللون الأصفر الفاقع وهي تتوغل في أعماق ممشى التريلز مبتعدةً حتى أصبحت تالي بمفردها.

همست تالي قائلةً: «أيتها القائدة، ربما يجب علينا استدعاء بعض المتميزين النظاميين».

– «لا عليك يا تالي، إياك أن تحرجيني أمام دكتورة كابل، فقط ابقي في مكانك، وأنا سأقدم من الجانب الآخر. ربما نتمكن من نصب كمين ما».

– «حسنًا، لكن كيف ستنجح في ذلك؟ أعني أننا لا نراهم، كما أننا لسنا ...»

– «صبرًا يا تالي-وا، وامنحيني بعض الهدوء لو سمحت.»

تنهدت تالي وأغمضت عينيها آملةً أن تهدأ ضربات قلبها. وأخذت تنصت بأذنها لعلها تلتقط صوت طنين الأوتار المشدودة.

دوت خلفها من مكان قريب رنة ذات نبرة متذبذبة، كان صوت قوس مشدود وقد ثُبت فيه سهم على استعداد للانطلاق. ثم سمعت رنة أخرى، ثم ثالثة ... لكن هل هم يصوبون نحوها؟ عدت إلى عشرة ببطء منتظرةً سماع صوت سهم ينطلق، لكنها لم تسمع أي صوت.

لا بد أنهم لا يرونها وهي هنا، لكنها كانت قد أحصت خمسة ضبابيين، فإن كان ثلاثة منهم يشدون أوتار أقواسهم، فأين الاثنان الآخران؟

عندئذ التقطت أذناها صوت وقع أقدام تتحرك من خلال أوراق شجر الصنوبر، وكان صوتها أضعف من صوت أنفاس شاي الهادئة الرتيبة، ولكنهم يتمتعون بحذر وهدوء يفوق ما يتمتع به الفطريون الذين ولدوا في المدينة. لا يمكن أن يتحرك أحد بهذا الهدوء إلا من نشأ في البرية.

ديفيد.

وقفت تالي ببطء ملصقةً ظهرها بجذع الشجرة وهي تفتح عينيها.

اقترب وقع الأقدام منها من جهة اليمين، فانسلت بحذر بخطوات جانبية، وحرصت على أن تكون الأشجار بينها وبين مصدر الصوت.

ألقت تالي نظرة خاطفةً إلى أعلى وهي تفكر فيما إذا كانت أغصان الشجرة سميكة بما يكفي لحجب حرارة جسدها عن أجهزة الرؤية بالأشعة تحت الحمراء. لكن من المستحيل أن تتسلق الشجرة دون أن يسمعها ديفيد، فهو قريب ... ربما تنجح لو اندفعت ووخزته بخاتمها قبل أن يطلق الضبابيون الآخرون سهامهم. فمهما يكن الأمر، ما هم إلا قبحاء، فطريون مغرورون فقدوا ميزة عنصر المفاجأة.

أدارت تالي خاتمها الذي يحتوي على الإبرة حتى خرجت منه إبرة مشحونة حديثًا، وهمست قائلةً: «شاي، أين هو؟»

جاءها الرد في همس شديد الخفوت: «على بعد اثني عشر مترًا منك جاثيًا ينظر إلى الأرض».

تستطيع تالي أن تقطع اثني عشر مترًا جريًا في ثواني معدودة حتى لو انطلقت من وضع السكون ... إن فعلت هذا، هل سيعجز الضبابيون عن إصابتها من فرط سرعتها؟

همست شاي قائلة: «خبر سيئ، لقد وجد لوح تاكس».

عضت تالي على شفتها السفلية وقد أدركت الهدف وراء الكمين الذي نصبوه: لقد أراد الضبابيون الاستيلاء على أحد الألواح الطائرة التي تستخدمها السلطات الخاصة.

قالت شاي: «استعدي أنا في طريقي إليك». وفي المدى أخذت هيئتها المتوهجة تومض وتنطفئ بين شجرتين. كانت ملحوظة للغاية لكنها سريعة وبعيدة إلى حد يحول دون أن يصيبها سلاح بطيء كالسهم.

أغمضت تالي عينيها مرةً أخرى وأخذت ترهف السمع. سمعت وقع أقدام أخرى، أدركت من علو صوتها وثقلها أنها ليست الرقيقة، الأرجح أن هذا هو الضبابي الخامس يبحث عن لوح آخر من ألواح الجارحين.

كان يمكن انتظار خطوتها القادمة. فتحت تالي عينيها ...

دوى في الغابة صوت أثار رعبها وهو صوت مراوح الرفع للوح طائر وهي تبدأ التشغيل وتطرد الأغصان وأوراق شجر الصنوبر المهشمة.

قالت شاي بغضب: «أوقفيه!»

كانت تالي قد تحركت قبل ذلك واندفعت نحو مصدر الصوت وهي تدرك في ارتياع أن صوت مراوح الرفع مرتفع إلى حد كفيل بحجب صوت أوتار الأقواس. ارتفع اللوح أمامها وعليه جسد يتوهج بوهج أصفر زاه ويتدلى منه ذراعا صورة ظلية سوداء. صاحت قائلةً: «إنه يختطف تاكس!» لم يعد أمامها إلا خطوتان أخريان ويصير بإمكانها أن تقفز ... «انحني يا تالي!»

انحنت بسرعة واحتكت ريشات أحد الأسهم بكتفها وهي تدور في الهواء، فتسبب أزيز شحنته الكهربائية في انتصاب شعر رأسها. مر بجوارها سهم آخر وهي تنهض بسرعة راجية ألا يكون هناك المزيد من السهام في الطريق إليها.

كان اللوح يعلوها بثلاثة أمتار، وكان يرتفع ببطء متأرجحًا تحت وطأة حمولته المضاعفة. قفزت تالي لأعلى مباشرة إلى مراوح الرفع فهب هواؤها الثائر في وجهها.

وللحظة الأخيرة تخيلت تالي أن أصابعها اندفعت في مراوح الرفع وتمزقت إربًا لتتحول إلى نافورة من الدماء والغضاريف، فتراجعت جرأتها. أمسكت أطراف أصابعها بحافة سطح اللوح وبالكاد تعلقت به، فبدأ اللوح يهبط ببطء نحو الأرض بفعل وزنها.

رأت تالي بطرف عينيها سهمًا يطير نحوها فلفت جسدها بقوة في الهواء لتتفاداه، ومر السهم بجوارها، لكن قبضتها على اللوح ارتخت، وانزلقت يد ثم تبعتها الأخرى ...

سقطت تالي، وشق الهواء صوت لوح ثان. إنهم يسرقون لوحًا آخر.

صاحت شاي حتى يعلو صوتها على صوت الضوضاء قائلةً: «ساعديني على التسلق!»

هبطت تالي جاثمة وسط كومة من أوراق شجر الصنوبر التي تدور في دوامة، ورأت هيئة شاي المتوهجة باللون الأصفر تركض نحوها مباشرةً بأقصى سرعة. شبَّكت تالي أصابعها وشكلت يديها على هيئة وعاء عند وسطها، وتهيأت لمساعدة شاي على اعتلاء اللوح الذي كان يجاهد حتى يرتفع مرةً أخرى.

انطلق سهم آخر من قلب الظلام نحو تالي، لكنها إن انحنت فستصيب شاي بالسهم وهي تقفز. أطبقت تالي أسنانها مترقبةً الألم الحاد القادم.

لكن اضطراب الهواء الناتج عن دوران مروحة اللوح الطائر دفعت السهم إلى أسفل وكأنها يد خفية، فانغرس في الأرض بين قدمي تالي وانفجر مطلقًا شبكة من الأضواء المتألقة انعكس بريقها على الأرض الجليدية. شعرت تالي بالشحنات الكهربائية للسهم في الهواء الرطب، وشعرت بقشعريرة تسري فيها أشبه بأصابع دقيقة خفية تداعب جلدها، لكن نعل الحذاء المقاوم للانزلاق حمى قدميها من تلك الشحنات الكهربائية، ثم سقط ثقل شاي على يديها المتشابكتين، فأطلقت صيحة مكتومةً ودفعتها تالي لأعلى بكل قوتها. أطلقت شاي صرخةً وهي ترتفع في الجو، ومالت تالي إلى جانب واحد وهي تتخيل المزيد من السهام تنطلق نحوها، ومس السهم المنطلق قدميها وهو يطلق أزيزًا، ثم دارت وسقطت إلى الوراء على الأرض.

مر بجوارها سهم آخر بسرعة خاطفة على بعد سنتيمترات قليلة عن وجهها ...

رفعت تالي بصرها فوجدت أن شاي هبطت على اللوح الطائر مما جعله يتأرجح بعنف. تذمرت مراوح الرفع بسبب الحمولة الزائدة التي يبلغ ثقلها ثلاثة أضعاف ما يتحمله اللوح. رفعت شاي يدها لتوخز ديفيد بالإبرة، لكن ديفيد، الذي لا ترى منه سوى الظل، دفع تاكس نحوها حتى يجبرها على الإمساك بجسده المتراخي. أخذت شاي تحرك قدميها عند حافة اللوح محاولةً أن تحول دون سقوطهما.

وعندئذٍ هاجمها ديفيد مصيبًا كتفها بعصا كهربائية يحملها في يده. وتلألأت سماء الليل بشبكة أخرى من الشرر.

هبت تالي واقفةً وسارعت إلى القتال مرة أخرى. إن الضبابيين لا يقاتلون حسب القواعد المتبعة.

وحين نظرت تالي فوقها رأت جسدًا يتوهج بومج أصفر زاه يسقط من على اللوح ورأسه إلى أسفل ... قفزت تالي إلى الأمام وهي تبسط يديها، فارتطم ثقل الجسد المتهاوي بها بصوت مكتوم — فصلابة عظام المتميزين تضارع صلابة جوال مليء بمضارب البيسبول — وأسقطها أرضًا. همست قائلةً: «شاي» لكنها اكتشفت أن من ارتطم بها هو تاكس.

رفعت تالي بصرها فوجدت أن اللوح الطائر أصبح يعلوها بعشرة أمتار، أي لم يعد بإمكانها الوصول إليه، ورأت جسد شاي المتراخي يطوق جسد ديفيد المختفي تحت بذلة التخفي.

صرخت تالي باسم رفيقتها واللوح الطائر يواصل الارتفاع، ثم التقطت أذناها صوت وتر قوس، فانبطحت على الأرض مرة أخرى.

أخطأ السهم هدفه بمسافة كبيرة مما يدل على أن من صوبه كان يعدو. وانتشرت عشرات الهيئات البشرية التي تخفيها بذلات التخفي في المكان، وظهرت من حولها ألواح أخرى أخذت تستعد للانطلاق والضبابيون يرتفعون في الجو على متنها.

حركت تالي السوار المقاوم للصدمات، ولكن لم تصدر استجابة من اللوح بأن ينجذب إليها. لقد أخذوا ألواح المتميزين الأربعة. وتقطعت السبل بتالي على الأرض كأنها فتاة فطرية ذهبت لتتجول في الغابة، فضلت طريقها.

هزت رأسها غير مصدقةً ما يحدث. من أين حصل الضبابيون على بذل التخفي؟ منذ متى وهم يلقون الأشخاص بالسهام؟ كيف فشلت هذه المهمة السهلة هكذا؟

ربطت تالي شبكة التواصل المغروسة في جلدها بشبكة المدينة وأوشكت أن تتصل بدكتورة كابل، ثم ترددت للحظةً وقد تذكرت تعليمات شاي. ممنوع إجراءات مكالمات مهما حدث. ولا تستطيع أن تعصي الأمر.

أصبحت الألواح الأربعة تحلق في الجو الآن ومراوح الرفع فيها تتوهج بوميض حراري برتقالي. رأت تالي شاي وهي فاقدةُ الوعي بين ذراعي ديفيد وكذلك رأت الهيئة البشرية المتوهجة لشخص آخر من المتميزين محمولاً على لوح آخر.

أطلقت تالي السباب، وكان تاكس لا يزال راقدًا على الأرض، إذن فقد اختطفوا فاوستو أيضًا. لا بد حقًا أن تطلب التعزيزات، لكن هذا سيعد مخالفة للأوامر ... حينئذ وصلها أزيز عبر الشبكة، ثم سألها الصوت البعيد: «تالي؟ ما الذي يحدث هناك؟»

– «هوو! أين أنت؟»

– «أتتبع الأجهزة التي ترشد إلى موقعك، أنا على بعد دقيقتين.»

أطلق هوو ضحكةً ثم أضاف: «لن تصدقي ما الذي قاله لي ذلك الفتى الذي كان حاضرًا الحفل، ذلك الذي كان يرقص مع الضبابية التي كشفتِها.»

– «لا يهم، احضر إلى هنا بسرعة.» قلبت تالي بصرها في السماء وهي تتأمل ألواح الجارحين وهي تواصل ارتفاعها في السماء المظلمة في إحباط. سيرحل الضبابيون بلا عودة في غضون دقيقة واحدة. فات الأوان لحضور المتميزين العاديين إلى هنا، وفات الأوان لأي شيء ...

اجتاح تالي شعور يجمع بين الغضب والإحباط حتى كاد يستولي عليها. لن يهزمها ديفيد، ليس هذه المرة. لا يمكن أن تفقد رباطة جأشها، وهي تعرف الخطوة التي لا بد أن تتخذها.

قوست تالي يدها اليمنى وغرست أظافرها في لحم ذراعها اليسرى، حينئذ صرخت الأعصاب الحساسة الموجودة في جلدها، وأخذ سيل من الألم يتصاعد بداخلها حتى غمر عقلها وشله.

لكن عندئذٍ جاءت اللحظة المتميزة، وحل صفاء الذهن وحدته محل الذعر والتشوش، فاستنشقت الهواء البارد في شهقات ...

أجل لقد ترك ديفيد والفتاة اللوحين الطائرين اللذين أتيا بهما، ولا بد أنهما تركاهما في مكان قريب.

استدارت تالي وركضت نحو المدينة باحثة في الظلام عن رائحة ديفيد التي كادت تنمحي من ذهنها.

– قال هوو: «ما الذي حدث؟ لماذا أنت الوحيدة التي تتواصل معي عبر الشبكة؟»

– «لقد باغتونا بهجوم. التزم الصمت.»

بعد ثوان مرت بطيئة التقطت أنف تالي رائحة ما، هي رائحة ديفيد التي علقت في المواضع التي لمستها يدا ديفيد والتي تساقط فيها عرقه أثناء المطاردة. لم

يهتم الضبابيون باستعادة ألواحهم ذات الطراز العتيق، وهكذا لم تكن عاجزة عن التصرف تمامًا.

طقطقت تالي أصابعها فارتفع لوح ديفيد من مخبئه تحت كومة ورق شجر الصنوبر، ثم ارتفع في الجو. قفزت عليه فتأرجح مثل حافة لوح القفز في المسبح، إذ كان يفتقر إلى التوازن بسبب عدم تزويده بمراوح الرفع. لكن تالي سبق لها ركوب لوح مثله تمامًا منذ أشهر طويلة، وتلك الخبرة تكفي هذه المرحلة.

– «هوو! أنا آتية إليك!» انطلق اللوح بمحاذاة حافة المدينة وزادت سرعته حين تفاعلت الروافع مع الشبكة المغناطيسية.

طارت تالي بين الأشجار مقلبة نظرها في الأفق. كانت أجساد الضبابيين تومض على المدى وكان جسدا أسيريهما يتوهجان مثل توهج الجمر في النار.

رفعت تالي بصرها إلى النجوم وحسبت الزوايا والاتجاهات ...

كان الضبابيون يتوجهون نحو النهر حيث يستطيعون الاستفادة من المراوح المغناطيسية، فهم يحتاجون إلى كل ما يمكن الحصول عليه من قوة رفع إذ إن كل لوح يحمل شخصين. «هوو، توجه إلى حد التريلز الجنوبي بسرعة».

– «لماذا؟»

– «وفرا الوقت!» عليها أن تراقب طريدتها بينما يكون الضبابيون غير مرئيين لكن الأسيرين يتوهجان كإشارات المرور التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء.

أجابها هوو قائلًا: «حسنًا أنا آت، لكني أسألك مرةً أخرى، ما الذي يحدث؟»

لم تجبه تالي وإنما انطلقت بسرعة بين قمم الأشجار وكأنها تشارك في سباق تزلج مقام في مجاز متعرج. لن يروق لهوو ما ستضطر تالي إلى فعله، لكن ليس أمامها خيار آخر. فقد وقعت شاي في أسر ديفيد. هذه فرصة تالي لتعوضها عن كل تلك الأخطاء القديمة التي ارتكبتها في حقها.

ولتثبت أنها حقًا من المتميزين.

كان هوو هناك ينتظر في المكان الذي بدأت تقل فيه كثافة الأشجار في التريلز.

قال وهي تندفع نحوه: «يا تالي، لم تركبين قطعة الخردة هذه؟»

دارت تالي باللوح حتى توقفت بجواره وقالت: «هذه حكاية طويلة».

– «هل يمكن أن تخبريني – إن تفضلت – ما الذي ...» أطلق صيحة تنم عن المفاجأة وتالي تدفعه من فوق لوحه حتى سقط في الظلام تحته.

قالت وهي تنزل من على لوح الضبابيين وتركب لوحه منعطفةً به نحو النهر: «آسفة يا هوو»، بدأت مراوح الرفع تعمل وهي تعبر حافة المدينة. وأضافت قائلة: «أحتاج إلى استعارة عربتك وليس لدي وقت للشرح».

تناهت إلى سمعها صيحة مكتومة عندما ساعد سوارا لوح هوو على تخفيف سقوطه، قال: «تالي، ما ...».

– «لقد أسروا شاي، وفاوستو أيضًا، وتاكس فاقد الوعي في الموقع الذي جئتُ منه من ممشى التريلز، اذهب لتطمئن عليه».

– «ماذا؟» أخذ صوت هوو يخبو وتالي تندفع في البرية تاركة الجهاز الذي يزيد نطاق شبكة التواصل المحلية بالمدينة خلفها. قلبت تالي عينيها في الأفق فرأت بجهاز الرؤية بالأشعة تحت الحمراء ومضات بدت مثل عينين متوهجتين، لعلهما شاي وفاوستو.

المطاردة لا تزال مستمرة.

قالت تالي من بين أسنانها: «لقد باغتونا. ألا تنصتي لما أقوله. وقد أمرتنا شاي بألا نتصل بدكتورة كابل. لا نريد أي عون في هذا الموقف». كانت تالي على يقين من أن شاي ستنزعج حين تكتشف السلطات الخاصة أن الجارحين، وهم صفوة التمردين لدى دكتورة كابل، قد تعرضوا للخديعة.

وفي تلك الحالة فإن سربًا من العربات الطائرة المزعجة سيتسبب في اكتشاف الضبابيين لوجود من يتبعهم، لكن ربما تستطيع تالي وهي بمفردها أن تباغتهم.

مالت تالي إلى الأمام لتحث اللوح الذي استعارته على المضي بأقصى سرعة ممكنة، وصوت الاعتراضات التي يطلقها هوو يخبو خلفها.

ستلحق بهم؛ إذ كان على متن الألواح الأربعة خمس من الضبابيين وأسيران؛ وبهذا لن يستطيعوا بأية حال الانطلاق بأقصى سرعة. كل ما تحتاجه تالي هو أن تتذكر أنهم فطريون وأنها من المتميزين.

لا تزال أمامها فرصة إنقاذ شاي، وأسر ديفيد، وإتمام المهمة على الوجه الأكمل.

الفصل الرابع

الإنقاذ

أخذت تالي تطير بسرعة على ارتفاع منخفض حتى كادت تلامس صفحة مياه النهر، وأخذت تمعن النظر في الأشجار التي تصطف على ضفتي النهر متدثرةً بالظلام.

أين هم؟

لا يمكن أن يكون الضبابيون قد سبقوها بمسافة كبيرة، لا سيما وقد انطلقوا قبلها ببضع دقائق فقط، ولكنهم يطيرون مثلها على ارتفاع منخفض؛ ليستفيدوا من رواسب المعادن الراقدة في قاع النهر المتعرج، طلبًا لقوة دافعة إضافية، متسترين بالأشجار، وحتى الوهج شديد الحرارة المنبعث من جسدي شاي وفاوست بفضل الأشعة تحت الحمراء لم يتمكن من اختراق الظلام الدامس الذي خيم على الغابة، وتلك هي المشكلة.

ومن المحتمل أن يكونوا قد اتخذوا طريقًا جانبيًا بعيدًا عن النهر وتسللوا إلى ما بين الأشجار حتى يشاهدوها وهي تطير من أمامهم. فالضبابيون يستطيعون الانطلاق في أية وجهة يشاءون بفضل الألواح المسروقة التي يركبونها.

تحتاج تالي إلى البقاء في الجو بضع ثوان، حتى تلقي نظرة واسعة على الأفق، لكن الضبابيين مزودون هم أيضًا بالأشعة تحت الحمراء. وحتى تتمكن من إلقاء نظرة دون أن تكشف أمرها عليها خفض حرارة جسدها كثيرًا.

نظرت تالي إلى المياه المظلمة المندفعة أسفل منها وارتجفت.

لن يكون الأمر مسليًا.

دارت تالي بلوحها الطائر حتى توقفت، فتطاير رذاذ شديد البرودة من ذيل لوحها ولامس الرذاذ ذراعيها ووجهها حتى سرت القشعريرة في عظامها مرةً أخرى. كان النهر يجري بسرعة، وقد فاض بالثلج الذائب المنحدر من الجبال، وذكرتها برودته بدلو الشمبانيا حين كانت مشوشة العقل.

قالت تالي عابسةً: «رائع»، ثم نزلت من على لوحها.

ولأنها نزلت المياه بعد أن جعلت مشطا قدميها مستدقين لم يتطاير رذاذ المياه في الهواء بصوت مسموع، ولكن شدة برودة المياه جعلت قلبها يخفق بشدة. بعد ثوان بدأت أسنانها تصطك، وعضلاتها تنقبض بشدة وشعرت بألم في عظامها. سحبت لوح هوو إلى المياه، فتصاعد البخار من مراوح الرفع في خيوط ملتوية وهي تبرد.

بدأت تالي تعد حتى عشرة وهي تتألم والوقت يمر ببطء، وهي تتمنى أن يحل الويل والثبور على ديفيد والضبابيين وعلى مخترع فكرة تبريد المياه. تسربت البرودة إلى داخل جسدها حتى صرخت أعصابها ألمًا، وأخذت تتسرب إلى عظامها.

وعندئذٍ انتابتها اللحظة الخاصة. شعرت بالإحساس نفسه الذي ساورها حين جرحت نفسها، إذ أخذ الألم يتراكم حتى إنها لم تعد تحتمله ... وفجأة انقلب الأمر تمامًا. ظهر الصفاء العجيب مرةً أخرى من وسط الألم، وكأن كل شيء من حولها قد أصبح واضحًا كل الوضوح.

اكتشفت أن هذه الحالة أفضل من حالة التيقظ، مثلما وعدتها دكتورة كابل منذ عهد بعيد، إذ أحست أن جميع حواسها متقدةً، في حين ظل عقلها منفصلًا عن حواسها، يراقب ما يعتريها من أحاسيس دون أن يصيبه الارتباك.

أحست أنها ليست من الفطريين، وأنها أفضل من الأشخاص العاديين ... بل تكاد تتفوق على البشر، وأنها قد أعدت من أجل إنقاذ العالم.

توقفت تالي عن العد وأطلقت زفيرًا بطيئًا بهدوء، فبدأت القشعريرة تختفي شيئًا فشيئًا، وفقدت المياه المتجمدة تأثيرها.

صعدت تالي ثانيةً إلى لوح هوو، وأمسكت طرفيه بإحكام حتى شحبت مفاصل أصابعها. استغرق الأمر منها ثلاث محاولات حتى تمكنت من طقطقة أصابعها التي أصابها الخدر بصوت عالٍ بما يكفي لتشغيل اللوح، وبعد هذا بدأ اللوح الطائر يرتفع في السماء المظلمة، ووصل إلى أقصى ارتفاع مكنته الروافع المغناطيسية الباردة الصامتة من الوصول إليه. وبينما كانت تالي تحلق فوق الأشجار، هبت الرياح باردة كالجليد، لكنها تجاهلتها، وأخذت تتأمل العالم أسفل منها بصفائه الشديد.

ها هم أمامها على بعد كيلومتر واحد فقط، دلها عليهم وميضٌ يصدر من الألواح الطائرة وينعكس على صفحة المياه السوداء، وهيئة بشرية تتوهج في ظل الأشعة تحت الحمراء. كان الضبابيون يتقدمون ببطء فيما يبدو، بل يكادون لا يتحركون، ربما يأخذون قسطًا من الراحة غير مدركين وجود من يتتبعهم. ولكن خيل إلى تالي أن لحظة التركيز والصفاء التي تنتابها هي التي تسببت في إيقافهم في أماكنهم.

انخفضت تالي باللوح حتى تبتعد عن الأنظار قبل أن تتغلب حرارة جسدها على برودة الملابس المبتلة، والتصق بها زي عنبر النوم وكأنه بطانية مبتلة من الصوف، فخلعت سترتها وتركتها تسقط في النهر.

عاد اللوح الذي تركبه إلى العمل وهو يصدر هديرًا مندفعًا إلى الأمام والمراوح تعمل بكل طاقتها وأثارت خلفها موجةً هوائية طولها متر.

ربما تكون تالي مبتلة تمامًا وتشعر بأنها قد تجمدت، وربما تكون بمفردها في مواجهة خمسة لكن الانغماس في المياه جعل ذهنها صافيًا. شعرت بحواسها الفائقة تحلل الغابة حولها، وغرائزها تعمل بسرعة هائلة، وعقلها يسترشد بالنجوم لحساب الوقت الذي ستستغرقه حتى تلحق بهم.

اكتشفت تالي أن يديها أصيبتا بالخدر وهي تثنيهما، بيد أنها كانت تعلم أنهما هما السلاح الوحيد الذي تحتاجه، مهما تكن الحيل التافهة الأخرى التي جلبها الضبابيون معهم.

إنها على استعداد لخوض هذه المعركة.

بعد ستين ثانية رأته: لوح طائر وحيد ينتظرها مباشرة بعد منعطف في النهر. كان راكب اللوح يقف هادئًا، ولا يظهر منه سوى صورة ظلية سوداء لشخص يحمل جسدًا متوهجًا وهو جسد أحد الضبابيين.

أخذت تالي تدور باللوح حتى توقفت، ودارت به في دائرة محكمة حتى تتمكن من إلقاء نظرة فاحصة على الأشجار. بدت الغابة بلون أرجواني قاتم، وهي تعج بأشياء تذروها الرياح، فلمحتها تالي لمحة خاطفة لكنها لم تجد بينها أية هيئة بشرية.

نظرت إلى الصورة الظلية السوداء التي تسد الطريق إلى النهر. كانت بذلة التخفي تحجب الوجه لكن تالي تتذكر طريقة وقوف ديفيد على الألواح الطائرة؛ فهو معتاد على الوقوف وقد أرجع إحدى قدميه إلى الخلف بزاوية قدرها خمس وأربعون درجة، وكأنه راقص ينتظر بدء الموسيقى، ثم إنها كانت تحس بأن من تراه أمامها هو ديفيد.

ولا بد أن الجسد المتوهج المتدلي الذي يحمله بين ذراعيه هو جسد شاي التي لا تزال غائبة عن الوعي.

سألته: «هل رأيتني وأنا أتبعك؟»

هز رأسه نفيًا وقال: «لا ولكنني كنت أعلم أنك سوف تتبعينني».

– «ما هذا؟ كمين آخر؟»

– «يجب أن نتكلم»

– «حتى يتمكن أصدقاؤك من الابتعاد لمسافة أكبر؟» انقبضت عضلات يديها لكنها لم تنطلق وتهاجمه. أحست بشعور غريب وهي تسمع صوت ديفيد مرة أخرى. لقد وصل صوته بوضوح لأذنيها رغم صوت المياه المتدافعة، ولكنه كان مشوبًا بشيء من التوتر.

أدركت أنه خائف منها.

لا شك في هذا، ومع هذا شعرت بأن الموقف غريب ...

سألها: «أتتذكرينني؟»

قطبت تالي جبينها قائلةً: «ماذا تظن يا ديفيد؟ كنت أتذكرك حتى وأنا من مشوشي الذهن، فلطالما تركت انطباعات قوية في الأذهان».

قال: «رائع»، وكأنها قصدت أن تمتدحه بما قالته. قال: «إذن تتذكرين آخر مرة رأيتني فيها، كنتِ قد اكتشفت أن المدينة عبثت بعقلك، وأجبرت نفسك على التفكير بوضوح مرة أخرى، وعلى أن تكفي عن التفكير كالحسان، وهربت. أتذكرين؟»

قالت: «أتذكر صورة صاحبي راقدًا على كومة من الأغطية ووظائف مخه شبه مشوشة، وذلك بفضل الأقراص التي اخترعتها والدتك».

عندما ذكرت زيفًا، سرت رعشة في هيئة ديفيد. قال: «حدث ذلك عن طريق الخطأ».

– «خطأ؟ تريد أن تقول إنك أرسلت لي هذه الأقراص بدون قصد؟»

تململ وهو يقف على لوحه وقال: «كلا، لكننا حذرناك من المخاطر، ألا تذكرين؟»

ردت قائلة: «أتذكر كل شيء الآن يا ديفيد! اتضحت لي الأمور أخيرًا». أصبح ذهنها صافيًا، صافيًا صفاءً فائقًا كأذهان المتميزين، لا تعكره المشاعر الجامحة للقبحاء أو التشوش الذهني، وصار يدرك إدراكًا تامًّا حقيقة الضبابيين، هم ليسوا ثوارًا، فما هم إلا مجموعة من الأنانيين، يعبثون بحياة الآخرين، ويتركون وراءهم أينما حلوا نفوسًا محطمة ...

توسل إليها برقة قائلًا: «تالي» لكن لم يكن منها إلا أن ضحكت. كانت الوشوم الدوارة المنقوشة على وجه تالي تدور بسرعة، بفعل برودة المياه وغضبها. وصار عقلها يتمتع بالتركيز إلى أقصى حد، حتى إن صورة ديفيد صارت تزداد وضوحًا مع كل دقة من دقات قلبها.

– «أنت تخطف الأطفال يا ديفيد، أطفال المدينة الذين لا يعلمون مدى خطورة الحياة في البرية، وتستغلهم.»

هز رأسه نفيًا قائلًا: «لم أقصد قط ... أن أستغلك يا تالي. أنا آسف».

همت بأن تجيبه لكنها رأت إشارة التحذير في الوقت المناسب تمامًا. ومع أن الإشارة كانت فقط حركة بإصبعه، كان ذهنها مرهفًا جدًا حتى إن الحركة الخفيفة بدت واضحةً وكأنها ألعاب نارية انطلقت في الظلام.

انطلقت حواس تالي في جميع الاتجاهات لتفتش في السواد من حولها. اختار الضبابيون بقعة بها صخور شبه مغمورة في المياه، مما أدى إلى علو هدير المياه، فعلا على أي أصوات مهما كانت خافتة، بيد أن تالي شعرت بلحظة الهجوم.

بعد لحظات لمحت بطرف عينها سهمين منطلقَين نحوها، كانا قادمين من اليمين واليسار، وكأنهما إصبعان يسحقان حشرة. تمكن ذهنها من إبطاء سير الزمن إلى أقصى حد. وقبل إصابتها بأقل من ثانية، كان السهمان قريبين قربًا بحيث يمكن للجاذبية أن تحول دون وقوعهما مهما حاولت أن تثني ركبتيها بسرعة، لكن تالي لم تكن في حاجة إلى الجاذبية ...

رفعت يديها من جانبيها وثنت مرفقيها، ثم قبضت بأصابعها على السهمين، [illegible] بصعقة ستاتيكية بين كفيها، وشعرت بلسعة من أثر الاحتكاك وكأنها أطفأت شمعة بيدها، لكن قوة الدفع التي كانا ينطلقان بها خمدت حين أمسكت بهما.

أخذ الأزيز الكهربي عند طرفيهما يفرقع لحظات في غضب، وكان السهمان قريبين من تالي حتى إنها شعرت بحرارة في وجنتيها، ثم أخذ السهمان يصدران أزيزًا خافتًا في إحباط.

كانت لا تزال تحدق في ديفيد، ورأته يفغر فاهه رغم أنه يرتدي بذلة التخفي، وميزت بين هدير المياه صيحة دهشة خفيضة.

أطلقت تالي ضحكة مدوية.

قال بصوت متهدج: «ما الذي فعلوه بك يا تالي».

أجابت: «لقد ساعدوني على الرؤية بوضوح».

هز رأسه في حزن ثم دفع بشاي إلى النهر.

سقطت إلى الأمام كالحجر، وارتطمت بالمياه بوجهها بعنف. واستدار ديفيد بوجه متسببًا في انبعاث رذاذ من مياه النهر وهو ينطلق مبتعدًا، واندفع من أطلقا السهام من بين الأشجار وتبعاه وقد بدأ لوحاهما في الانطلاق.

صاحت تالي: «شاي»، لكن الجسد الساكن كان قد بدأ يغوص في المياه بفعل ثقل السوارين المقاومين للصدمات والملابس المبتلة. بدأت الألوان التي تظهر بها شاي عبر جهاز الرؤية بالأشعة تحت الحمراء تتغير في المياه الباردة، وتحول لون يديها من الأصفر الزاه إلى البرتقالي. وحملها تيار المياه السريع إلى أسفل تالي التي ألقت بالسهمين المستنزفين جانبًا، ودارت على أحد عقبيها ثم غاصت في المياه شديدة البرودة.

أخذت تضرب المياه بضع ضربات في ذعر حتى وصلت إلى جوار الجسد الذي يتوهج بوهج باهت، ومدت يديها لتمسك بشعر شاي وجذبت رأسها إلى سطح المياه. لاحظت حينئذ أن الوشوم الدوارة المرسومة على وجه شاي الشاحب كادت تكف عن الدوران، لكنها في تلك اللحظة ارتجفت وسعلت فجأة فأفرغت المياه التي كانت تملأ رئتيها.

قالت تالي: «شاي-لا!»، واستدارت في المياه حتى تتمكن من الإمساك بها على نحو أفضل.

حركت شاي ذراعيها حركةً ضعيفةً ثم سعلت فبصقت المزيد من المياه، ولكن وشومها المتحركة بدأت تدور مرة أخرى، وبدأت سرعة دورانها تزيد كلما اشتدت دقات قلبها، وعندما بدأ تدفق الدم يعيد الدفء إلى وجهها بدا وجهها يتوهج أكثر في جهاز الرؤية بالأشعة تحت الحمراء.

أمسكت تالي بشاي بطريقة مختلفة وهي تحاول جاهدة أن تبقي رأسيهما فوق المياه مرسلةً إشارة بسوار مقاومة الصدمات الذي ترتديه. استجاب لها اللوح المقترض من الضبابيين بجذبة مغناطيسية مفادها أنه في الطريق إليها.

فتحت شاي عينيها، وأخذت تطرف بعينيها عدة مرات ثم قالت: «أهذه أنت يا عزيزتي تالي؟»

– «نعم أنا.»

سعلت شاي مرة أخرى وقالت: «كفي عن جذبي من شعري».

قالت تالي: «آه، أنا آسفة»، وحررت خصلات الشعر المبتلة من بين أصابعها. وكزها اللوح الطائر من الخلف، فوضعت إحدى ذراعيها عليه ولفت الذراع الأخرى حول شاي. وسرت قشعريرة قوية فيهما.

قالت شاي: «المياه باردة ...» وبدت شفتاها زرقاوين تقريبًا في الأشعة تحت الحمراء.

– «بالطبع، لكن على الأقل جعلتُك تفيقين»، ونجحت تالي في رفع شاي على اللوح وجلوسها عليه في وضع مستقيم، فجلست منكمشة في مهب النسمات على نحو يثير الشفقة، في حين ظلت تالي في النهر تحدق في عينيها الخاويتين. قالت: «شاي-لا؟ أتدركين أين أنت؟»

ردت شاي: «أنت أيقظتني، إذ كنت ... نائمة؟»، ثم هزت رأسها مغمضةً عينيها في محاولة للتركيز وقالت: «تبًا، هذا يعني أنهم أمسكوا بي بسهم من تلك السهام السخيفة».

– «ليس سهمًا، بل كان ديفيد ممسكًا بعصا كهربائية».

بصقت شاي في النهر وقالت: «لقد خدعني، فقد دفع تاكس نحوي». قطبت شاي جبينها وفتحت عينيها مرة أخرى ثم سألت: «هل تاكس بخير؟»

– «نعم فقد أمسكت به قبل أن يصطدم بالأرض. بعد هذا حاول ديفيد أن يأسرك لكنني تمكنت من استعادتك».

ابتسمت شاي ابتسامة واهنة ثم قالت: «أحسنت صنعًا يا تالي-وا».

شعرت تالي بابتسامة باهتة مرتعشة ترتسم على وجهها.

– «وفاوستو؟»

تنهدت تالي مرة أخرى وهي تصعد على اللوح، فبدأت مراوحه تدور بفعل ثقلها

وقالت: «أسروه هو أيضًا»، وتطلعت تالي إلى النهر فلم تر إلا الظلام، وأردفت قائلة: «وأظن أنهم الآن قد ابتعدوا كثيرًا».

لفت شاي ذراعها المبتلة المرتجفة حول تالي وقالت: «لا تقلقي سنستعيده»، ثم أطرقت رأسها في ارتباك قائلةً: «إذن كيف سقطتُ في النهر؟»

– «لقد طاروا بك إلى هنا واستخدموك طعمًا. كانوا يريدون أن يأسروني أنا أيضًا، لكنني كنت أسرع من أن يوقعوا بي، لذا ألقى بك ديفيد حتى يشتت انتباهي، هذا ما أفترضه. أو ربما كان يحاول أن يفسح المجال للضبابيين الآخرين للفرار، أقصد الضبابيين الذين أسروا فاوستو».

قالت شاي: «يا إلهي، ذلك يجعلني أشعر بشيء من الإهانة».

– «لماذا؟»

– «استخدموني أنا كطعم بدلًا من فاوستو؟»

ابتسمت تالي وشددت من قبضتها على شاي قائلةً: «ربما كانوا واثقين أكثر في أنني سأتوقف لأجلك».

ضمت شاي قبضتيها ورفعتها إلى فمها وسعلت، ثم قالت: «عندما أمسك بهم سأجعلهم يتمنون لو أنهم رموني من على منحدر بدلًا من ذلك». أخذت شاي نفسًا عميقًا، وقد أصبحت رئتاها تعملان على ما يرام أخيرًا. قالت: «لكن هذا غريب، فليس من طبع الضبابيين أن يلقوا بأحد في مياه شبه متجمدة وهو غائب عن الوعي. أتفهمين ما أقصد؟»

أومأت تالي برأسها وقالت: «ربما بدأ يفيض بهم الكيل».

ارتجفت شاي مرة أخرى وقالت: «ربما، يبدو أن العيش في أحضان الطبيعة يجعلهم يصبحون كسكان الأطلال القديمة، فالأقواس والسهام أدوات للقتل وإن كانت بدائية. كانوا يروقون لي أكثر وهم على حالهم القديم، إلى حد ما».

تنهدت تالي قائلةً: «وأنا أيضًا». شعرت أن حدة غضبها بدأت تخبو، حتى أصبح مزاجها معتلًا. فمهما بذلت من جهد لإصلاح الأمور فقد اختفى فاوستو، وديفيد أيضًا.

– «على أية حال، شكرًا على إنقاذي يا تالي-وا».

أمسكت تالي بيد صديقتها وقالت: «لا عليك أيتها القائدة. إذن... هل يصب هذا الآن في تصفية حساباتنا؟»

ضحكت شاي، ولفت ذراعها حول تالي، وابتسامتها تتسع حتى بدت نواجذها الحادة. وقالت: «أنا وأنتِ لسنا بحاجة للالتفات لأمر كهذا يا تالي-وا».

شعرت تالي بالدفء يغمرهما، وهو الشعور الذي كان دائمًا ينتابها عندما تبتسم شاي، وقالت: «أحقًا؟»

أومأت شاي قائلةً: «إن المهام التي نؤديها بصفتنا من المتميزين تشغلنا عما سوى ذلك».

تابلنا هوو في مكان الكمين، ووجدنا أنه قد تمكن من إفاقة تاكس، وأرسل نداءً إلى باقي الجارحين. وكان قد تبقى لهم عشرون دقيقة حتى يصلوا إليهم حاملين ألواحًا إضافية مطالبين بالانتقام.

قالت شاي: «لا تشغلي نفسك بتصفية الحسابات، فنحن سنزور الضبابيين عما قريب». قالت هذا دون أن تعبأ بذكر عيب تلك الخطة، ألا وهو أن أحدًا لا يعرف أين يوجد موقع الضباب الجديد، بل في الواقع لا يوجد من يستطيع أن يجزم بوجوده من الأساس. فمنذ تدمير الموقع الأصلي ظل الضبابيون يتنقلون من مكان إلى آخر،

ولما كانوا الآن يملكون أربعة ألواح طائرة من أحدث طراز صُنعت على يد السلطات الخاصة، فستكون مهمة تحديد مكانهم أشد صعوبةً.

وبينما كانت شاي وتالي تعصران ملابسهما المبتلة، كان هوو وتاكس يتجولان في غياهب التريلز باحثين عن أية علامات تقودهما لبغيتهما، ولم يمضِ وقت طويل حتى وجدا اللوح الطائر الذي تركته الفتاة الضبابية.

أصدرت شاي أوامرها لتاكس قائلةً: «تفقد عداد شحن الطاقة لذلك الشيء، على الأقل نستطيع أن نعرف المسافة التي قطعاها حتى يصلا إلى هنا».

قالت تالي: «فكرة جيدة أيتها القائدة، ولا تنسي أنه لا يمكن إعادة شحن اللوح بالطاقة الشمسية ليلًا».

قالت شاي: «صحيح، يا لعبقريتي! لكن معرفة المسافة لن تكشف لنا الكثير، نحتاج إلى المزيد من المعلومات».

قال هوو: «لدينا المزيد من المعلومات أيتها القائدة، فحسبما كنت أحاول أن أخبر تالي قبل أن تدفعني من على اللوح مباشرةً، أجريت حوارًا مع الفتى القبيح الذي كان في الحقل، ذلك الذي كانت الفتاة الضبابية تحاول أن تعطيه أقراص جزيئات النانو، فقد تمكنت من إخافته قليلًا قبل أن أسلمه للحراس».

لم يساور تالي شك في ذلك، فالوشم المتحرك المرسوم على وجه هوو كان على هيئة وجه شيطان، وتتغير خطوطه الحمراء القانية من خلال سلسلة من التعبيرات المخيفة المتزامنة مع نبضه.

أطلقت شاي ضحكة ازدراء قصيرة وقالت: «ذاك التافه الحقير كان يعلم موقع الضباب الجديد؟».

– «إطلاقًا، لكنه يعرف المكان الذي كان يُفترَض توصيل أقراص جزيئات النانو إليه».

قالت شاي: «دعني أخمن يا هوو — ليس إلى مدينة نيو برتي تاون؟».

رفع هوو الكيس البلاستيكي وقال: «نعم، بالطبع، لكن هذه الأقراص لم تكن موجهة إلى أية جهة أيتها القائدة، فقد كان من المفترض أن يوصلها إلى الأشقياء».

نظرت تالي وشاي إحداهما للأخرى، فمعظم الجارحين كانوا من الأشقياء حينما كانوا من الحسان، وكان غرض هذه الجماعة هو إثارة المتاعب: التصرف كالقبحاء، والتغلب على تشوش الذهن ومنع تفاهات مدينة نيو برتي تاون من القضاء على عقولهم.

هزت شاي كتفيها قائلة: «الأشقياء جماعة كبيرة هذه الأيام، فعددهم يصل إلى المئات» ثم ابتسمت وأضافت: «وذاك منذ أن تسببت أنا وتالي في شهرتهم».

أومأ هوو برأسه وقال: «وكنت واحدًا منهم أيضًا، أتتذكران؟ لكن ذلك الفتى القبيح ذكر اسمًا، اسم شخص كان من المفترض أن يوصلها إليه خصيصًا».

قالت تالي: «أهو شخص نعرفه؟»

- «نعم ... زين. قال إن أقراص النانو مرسلة إلى زين».

الفصل الخامس

العهد

– «لماذا لم تخبريني بأن زينًا عاد؟»

– «لأنني لم أكن أعرف. لم يمر على هذا سوى أسبوعين».

أطلقت تالي تنهيدة طويلة من بين أسنانها.

سألت شاي: «ما الأمر؟ ألا تصدقينني؟»

أشاحت تالي بوجهها وأخذت تتطلع إلى النار وهي لا تدري بم تجيب. فعدم الثقة بالجارحين الآخرين كانت تعكر صفاء الذهن والنفس، إذ تؤدي بالمرء إلى الشكوك والأفكار المشوشة. لكن لأول مرة منذ أن صارت من الجارحين ساورها الشعور بالغربة وعدم الانسجام مع هيئتها الجديدة. أخذت تمرر أصابعها في حركة متوترة على الندوب الممتدة بطول ذراعيها التي نجمت عن جرحها لنفسها، بينما كانت الأصوات الصادرة من الغابة من حولها تثير رعبها.

زين خرج من المستشفى، لكنه ليس معها في معسكر الجارحين، بل ظل في البرية حيث يجب أن يكون، وهذا يجعلها تشعر بأن الأمور لا تسير على ما يرام ...

وفي كل مكان من حولهما كان الجارحون الآخرون يحافظون على صفائهم الذهني عن طريق السير على الطريقة التي أرستها شاي؛ لرفع الروح المعنوية بعد الكمين الذي وقعوا فيه في الليلة الماضية، وهكذا أضرموا الليلة نارًا في الهواء الطلق من جذوع الأشجار الجافة، وتجمعوا حولها جميعًا وعددهم ستة عشر – فيما عدا تارستو – وأخذوا يتحدون بعضهم بعضًا بالسير بين اللهب حفاة، وهم يتفاخرون بما سيفعلونه بالضبابيين عندما يأسرونهم.

ومع هذا لم تشعر تالي بأنها جزء مما يحدث.

عادةً كان يروق لها التجمع حول النيران المضرمة في الهواء الطلق، وتحب ظلالها وهي تتراقص وكأنها كائنات حية، وتحب الشر الكامن في إحراق الأشجار. وهذا هو كنه أن يكون المرء من المتميزين؛ فالمتميزون يتولون ضمان التزام الجميع بقواعد السلوك القويم، لكن ذلك لا يستدعي بالضرورة أن يطبقوا ذلك على أنفسهم.

لكن في هذه الليلة ظلت رائحة النار المضرمة في الهواء الطلق تثير ذكريات الأيام التي قضتها تالي مع الضبابيين. وكان عدد قليل من الجارحين قد ترك مؤخرًا عادة جرح النفس وتحولوا إلى الوسم، إذ يحدثون علامات في أذرعهم باستخدام أطراف الجمر المتقدة، ويسهم ذلك في المحافظة على صفاء أذهانهم مثل إحداث الجروح. أما تالي، فذكرتها الرائحة برائحة طهي الحيوانات الميتة في الضباب، لذا فقد ظلت متمسكة بالسكاكين.

ركلت تالي عودًا خشبيًا نحو اللهب ثم قالت: «بالطبع أثق بك يا شاي، لكن طوال الشهرين الماضيين كنت أظن أن زينًا سينضم إلى السلطات الخاصة ما إن يتحسن. وفكرة وجوده في مدينة نيو برتي-تاون وهو يحمل وجهًا لا يختلف عن وجوه الآخرين...» وهزت رأسها.

– «إن استطعت أن آتي به إلى هنا يا تالي-وا فسأفعل.»

– «إذن هل ستتحدثين إلى دكتورة كابل في هذا الأمر؟»

بسطت شاي كفيها وقالت: «تالي، أنت تعرفين القواعد: حتى ينضم المرء إلى السلطات الخاصة عليه أن يثبت أنه من المتميزين، عليه أن يخلص نفسه من تشوش الذهن.»

– «لكن زينًا كان يحمل صفات المتميزين تقريبًا عندما تزعم الأشقياء، ألا تعي كابل هذا؟»

– «لكن لم يطرأ عليه تغير حقيقي إلا بعد أن تناول أقراص مادي.» اقتربت شاي من تالي وأحاطت كتفها بذراعها وضوء النار يومض ويخبو في عينيها ببريق أحمر، وأضافت: «أنا وأنت وجدنا سبيلنا للخروج وخلصنا أنفسنا دون أية مساعدة.»

قالت تالي مبتعدةً: «أنا وزين بدأنا نتغير منذ أول قبلة تبادلناها، ولو لم يتعرض عقله للعبث به، لأصبح واحدًا منا الآن.»

هزت شاي كتفها وقالت: «إذن ما الذي يقلقك؟ لقد فعل هذا مرة، ويستطيع أن يفعله مرة أخرى.»

استدارت تالي وأخذت تتطلع إلى شاي بنظرات غاضبة، دون أن تستطيع التفوه بما كان يدور في ذهن كلٍّ منهما: هل زين لا يزال ذلك الفتى الرائع الذي أنشأ جماعة الأشقياء؟ أم أن التلف الذي أصاب مخه غير كل ذلك حاكمًا عليه بأن يظل مشوش العقل لما تبقى من حياته؟

الأمر كله ينطوي على ظلم بيِّن.

عندما أحضر الضبابيون أقراص جزيئات النانو إلى مدينة نيو برتي تاون لأول مرة، تركوا لتالي قرصين إضافة إلى رسالة كتبتها بنفسها تنطوي على تحذير من الأخطار، وكتبت فيها — مع هذا — أنها أعطت «موافقة عن علم» على تناول الأقراص. كانت خائفة للغاية من تناولها في البداية، أما زين فظل دائمًا متيقظًا، وظل يحاول التخلص من التشوش العقلي الذي يصيب الحسان، وعرض أن يتناول الأقراص دون أن يجربها أحد من قبله.

كان من المفترض أن تقوم أقراص النانو بتحرير الحسان وتحولهم من مشوشي العقل إلى شيء آخر، لم يأبه أحد بمحاولة اكتشافه. فأي نفع يرجى من زمرة من الضالين الذين يتمتعون بجمال فائق ولا يكبحون جماح شهواتهم؟ هل نتركهم حتى يعيثوا في الأرض فسادًا مثلما عاث فيها سكان الأطلال القديمة فسادًا منذ نحو ثلاثة قرون.

على أية حال، لم يأت الدواء بالمفعول المرجو؛ إذ اقتسمت تالي وزين القرصين وتناول زين القرص المشئوم، فقضت جزيئات النانو الموجودة فيه على الأنسجة التالفة التي جعلته مشوش العقل، لكنها لم تتوقف عند هذا، بل مضت تأتي على عقله جزءًا تلو الآخر ...

ارتجفت تالي حين خطر لها كم كانت محظوظة؛ فالهدف الوحيد من القرص الذي تناولته هو أن يوقف عمل جزيئات النانو الموجودة في القرص الآخر، وعندما تناولته وحده، لم يترك عليها أي أثر ... كل ما في الأمر أنها ظنت أنها تناولت الدواء، ومع ذلك فقد نجحت في التخلص من حالة تشوش الذهن بنفسها، بلا أقراص النانو، وبلا عملية جراحية، بل دون أن تجرح نفسها مثلما فعلت جماعة شاي.

ولهذا ضموها إلى السلطات الخاصة.

قالت تالي بخفوت: «لكن كان من الممكن أن يتناول أي واحد منا ذلك القرص المشئوم. هذا ليس عدلًا».

– «طبعًا ليس عدلًا، لكن هذا لا يعني أن الذنب ذنبك يا تالي.» أخذ أحد الجارحين يركض على الفحم أمامهما ضاحكًا وهو حافي القدمين، فتسبب في تناثر الشرر من حولهما. وأضافت شاي قائلة: «لقد كنتِ أنتِ المحظوظة، وهذا ما يحدث عندما تكونين مميزة، فما الداعي للشعور بالذنب؟»

قصمت تالي عودًا إلى نصفين وقالت: «لم أقل قط إنني أشعر بالذنب، كل ما في الأمر هو أنني لا أريد أن أقف مكتوفة اليدين، لذا سآتي معكم الليلة، أتوافقين؟»

– «لست واثقة من أنك مستعدة لهذا يا عزيزتي.»

– «أنا على ما يرام، ما دمت لن أضطر إلى لصق أي قناع بلاستيكي على وجهي.»

أطلقت شاي ضحكة ومدت يدها حتى تتحسس بظفر خنصرها خطوطَ الوشوم المتحركة المرسومة على بشرة تالي وهي تتحرك بسرعة، وقالت: «ما يقلقني ليس وجهك بل عقلك، فقد يؤدي ارتباطك بصاحبين والانفصال عنهما على التوالي إلى إفساده».

أشاحت تالي بوجهها وقالت: «زين ليس صاحبًا سابقًا، قد يكون مشوش العقل الآن، لكنه سيخلص نفسه من هذا.»

قالت شاي: «انظري إلى حالك، إنك ترتجفين، وهذا لا يدل على صفاء الذهن على الإطلاق.»

نظرت تالي إلى يديها، وضمتهما حتى تكفا عن الارتجاف.

ثم ركلت تالي كتلة خشبية ضخمة نحو النار فتناثر شررها. وأخذت تتأمل ألسنة اللهب وهي تلتهمها، وفتحت يديها نحو الدفء. وأحست أن النهر بمياهه شديدة البرودة قد أصابها برجفة برد تأبى أن تفارقها، مهما جلست بالقرب من النار.

وشعرت بأنها تريد رؤية زين مرة أخرى، عندئذٍ سيذهب عنها هذا الشعور الغريب الذي يخترق كيانها.

– «أترتعشين لأنك رأيت ديفيد؟»

قالت بازدراء: «ديفيد؟ ما الذي أوحى لك بتلك الفكرة؟»

– «لا تخجلي من هذا يا تالي-وا، لا يمكن لأحد أن يظل يتمتع بصفاء الذهن طوال الوقت، ربما تحتاجين إلى إحداث جرح.» وأخرجت شاي سكينها.

كانت تالي تريد أن تجرح نفسها لكنها أطلقت صيحة ازدراء وبصقت في النار. لن تسمح لشاي بأن تجعلها تشعر بضعفها هكذا. قالت: «لقد تعاملتُ مع موضوع ديفيد كما ينبغي ... أفضل مما فعلت أنت، على ما أذكر».

ضحكت شاي ولكمت كتف تالي مازحة، لكن اللكمة آلمت تالي فعلًا.

قالت تالي: «أوجعتني أيتها القائدة». كان من الواضح أن شاي كانت لا تزال مستاءة من هزيمتها في مواجهة مباشرة مع شخص من زمرة الفطريين في الليلة السابقة.

أطرقت شاي رأسها ونظرت إلى قبضتها وقالت: «آسفة، لم أقصد».

– «لا عليكِ. هل صفينا حساباتنا الآن؟ أتسمحين لي أن آتي معك لأرى زينًا؟»

أطلقت شاي صيحة استياء وقالت: «ليس وهو لا يزال مشوش العقل يا تالي-وا، سيصيبك هذا في آخر الأمر بالأسى، لم لا تساعدي في البحث عن فاوستو بدلا من ذلك؟»

– «أنتِ لا تظنين أنهم سيجدون أحدًا، أليس كذلك؟»

هزت شاي كتفيها، ثم أوقفت عمل شبكة التواصل التي تربطها بالجارحين الآخرين وقالت في خفوت: «لا بد أن أشغلهم بمهمة ما».

فيما بعد توجه الآخرون إلى البرية على ألواحهم الطائرة وأخذوا يفتشونها. لا يستطيع الضبابيون نزع شبكة التواصل المغروسة في جسد فاوستو دون أن يقتلوه، لذا فإن الإشارة التي تنبعث منها ستوصلهم من على بعد نحو كيلومتر. لكن الكيلومترات وحدها لا قيمة لها في البرية، وكانت تالي تعرف هذا. فحين كانت في طريقها إلى الضباب، كانت تطير بالسرعات العالية المعهودة للألواح الطائرة لأيام دون أن تجد أية علامة تدل على وجود بشر، ورأت مدنًا كاملة تغمرها رمال الصحراء وتغطيها الغابات. فإن أراد الضبابيون الاختباء، فإن العالم الطبيعي الفطري هائل بما يكفي ويزيد ليسعهم.

زفرت تالي باستياء قائلة: «هذا لا يعني أن تضيعي وقتي أنا أيضًا».

– «كم مرة علي أن أشرح لكِ هذا يا تالي-وا؟ لقد أصبحتِ من المتميزين الآن، ليس من المفترض أن تضيعي وقتك في التفكير في شخص مشوش العقل. أنت من الجارحين، وزين ليس منهم، الأمر بهذه البساطة.»

– «إن كان الأمر بهذه البساطة، فلماذا ينتابني هذا الشعور؟»

زفرت شاي وقالت: «لأنك يا تالي تستمتعين بهوايتك المعتادة وهي تعقيد الأمور».

تنهدت تالي وركلت بقدمها باتجاه النار فتطاير سيل من الشرر في الجو. تذكرت كم كانت تشعر بالرضا وهي من مشوشي العقل، بل وهي من الضبابيين، لكن لسبب

أو لآخر لم يدم شعورها بالرضا طويلًا؛ إذ كانت دائمًا ما تجد حالها يتغير وتجد نفسها تتجاوز الحدود، وتفسد حياة من حولها.

قالت في خفوت: «الخطأ ليس دائمًا خطئي أنا، فأحيانًا تتعقد الأمور من تلقاء نفسها».

– «لا بأس، ثقي بي هذه المرة يا تالي، رؤية زين ستعقد الأمور تعقيدًا كبيرًا، فقط امنحيه قدرًا كافيًا من الوقت حتى يصل إلى هنا بنفسه، ألست سعيدة معنا؟»

أومأت تالي برأسها ببطء؛ كانت سعيدة فعلًا. فحواسها الفائقة تجعل العالم بأسره واضحًا لها، وكل دقيقة تمر عليها وهي بهذا الجسد الجديد أفضل من عام كامل يمر عليها وهي من الحسان، ولكن لما كانت تدرك الآن أن زينًا يتمتع بصحة جيدة، فأصبح غيابه يربك كل شيء، فجأة شعرت بأنها ليست مكتملة وليست حقيقية.

قالت: «أنا سعيدة يا شاي-لا، لكن أتذكرين عندما هربت أنا وزين من المدينة آخر مرة وتركناك؟ في الواقع أنا لا يمكنني أن أكرر ذلك».

هزت شاي رأسها وقالت: «أحيانًا يكون عليك ترك شخص ما يا تالي-وا».

– «إذن أكان علي أن أتركك ليلة أمس يا شاي؟ أتركك تغرقين؟»

زفرت شاي وقالت: «مثال رائع يا تالي. اسمعي، أنا أقول هذا لمصلحتك، صدقيني، هذا التعقيد لن يفيدك».

– «إذن لنبسط الأمر يا شاي-لا.» وضعت تالي طرف إبهامها بين أسنانها الحادة كالسيف وعضته، وشعرت بوخزة ألم، فانتشر مذاق الدم الذي يشبه مذاق الحديد على لسانها، وجعل ذهنها صافيًا إلى حد ما.

– «فور أن يصبح زين من المتميزين سأكف عن هذا، ولن أتسبب في تعقيد الأمور أبدًا مرة أخرى.» مدت يدها وقالت: «أعدك عهد الدماء».

حدقت شاي في قطرة الدم الصغيرة وقالت: «أتقسمين على ذلك؟»

– «نعم، سأكون نموذجًا للجارحين الصالحين، وأفعل كل ما تأمرينني به أنت ودكتورة كابل، على أن تعيدي لي زينًا.»

صمتت شاي للحظة ثم مررت إبهامها على السكين وراقبت الدماء تنبجس منه ثم قالت: «كل ما كنت أريده طوال حياتي هو أن نحارب أنا وأنت في صف واحد يا تالي».

– «وأنا أيضًا. كل ما أريده أن يكون زين هنا بيننا.»

قالت شاي: «سأفعل أي شيء يسعدك». وابتسمت وأمسكت بيد تالي وألصقت إبهامها بإبهام تالي وهما تضغطان عليهما ... بقوة وقالت: «عهد الدماء».

بدأ الألم يداهم تالي، وشعرت بأن ذهنها صار صافيًا لأول مرة طوال اليوم. وأصبحت الآن تستطيع أن ترى مستقبلها، وكأنه طريق واضح لا يكتنفه أي غموض. لقد حاربت كي لا تظل من القبحاء، وحاربت كي لا تظل من الحسان، لكن كل هذا انتهى، وكل ما تريده من الآن فصاعدًا هو أن تكون من المتميزين.

قالت تالي في خفوت: «أشكرك يا شاي-لا، سأحفظ هذا العهد».

أطلقت شاي يد تالي ونظفت السكين بتمريرها بسرعة عدة مرات على فخذها. قالت: «سأحرص على ضمان ذلك».

ازدردت تالي لعابها ثم لعقت إبهامها الذي كان لا يزال يرتجف وقالت: «إذن أيمكنني أن آتي معكم الليلة أيتها القائدة؟ رجاء؟»

قالت شاي وهي تبتسم ابتسامة حزينة: «أظن أنه يجب أن تأتي الآن، لكن قد لا يعجبك ما ستربنه».

الفصل السادس

مدينة نيو برتي تاون

بعد أن توجه الآخرون إلى البرية قامت شاي وتالي بإخماد النار، وقفزت كلٌّ منهما على لوحها، وطارتا نحو المدينة.

كانت سماء مدينة نيو برتي تاون تتألق بالألعاب النارية الملونة مثل كل ليلة، والمناطيد المربوطة بالحبال تطير فوق أبراج الاحتفالات، والمشاعل الغازية تنير الحدائق الترفيهية وتبدو كلعابين متألقة وهي تصعد على الجوانب المنحدرة للمدينة المعزولة. وكانت المباني العالية تلقي بظلال متراقصة في ضوء الألعاب النارية الذي لا يدوم إلا لحظات، مما يضفي على الزينة المظلمة شكلًا مختلفًا مع كل مرة تتفجر فيها تلك الألعاب.

وبينما هما تقتربان من مدينة نيو برتي تاون، تناهى إلى سمعيهما أصوات متفرقة لمشوشي العقل السكارى وهم يطلقون صيحات عالية. وجعلت الأصواتُ المرحة تالي تشعر للحظة وكأنها فتاة من القبحاء تتطلع في حسد من إحدى ضفتي النهر وهي تنتظر عيد ميلادها السادس عشر. هذه أول رحلة تعود فيها إلى مدينة نيو برتي تاون منذ أن صارت من المتميزين.

قالت تالي: «هل تفتقدين تلك الأيام التي كنت فيها من الحسان يا شاي-لا؟»، فلم يقضيا معًا في جنة مشوشي الذهن سوى بضعة أشهر قبل أن تتعقد الأمور، «كانت فترة مسلية إلى حد ما».

قالت شاي: «كانت سخيفة، أُفضلُ التمتع بالعقل».

تنهدت تالي، فلم تستطع أن تخالفها الرأي، لكن التمتع بالعقل أحيانًا يسبب قدرًا كبيرًا من الأذى. لعقت تالي إبهامها، إذ لا يزال يحمل بقعة حمراء تدل على العهد الذي قطعته.

صعدتا منحدر المدينة من خلال إحدى الحدائق الترفيهية، وحرصتا على التسلل في الظلال في طريقهما نحو وسط المدينة. ومَرّتا مباشرةً فوق مجموعة من الأحبة المتعانقين، لكن لم يلمحهما أحد.

ضحكت شاي ضحكة خافتة وشغلت شبكة التواصل المغروسة في جسدها لتحمل كلماتها: «أخبرتك أنه لا داعي لتفعيل بذلات التخفي يا تالي-وا، فمشوشو الذهن لن يلحظوا وجودنا أصلًا».

لم ترد عليها تالي وإنما أخذت تتطلع إلى الحسان الجدد الذين يمرون تحتها. بدوا في منتهى السذاجة، لا يدركون نهائيًا المخاطر التي تحفهم ويجب حمايتهم منها. ربما تكون حياتهم مفعمة بالملذات، لكنها شعرت أنهم بلا قيمة الآن. لا يمكن أن تدع زينًا يحيا مثل هذه الحياة.

فجأة علت الضحكات والصرخات من بين الأشجار، وأخذت تقترب منهما بسرعة ... بسرعة الألواح الطائرة. فعّلت تالي بذلة التخفي التي ترتديها وانعطفت نحو أوراق شجر الصنوبر الإبرية الكثيفة التي تغطي قمم الأشجار الأقرب إليها. وظهر صف من راكبي الألواح الطائرة وهم يتسابقون في مسار متعرج عبر الحديقة ويضحكون ضحكات هستيرية. ربضت تالي وهي تحني رأسها أكثر وشعرت ببذلتها تتحول بسرعة إلى بذلة تمويهية مرقطة، وهي تتعجب من كثرة القبحاء الذين تسللوا إلى مدينة نيو بريتي تاون دفعة واحدة. ليست حيلة سيئة ...

وخطر لها أنه ربما يكون من المفيد أن تتتبع هذه المجموعة.

لكن في تلك اللحظة رأت وجوههم، واكتشفت أنهم يتمتعون بالجمال، وعيونهم واسعة وهيئتهم متناسقة ولا تشوبهم شائبة، كانوا حسانًا.

انطلقوا بسرعة أمامها دون أن يدركوا وجودها، كانوا يصيحون بأعلى أصواتهم وينطلقون نحو النهر بأقصى سرعتهم، خبت صرخاتهم، ولم يبق سوى رائحة العطر والشمبانيا.

- «أيتها القائدة، أرأيت ...»

- «نعم يا تالي-وا، رأيت.» صمتت شاي للحظة.

ابتعت تالي لعابها؛ فليس من عادة مشوشي العقل ركوب الألواح الطائرة؛ فالمرء يحتاج كل قدرته على الاستجابة السريعة حتى لا يقع من عليها؛ لذا فلا يمكن لشاردي الذهن ركوبها. فعندما كان الحسان الجدد يحتون للمواقف المثيرة

والمغامرات، كانوا يقفزون من على المباني وهم يرتدون سترات القفز، أو يركبون مناطيد الهواء الساخن، وهي من الأمور التي لا تتطلب أية مهارة.

لكن هؤلاء الحسان الذين رأتهم الآن لا يركبون الألواح الطائرة فحسب، وإنما يركبونها بمهارة. لقد تغيرت أحوال مدينة نيو برتي تاون منذ آخر مرة زارتها فيها تالي.

تذكرت آخر تقرير أصدرته السلطات الخاصة، الذي ورد فيه أن عدد الذين يهربون من المدينة أسبوعيًا في ازدياد، وأن أعدادًا هائلة من القبحاء تختفي في البرية. لكن ما الذي سيحدث لو اقتنع الحسان بفكرة الهرب؟

حينئذ خرجت شاي من مخبئها، وتحول لون بذلتها إلى الأسود القاتم بعد أن كانت بدرجات مختلفة من الأخضر. قالت: «ربما كان عدد الأقراص التي يهربها الضبابيون أكبر مما ظننا، ربما يهربونها إلى هنا، إلى مدينة نيو برتي تاون. فما داموا مزودين ببذلات تخفٍ، باستطاعتهم الذهاب إلى أي مكان».

أخذت تالي تنعم النظر في الأشجار من حولها؛ فعندما يرتدي المرء بذلة مجهزة تجهيزًا جيدًا فإنه يستطيع أن يختبئ حتى من الحواس التي يتمتع بها المميزون، مثلما أثبت الكمين الذي نصبه ديفيد من قبل. قالت تالي: «بالمناسبة أيتها القائدة، من أين حصل الضبابيون على تلك البذلات؟ فهم لم يصنعوها، أليس كذلك؟»

– «إطلاقًا، ولم يسرقوها أيضًا، إذ تقول دكتورة كابل إن كل المدن تحصي معداتها العسكرية إحصاءً دقيقًا، ولم تُبلغ أية مدينة في هذه القارة عن فقد أية معدات.»

– «هل أخبرتها بشأن ما حدث ليلة أمس؟»

– «نعم، أخبرتها بشأن بذلات التخفي، لكن لم أخبرها بشأن فقد فاوستو أو ألواحنا.»

أخذت تالي تتأمل ما سمعته، وهي تطير في مسار دائري فوق أحد المشاعل التي تخفق بضوء متقطع، وقالت: «إذن ... أتظنين أن الضبابيين عثروا على تكنولوجيا ما تعود إلى حضارة الأطلال القديمة؟»

– «سكان الأطلال القديمة ليسوا بالبراعة بحيث يتمكنون من تصنيع بذلات التخفي، فهم لم يبرعوا في شيء سوى القتل.» خبا صوت شاي ولزمت الصمت لثوان عند مرور مجموعة من هواة الحفلات بين الأشجار وهم يدقون الطبول بصوتٍ عالٍ أثناء توجههم إلى حفلة ما بجوار النهر. تطلعت تالي إليهم وهي تشعر بأنهم يبدون

أكثر حيوية من هواة الحفلات العاديين. هل أصبح كل من في المدينة أكثر تيقظًا؟ ربما انتقل تأثير جزيئات النانو إلى الحسان وإن لم يتناولوا الأقراص، مثلما كان وجودها بجوار زين دائمًا ما يزيد من درجة تيقظها.

بعد أن مرت المجموعة قالت شاي: «تظن دكتورة كابل أن الضبابيين لديهم أصدقاء جدد، أصدقاء من المدينة».

– «لكن لا يوجد من يملك بذلات تخفٍ سوى السلطات الخاصة، فلماذا يقوم واحد منا ...؟»

– «لم أقل مدينتنا هذه يا تالي-وا.»

تمتمت تالي: «آه.» ليس من عادة المدن أن يتدخل بعضها في شئون بعض، فالصراعات من هذا النوع أخطر من أن تُحتمل عواقبها، فقد ينتهي المطاف بها إلى الحروب التي كان يشنها سكان الأطلال القديمة، إذ كانت قارات كاملة تتنافس على السيطرة، ويحاول بعضها القضاء على البعض. وكان التفكير في أمر الدخول في حرب مع السلطات الخاصة التابعة لمدينة أخرى ليبعث بقشعريرة تسري في جسدها ...

هبطت تالي وشاي على سطح قصر بولشر بين الخلايا الشمسية وأجهزة شفط الهواء. كان بضعة أشخاص من مفقودي العقل يقفون على السطح، لكنهم كانوا مأخوذين بتراقص مناطيد الهواء الساخن والألعاب النارية في السماء فلم ينتبهوا لهما.

وكان وجود تالي على سطح قصر بولشر مرة أخرى ليثير فيها شعورًا بالاغتراب. لقد عاشت في هذا المكان بالفعل مع زين في الشتاء الماضي، لكن رؤيتها للأمور كافةً اختلفت الآن، وإحساسها بالروائح اختلف أيضًا؛ إذ كانت روائح منازل البشر التي تنبعث من بين أجهزة شفط الهواء الموزعة على السطح والآخذة في الدوران مختلفة تمامًا عن هواء البرية النقي، وجعلتها تشعر بالقلق وعدم الارتياح.

قالت شاي وهي ترسل ببيانات بصرية عبر شبكة التواصل المغروسة في جسدها: «تفقدي هذا يا تالي-وا». فتحت تالي شفيفة البيانات، فتحولت أرض المبنى تحتها إلى سطح شفاف، كاشفةً عن شبكة من الخطوط الزرقاء عليها علامات لنقاط مضيئة.

أغمضت تالي عينيها وفتحتهما بضع مرات وهي تحاول أن تفهم ما تراه، قالت: «هل هذا نوع ما من الأشعة تحت الحمراء؟»

ضحكت شاي وقالت: «كلا يا تالي-وا، هذه تغذية معلوماتية من شبكة الاتصال المعلوماتية الخاصة بالمدينة»، وأشارت إلى مجموعة من النقاط تدنوهما بطابقين ثم قالت: «هذا هو زين-لا وبعض الأصدقاء، إنه لا يزال في غرفته القديمة، أترينه؟»

وبينما كانت تالي تركز على كل نقطة من النقاط، كانت تجد اسمًا يظهر فجأة بجوارها، فتذكرت خواتم الاتصال التي يرتديها مشوشو العقل والقبحاء، وأن المدينة تتخذها وسيلة لمراقبة الناس. لكن الأرجح هو أن السلطات الخاصة ألبست زينًا سوارًا مثلما تفعل مع كل الحسان المشاغبين، هذا السوار هو خاتم اتصال لا يمكن خلعه.

أما باقي النقاط الظاهرة في غرفة زين فكان مكتوب عليها أسماء لم تتعرف على معظمها. فجميع أصدقائها الأشقياء القدامى شاركوا في الهروب الكبير إلى البرية إبان الشتاء الماضي، وكلهم خلصوا أنفسهم من حالة تشوش الذهن مثل تالي، وبهذا صاروا من المتميزين الآن، فيما عدا من ظلوا في البرية، ولا يزالون من الضبابيين.

تحرك اسم بيريس بجوار اسم زين مباشرة، كان بيريس أقرب أصدقاء تالي منذ أن كانا صغارًا، لكنه أثناء الهروب تراجع في اللحظة الأخيرة مقررًا أن يبقى من مشوشي العقل، وكانت تالي تعي جيدًا أنه أحد الحسان الذين لن يصيروا أبدًا من المتميزين.

لكن على الأقل يوجد بجوار زين شخص مألوف.

قطبت تالي جبينها وقالت: «لا بد أن زينًا يشعر بأن موقفه غريب، فالكل يتعرفون عليه من كل الحيل التي كنا نؤديها، لكنه قد لا يتذكر أيًا منها ...» وتركت صوتها الهامس يخفت، ونفضت الأفكار المريعة عن ذهنها.

قالت شاي: «إنه على الأقل لا يتنازل عن مستواه، فستُقام الليلة عشرات الحفلات في مدينة نيو برتي تاون، لكن يبدو أن أيًا منها ليس مثيرًا بما يكفي ليجذب زينًا ورفاقه».

– «لكنهم لا يفعلون شيئًا سوى الجلوس في غرفته.» إذ لم تكن أي من النقاط تتحرك كثيرًا، ومهما كان ما يخططون له، فإنه لا يبدو مثيرًا على الإطلاق.

– «بلى، فالتحدث إليه على انفراد سيكون صعبًا.» كانت شاي قد خططت لتتبع زين لفترة من الوقت، ثم استدراجه إلى مكان مظلم ما بين الأماكن التي تقام فيها الحفلات.

– «لماذا يجلسون جميعًا هكذا دون أن يفعلوا شيئًا؟»

لمست شاي كتف تالي وقالت: «اهدئي يا تالي-وا، إذا كانوا قد سمحوا له بالعودة إلى مدينة نيو برتي تاون، فهذا معناه أنه مؤهل للمشاركة في الحفلات، وإلا فما الغرض من هذا؟ ربما لا يزال الوقت مبكرًا على الخروج».

- «أتمنى أن يكون الأمر كذلك».

أومأت شاي بيدها، فخبت البيانات البصرية قليلًا، وعاد العالم الحقيقي المحيط بهما إلى بؤرة التركيز، ثم ارتدت قفازات التسلق وقالت: «تعالي يا تالي-وا، فلنكتشف الأمر بأنفسنا».

- «ألا يمكن أن نسمعهم عن طريق شبكة التواصل الخاصة بالمدينة؟»

- «هذا إن كنا نريد دكتورة كابل أن تسترق السمع. أُفضل ألا يخرج الأمر من بيننا نحن الجارحين».

ابتسمت تالي قائلة: «حسنًا يا شاي-لا، إذن ليكن الأمر بيننا نحن الجارحين، ما خطة الليلة بالضبط؟»

قالت شاي: «ظننت أنك تريدين رؤية زين»، ثم هزت كتفيها وأضافت: «على أية حال، المتميزون لا يحتاجون إلى خطط».

كان التسلق سهلًا في هذه الأيام.

لم تعد تالي تخاف المرتفعات، ولم تعد تثير فيها الانتعاش والصفاء، ولا تثير فيها سوى شعور طفيف جدًا بالحذر وهي تطل بناظريها من على حافة السطح، ولا يراودها إحساس بالذعر أو التوتر، فالأمر أقرب إلى تذكير يعطيه عقلها بأن تتوخى الحذر.

رفعت تالي ساقيها فوق حافة السطح ودفعت جسدها إلى أسفل وأخذت قدماها تنزلان من على حائط قصر بولشر الناعم. كانت ترتدي حذاءً مانعًا للانزلاق، وحشرت أحد أصابع قدمها في الجزء الغائر بين بلاطتَيّ قرميد، وتوقفت تاركة بذلة التخفي تحول نفسها حتى تظهر باللون نفسه الذي يتخذه القصر، وشعرت بالأنسجة التي تكسو بذلتها تتغير حتى أصبحت تطابق ملمس المادة التي شُيد منها المبنى.

وعندما أتمت البذلة التعديلات التي تدخلها على نفسها، أرخت تالي قبضتها الممسكة بحافة سور السطح فصارت ما بين انزلاق وسقوط، وكانت يداها وقدماها تحتك بالقرميد وهي تهبط مندفعة بسرعة لتتشبث بالشقوق أو حواف أطر النوافذ أو الصدوع التي لم يكتمل إصلاحها. لكن لم يكن أي من هذه العيوب قويًا بما يكفي ليتحمل وزنها، غير أن كل موضع مؤقت تشبثت به بيدها أو قدمها كان

يبطئ من سرعتها قليلًا، فظلت تسيطر على الموقف أثناء الهبوط. كان الموقف دقيقًا إلى حد مثير، إذ شعرت تالي وكأنها حشرة تجري على المياه بسرعة كبيرة جدًّا تحول بينها وبين الغرق.

عندما وصلت تالي إلى نافذة زين، كانت تسقط بسرعة لكن أصابعها أسرعت وأمسكت بحافتها بسهولة. تأرجحت تالي في مسار على هيئة قوس، والقفازان المضادان للانزلاق ملتصقان بالحافة وكأنما لُصقا بها بالصمغ، فأخذت القوة الدافعة لها تستنفد نفسها ببطء وهي تتحرك كالبندول جيئةً وذهابًا.

عندما نظرت تالي إلى أعلى رأت شاي تجثم على بعد متر فوقها، متكئة على بروز ضئيل جدًّا في حافة إطار نافذة لا يزيد طوله عن سنتيمتر واحد. كانت يداها المغطاتان بقفازين تنبسطان فبدتا أشبه بعنكبوتين ذواتا خمس أرجل، لكن تالي لم تفهم كيف أتاح هذا الوضع ما يكفي من الاحتكاك لحمل وزنها، وهمست: «كيف تفعلين هذا؟»

ضحكت شاي وقالت: «لا أستطيع أن أطلعك على جميع أسراري يا تالي-وا، لكن هذه البقعة يسهل الانزلاق من عليها إلى حد ما بسرعة استرقي السمع».

تعلقت تالي بالحائط بإحدى يديها وشدت أطراف القفاز الآخر بأسنانها، ثم خلعته ومدت أحد أصابعها ولمست به زاوية النافذة. سجلت الشرائح المغروسة في يدها الذبذبات الصادرة من الغرفة وحولت لوح الزجاج إلى مكبر صوت ضخم. أغمضت تالي عينيها وهي تستمع إلى الأصوات الصادرة من داخل الغرفة، فشعرت بقربها فجأة وكأنها تلصق إحدى أذنيها بكأس تجاور حائط رقيق. سمعت أزيزًا عندما بدأت شاي تستمع معها عبر شبكة التواصل.

كان زين يتحدث، وحين سمعت تالي صوته سرت قشعريرة طفيفة في جسدها؛ فقد كان صوته مألوفًا جدًّا، لكنه بدا مشوهًا، إما بسبب جهاز التصنت أو بسبب الشهور التي افترقا خلالها. ميزت تالي كلماته، بيد أنها لم تستوعب معانيها.

كان يقول: «جميع العلاقات الراسخة الثابتة بما تحمله من أهواء وآراء قديمة عتيقة تمضي، وجميع العلاقات الحديثة تصبح عتيقة قبل أن تتمكن من ترسيخ أقدامها ....».

قالت شاي باستياء وهي تعدل من وضع قبضتها: «ما هذا الذي يثرثر به؟».

– «لا أعلم. يبدو مثل حديث سكان مدينة الأطلال القديمة، يبدو مثل كتاب قديم.»

– «لا تقولي لي إن زينًا ... يقرأ للأشقياء؟!»

نظرت تالي لشاي في حيرة، ففي الواقع لم تكن القراءة الجهرية من العادات المعروفة عن الأشقياء، بل إنها ليست إلا سمة من سمات الفطريين، لكن صوت زين ظل يسترسل بإيقاع رتيب عن شيء ما ذابت معالمه.

– «اختلسي النظر يا تالي-وا.»

أومأت تالي برأسها ورفعت جسدها حتى تخطت عيناها حافة النافذة.

كان زين جالسًا على كرسي كبير مزود بوسادات طرية، وهو يمسك بإحدى يديه كتابًا ورقيًا قديمًا ممزقًا ويحرك بيده الأخرى صفحات الكتاب أثناء القراءة في حماس وكأنه قائد أوركسترا. بيد أن الأماكن التي أظهرت شبكةُ المدينة أن الأشقياء الآخرين يجلسون فيها كانت خاوية.

همست تالي: «آه يا شاي، سيعجبك ما يحدث.»

– «ما سأفعله يا تالي-وا هو أنني سأسقط على رأسك في نحو عشر ثوان. ما الذي يحدث؟»

– «إنه بمفرده. أما الأشقياء الآخرون ...» ضيقت تالي عينيها وهي تحدق في الظلام الكائن خارج المساحة التي ينيرها الضوء الذي يقرأ عليه زين. ها هم أولاء منتشرون حول الغرفة كالمستمعين المتنبهين. «خواتم، ما هم إلا خواتم اتصال، ما عدا زين.»

رغم أن شاي كانت تتشبث ببروز ضئيل متذبذب، فقد أطلقت ضحكة طويلة وقالت: «ربما كان ذهنه أكثر صفاءً مما تصورناه.»

أومأت تالي برأسها وابتسمت بينها وبين نفسها ثم قالت: «هل أدق على النافذة؟»

– «إذا تكرمت.»

– «قد أخيفه.»

– «سيفيده هذا يا تالي-وا فنحن نريده منتبهًا، والآن أسرعي فقد بدأت أنزلق.»

رفعت تالي نفسها ووضعت إحدى ركبتيها على حافة النافذة الضيقة، ثم أخذت نفسًا عميقًا ودقت على النافذة مرتين محاولةً أن تبتسم دون أن تكشف عن حدة أسنانها.

نظر زين نحو مصدر الصوت، وأجفل للحظة ثم اتسعت عيناه، وتحرك حركة انفتحت على إثرها النافذة.

ابتسم ابتسامة واسعة.

قال: «تالي-وا. لقد تغيرت.»

الفصل السابع

زين-لا

لا يزال زين وسيمًا.

كانت عظمتا وجنتيه بارزتين ونظراته فياضة بالمشاعر ومفعمة بالشغف والتعطش لما ترنو إليه، وكأنه لا يزال يلجأ إلى تناول أقراص حرق السعرات حتى يحافظ على يقظة ذهنه. كانت شفتاه ممتلئتين مثل شفاه جميع مشوشي العقل، وحين حدق في تالي ضم شفتيه بتركيز طفولي، ولم يطرأ أي تغيير على شعره؛ فهي تتذكر أنه كان يصبغه بحبر الكتابة حتى يتخذ لونًا أسود مائلًا للأزرق، على نحو لا يطابق معايير الذوق الرفيع التي وضعتها اللجنة المختصة بشئون الجمال. ومع ذلك ثمة شيء مختلف اعتلى وجهه. أعملت تالي عقلها محاولة أن تكتشف كنهه.

قال زين وصرير الحذاء المانع للانزلاق يصدر من جهة النافذة خلف تالي: «هل أحضرت شاي-لا معك؟ إن هذا لمن دواعي سروري».

أومأت تالي برأسها إيجابًا ببطء، مستشفة من صوته أنه كان يتمنى لو أنها جاءت بمفردها. بالطبع لديهما الكثير ليتحدثا فيه، وليس بين هذه الأمور شيء تود بالكاد أن تتحدث فيه أمام شاي.

فجأة بدا لها وكأن سنوات طويلة قد مرت منذ أن رأت زينًا آخر مرة. شعرت بأن كل الاختلافات التي طرأت على جسدها — من عظام خفيفة كالريش، ووشم متحرك، وندوب تغطي ذراعيها نتيجةً لجرح نفسها — هي علامات تذكرها بمدى التغيير الذي طرأ عليها أثناء الوقت الذي افترقا فيه، وتذكرها بمدى اختلافهما عن بعضهما البعض الآن.

ابتسمت تالي مشيرةً إلى خواتم الاتصال وقالت: «ألا يجد أصدقاؤك في هذا الكتاب القديم قدرًا من الملل».

– «عدد أصدقائي أكبر مما تتصورين يا شاي-لا.» وجال ببصره في حوائط الغرفة الأربع.

هزت شاي رأسها ساحبة أداة سوداء صغيرة من حزامها. التقطت أذنا تالي ارتجافتان صوتها الذي لا يكاد يُسمع والذي هو كحسيس تصدره أوراق الشجر الميتة حين تلقى في النار، وقالت: «اهدأ يا زين-لا، فالمدينة لا تستطيع أن تسمعنا».

اتسعت عيناه وقال: «هل يُسمح لكما بهذا؟»

ابتسمت تالي قائلة: «ألم تسمع بالأمر؟ إننا من المتميزين».

– «آه، حسنًا، طالما أننا نحن الثلاثة فقط ...» ورمى الكتاب على الكرسي الشاغر بجواره فتسبب هذا في اهتزاز خاتم بريس، وقال: «الباقون خرجوا في مهمة بسيطة الليلة، وأنا أقوم بالتغطية خشية أن يكون الحراس يراقبوننا».

ضحكت تالي وقالت: «إذن من المفترض أن يصدق الحراس أن الأشقياء يعقدون حلقة قراءة؟»

هز زين كتفيه: «ليسوا حراسًا حقيقيين، على حد علمنا، وإنما برامج، وطالما أن شخصًا ما يتحدث، فإن صفوفها لا يُعكر».

جلست تالي على سرير زين غير المرتب ببطء والقشعريرة تسري في جسدها. بحيث زين لا يمت بأية صلة إلى حديث الحسان السمج، وإن كان يقوم بالتغطية على أصدقائه وهم يرتكبون حيلة من حيل الأشقياء، فهذا يعني أن ذهنه لا يزال متوقدًا، وأنه لا يزال من الحسان الذين يهوون الحيل، والذين من الممكن أن يصيروا من المتميزين في يوم ما ...

استنشقت تالي رائحته المألوفة التي تفوح من أغطية السرير، وهي تفكر في الوشوم المرسومة على وجهها، فالأرجح أنها تدور بجنون حتى تكاد تقفز من فوق وجهها.

لكن زينًا نفسه لم يكن يرتدي خاتم اتصال أو سوار، فكيف يتتبعه الحراس؟

قال زين وهو يدور ببصره على شبكة الوشوم المتحركة المرسومة على وجهها وذراعيها: «وجهك الجديد يكاد يفوق جمال هيلين فاتنة الإغريق يا تالي-وا، إنه يمكن أن يدفع مليار سفينة للدخول في حرب، لكنها على الأرجح ستكون سفن قراصنة».

ابتسمت تالي لمزاحه الثقيل محاولة أن تفكر في شيء تقوله، ظلت تنتظر هذه اللحظة طوال شهرين وفجأة صار كل ما تستطيع فعله هو أن تجلس في مكانها كالبلهاء.

لكن لم يكن توترها فقط هو ما يعقد لسانها، فكلما نظرت إليه، بدا لها أن شيئًا ما يشوبه، على نحو ما، وبدا صوته وكأنه صادر من غرفة أخرى.

قال زين في خفوت: «كنت أتمنى مجيئك».

قالت شاي: «لقد أصررت على أن تأتي». وكانت كلماتها أقرب إلى الهمس.

أدركت تالي لِمَ يبدو صوت زين بعيدًا هكذا؛ فلا توجد شبكة اتصال مغروسة في جسده ولذا فإن صوته لا يخترقها مثلما تخترقها أصوات غيرها من الجارحين، إنه لم يعد فردًا من جماعتها، إنه ليس من المتميزين.

جلست شاي بجوار تالي على السرير وقالت: «لكن إن كنتما لا تمانعان، يمكنكما أن تتصرفا كمشوشي العقول في وقت لاحق». وأخرجت الكيس البلاستيكي الصغير المحتوي على أقراص النانو الذي أخذه هوو من الفتى القبيح أمس ثم قالت: «جئنا بشأن هذا».

نهض زين من كرسيه ومد يده ليأخذه، لكن لم يكن من شاي إلا أن ضحكت وقالت: «ليس بهذه السرعة يا زين-لا، فمن عاداتك السيئة تناول الأقراص الخاطئة».

قال زين بألم: «لا تذكريني».

ارتجفت تالي مرةً أخرى، وبينما كان يحاول الاستقرار على كرسيه، كان يتحرك ببطء وروية تقريبًا وكأنه شخص هرم.

تذكرت تالي كيف أن أقراص النانو التي ابتكرتها مادي دمرت جهازه الحركي؛ إذ عطلت الجزء المسئول عن الاستجابات والحركة في دماغه. ربما لا يزيد الأمر عن ارتجافات طفيفة فقط نتجت عن تلك الآلات الدقيقة، وليس أمرًا يدعو إلى الخوف.

بيد أنها عندما تنظر إلى وجهه تشعر بأنه ينقصه شيء ما. لا يوجد عليه شبكة مبهرة من الوشوم المتحركة، ولا يبعث فيها شيئًا من الإثارة التي تشعر بها عندما تنظر في العيون حالكة السواد التي تزين وجوه غيرها من الجارحين. كان يبدو متبلدًا على نحو لا يكون عليه المتميزون أبدًا، وكأنه فقط ورق زينة معلق على الحائط، واحد من الحسان ليس إلا.

لكن هذا هو زين، وليس شخصًا فطريًا مشوش العقل ...

أطرقت تالي رأسها آملة أن تضع حدًا للوضوح الثاقب الذي تتميز به رؤيتها، فهي لا تريد أن ترى كل هذه التفاصيل المزعجة.

قال: «ما مصدر هذه الأقراص؟» كان صوته لا يزال يبدو صادرًا من مكان بعيد جدًا.

أجابت شاي: «فتاة من الضبابيين».

نظر زين إلى تالي نظرة خاطفة وقال: «أتعرفها؟»

هزت تالي رأسها نفيًا دون أن ترفع بصرها من على الأرض. لم تكن الفتاة من الأشقياء ولم تنتم إلى الضباب القديم. فجأة داهم ذهن تالي السؤال الآتي: هل أتت الفتاة من مدينة أخرى؟ ربما هي واحدة من الحلفاء الجدد الغامضين للضبابيين ...

قالت شاي: «لكنها كانت تعرف اسمك يا زين-لا وقالت إن الأقراص مرسلة لك تحديدًا. هل تنتظر وصول أمانة ما؟»

أخذ زين نفسًا عميقًا، وقال: «ربما عليك أن تسألي الفتاة».

قالت تالي: «لقد هربت». وسمعت شاي تطلق زفرة استياء قصيرة.

ضحك زين وقال: «إذن فالسلطات الخاصة في حاجة إلى مساعدتي؟»

قالت تالي: «لسنا مثل ...» لكن صوتها تهدج، فهي من السلطات الخاصة بالفعل، وزين استطاع أن يدرك هذا بنفسه، لكنها فجأة تمنت لو استطاعت أن توضح الاختلاف بين الجارحين والسلطات الخاصة: فالجارحون ليسوا مثل المتميزين النظاميين الذين كانوا يملون عليه الأوامر باستعلاء وهو من القبحاء، هم يتبعون أهواءهم، وقد وجدوا كل ما كان يبحث عنه: العيش في البرية بعيدًا عن تحكمات المدينة، وعطب الذهن، والخلاص من نقائص القبحاء ...

بعكس زين الذي يعد نموذجًا للحالة العادية، فيما يبدو.

أطبقت تالي فمها، ووضعت شاي يدها على كتفها.

شعرت تالي بدقات قلبها تتسارع.

قالت شاي: «بالتأكيد نحن بحاجة إلى مساعدتك، بحاجة لمنع هذه الأقراص»، ورفعت كيس الأقراص، وأردفت قائلة: «من تحويل المزيد من الحسان إلى مثل حالك»، وعند آخر كلمة، ألقت الكيس نحوه.

رأت تالي كل سنتيمتر يقطعه الكيس في رحلة طيرانه، رأته وهو يتخطى زينًا، ورأت يدي زين وهي ترتفع للإمساك به بعد ثانية كاملة. انزلقت الأقراص بطول الحائط وسقطت في زاوية الحجرة.

ترك زين يديه الخاويتين تسقطان في حجره حيث استقرتا هناك ملتويتين مثل الحلزونات الميتة.

قالت شاي: «أحسنت التقاطها».

ازدردت تالي لعابها. واكتشفت أن زينًا معاق.

هز زين كتفيه وقال: «لا حاجة لي إلى هذه الأقراص يا شاي-لا على أية حال، فأنا متيقظ على الدوام». وأشار إلى جبهته وقال: «أقراص النانو آذتني هنا، في المكان الذي من المفترض أن تكون فيه آثار التلف. أعتقد أن الأطباء زرعوا المزيد من جزيئات النانو. هذا الجزء من عقلي جديد تمامًا ودائم التغير».

– «لكن ماذا حدث لـ ...» واحتبس السؤال في حلقها.

– «ذكرياتك؟ أفكارك؟» هز زين كتفه مرة أخرى وقال: «العقول تجيد إعادة برمجة نفسها، مثلما فعل عقلك يا تالي عندما خلصت نفسك من الحالة التي تصيب الحسان، ومثلما فعل عقلك يا شاي-لا عندما جرحت نفسك». ارتفعت إحدى يديه من على حجره وحلقت كطائر يرتعش، وقال: «إن التحكم في شخص ما عن طريق تغيير عقله يشبه محاولة إيقاف عربة طائرة عن طريق حفر خندق لها، إن حاول السائق، فسيتمكن من أن يحلق فوق الخندق».

قالت تالي: «لكن يا زين ...» وشعرت بسخونة في عينيها، وأضافت «إنك ترتعش».

لم يكن الأمر يتعلق بما يعتري حركاته من علة وإنما بوجهه، وعينيه وصوته... لم يعد زين يتمتع بقدرات فائقة.

رمقها وقال: «تستطيعين فعل هذا مرة أخرى يا تالي».

قالت: «فعل ماذا؟»

– «القضاء على أثر ما فعلوه بك، هذا ما يفعله أصدقائي الأشقياء: يعيدون برمجة عقولهم».

– «لست مصابة بأي آثار تلف.»

– «أأنت واثقة من ذلك؟»

قالت شاي: «وفر النصيحة لأصدقائك الجدد من الأشقياء المعاقين يا زين-لا، لسنا هنا لنتحدث عن التلف الذي أصاب عقلك، من أين أتت هذه الأقراص؟»

ابتسم وقال: «تريدين الحصول على معلومات بشأن الأقراص؟ لم لا؟ لن تستطيعوا إيقافنا. إنها من الضباب الجديد».

قالت شاي: «شكرًا أيها العبقري، نريد أن نعرف أين هو الضباب الجديد؟»

أطرق رأسه وتطلع إلى يده المرتعشة وقال: «ليتني أعلم، لكنت قد استعنت بهم فورًا».

أومأت شاي برأسها وقالت: «ألهذا تساعدهم؟ على أمل أن يعالجوك؟»

هز رأسه نفيًا وقال: «الأمر أكثر أهمية مني بكثير يا شاي-لا، لكن نعم، نحن الأشقياء نوزع الدواء، هذا ما يفعله هؤلاء الخمسة الآن في حين يُفترض أنهم جالسون هنا». أشار زين إلى خواتم الاتصال، وقال: «لكن الأمر أكبر منا، فنصف جماعات المدينة تساعدنا، وقد وزعنا آلاف الأقراص حتى الآن».

قالت شاي: «الآلاف؟ هذا مستحيل يا زين، كيف يتمكن الضبابيون من إنتاج هذا العدد؟ آخر ما رأيته هو أنه ليس لديهم حمامات مزودة بصناديق طرد فما بالك بحال المصانع».

هز زين كتفه وقال: «فتشيني، لكن فات وقت إيقافنا، فالأقراص الجديدة تعمل بسرعة مبهرة، ولقد ازداد عدد الحسان الذين يستطيعون التفكير».

رمقت تالي شاي بنظرة خاطفة. هذا بالفعل أكبر من زين. إن كان صادقًا فيما يقول، فلا عجب أنْ بدا لهم أنّ المدينة كلها تتغير.

رفع زين يديه المرتعشتين أمامه وقد أطبق معصميه وقال: «تريدين أن تقبضي عليّ الآن؟»

صمتت شاي للحظة والوشم المتحرك يخفق على وجهها وذراعيها، وأخيرًا هزت كتفيها وقالت: «لن أقبض عليك أبدًا يا زين-لا، تالي لن تدعني أفعل هذا، وأيضًا أنا لست مهتمة حقًا بشأن أقراصك الصغيرة».

رفع زين أحد حاجبيه وقال: «إذن ما الذي يأبه بشأنه الجارحون يا شاي-لا؟»

قالت شاي ببرود: «إخواننا من الجارحين، فأصدقاؤك الضبابيون اختطفوا فاوستو الليلة الماضية، وهذا لا يرضينا».

ارتفع حاجبا زين ورمى تالي بنظرة مباغتة، قال: «هذا ... مثير، ما الذي تظنون أنهم فاعلون به؟»

قالت شاي: «يجرون عليه التجارب، ويجعلونه يرتعش مثلك، على الأرجح، إلا لو عثرنا عليه في الوقت المناسب».

هز زين رأسه نفيًا وقال: «إنهم لا يجرون تجارب على أحد دون الحصول على موافقته».

قالت شاي: «موافقته؟ أية دلالة من دلالات كلمة «اختطفوا» لم تستطع أن تفهمها يا زين-لا؟ إنهم لم يعودوا جبناء كما كانوا في الماضي، وإنما يتبعون توجهًا جديدًا يتصف بالبرود والجفاء، وصار لديهم معدات عسكرية، وقد نصبوا لنا كمينًا، وكانوا مزودين بعصي كهربائية».

قالت تالي: «وكادوا يغرقون شاي، فقد ألقوا بها في النهر وهي غائبة عن الوعي».

– «غائبة عن الوعي؟» اتسعت ابتسامة زين وقال: «لا تنامي وأنت في مهمة يا شاي-لا».

انقبضت عضلات شاي، وللحظة ظنت تالي أنها ستهب من على السرير وتهاجم زينًا الذي لا حول له ولا قوة بأسنانها وأظافرها الصلبة كالماس.

لكن لم يكن منها إلا أن ضحكت وفتحت يديها مغيرةً وضع التأهب للعراك ثم مرت بها على شعر تالي، وقالت: «شيء من هذا القبيل، لكنني يقظة جدًا الآن».

هز زين كتفه، وكأنما لم يلحظ أنها كانت على وشك أن تمزق عنقه، قال: «حسنًا، لا أعرف مكان الضباب الجديد، وليس في وسعي تقديم المساعدة».

قالت شاي: «بل في وسعك».

– «كيف؟»

– «تستطيع أن تهرب».

– «أهرب؟» تحركت أصابع زين لتلمس رقبته، فقد كانت تحيط بها سلسلة معدنية حلقاتها من الفضة غير اللامعة، وأردف قائلًا: «أخشى أن هذا ينطوي على مخالفة».

أغمضت تالي عينيها للحظات. إذن هكذا سيتتبعونه، زين ليس معاقًا وليس من العيويين فحسب وإنما هو أيضًا محاط بطوق كالكلاب، وكان غمض عينيها هو كل ما يمكنها فعله حتى تمنع نفسها من أن تقفز وتلقي بنفسها من النافذة. وساهمت في ذلك رائحة الغرفة: الملابس الناتجة عن إعادة التدوير، الكتاب القديم، الرائحة السكرية التي تفوح من الشمبانيا التي تنتشر في المكان، كل هذا يصيبها بالغثيان.

قالت شاي: «يمكننا أن نجلب لك أداة تقطع بها هذه السلسلة».

هز زين رأسه نفيًا، وقال: «أشك، لقد حاولت ذلك الأمر، إنها مصنوعة من السبائك المعدنية نفسها التي يصنعون منها السفن المدارية».

قالت شاي: «ثق بي، أنا وتالي نستطيع أن نفعل أي شيء نريده».

ألقت تالي نظرة خاطفة على شاي، إنهما تريدان كسر سبيكة من السبائك التي تصنع منها السفن المدارية؟ كي يتعاملا مع تكنولوجيا بهذا التطور عليهما أن تطلبا مساعدة الدكتورة كابل.

لامس زين السلسلة وقال: «وفي مقابل هذا المعروف البسيط تريدان مني أن أخون الضبابيين؟»

قالت شاي: «لن تفعل هذا لأجل الحصول على حريتك الشخصية يا زين»، ووضعت يدها على كتف تالي مضيفةً: «لأجلها ستفعل هذا».

شعرت تالي بزوجين من العيون مسلطين عليها: عينا شاي العميقتان السوداويتان المتمتعتان بسمات عيون المتميزين، وعينا زين العاديتان الشاحبتان.

قال زين ببطء: «ماذا تعنين؟»

وقفت شاي دون أن تنبس ببنت شفة، بيد أن تالي سمعت شفتيها تنطقان بكلمات قليلة هامسة عبر جهاز التواصل.

– «سيجعلونه من المتميزين ...»

أومأت تالي برأسها إيجابًا باحثةً عن كلمات تقولها، فهو لن يطيع أحدًا سواها.

تنحنحت تالي وقالت: «زين، لو هربت ستثبت لهم أنك لا تزال متمتعًا بقواك الذهنية، وعندما يمسكون بك سيجعلونك مثلنا، لا يمكنك أن تتخيل كم هذا رائع، لن تتخيل ما به من وضوح وصفاء ذهن، أيضًا حينها سيمكننا أن نبقى معًا».

سألها في خفوت: «ولم لا يمكننا أن نكون معًا الآن؟»

حاولت تالي أن تتخيل تقبيل شفتيه اللتين تشبهان شفاه الأطفال، وملاطفة يديه المرتعشتين، فأثارت هذه الفكرة اشمئزازها.

حركت تالي رأسها نفيًا وقالت: «آسفة ... لكن ليس وأنت على هذا الحال».

تحدث زين بهدوء وكأنما يخاطب طفلة، قال: «يمكنك أن تغيري من نفسك يا تالي ...».

قاطعته شاي قائلةً: «ويمكنك أن تهرب يا زين، أن تخرج للبرية وتجعل الضبابيين يعثرون عليك»، وأشارت إلى زاوية الحجرة وقالت: «بل يمكنك أن تحتفظ بكيس الأقراص وتجعل بعض أصدقائك الأشقياء يفيقون إن أردت».

لم يرفع زين عينيه من على تالي، وقال: «ثم أخونهم؟»

قالت شاي: «لن يكون عليك أن تفعل أي شيء يا زين، فسأعطيك جهاز تتبع مع الأداة التي ستقطع بها السلسلة، وفور أن تصل إلى الضباب الجديد سنأتي لنأخذك، وستجعلك المدينة قويًا سريعًا مثاليًا، ومتمتعًا بكامل قواك الذهنية إلى الأبد».

قال زين ببرود: «أنا أتمتع بها بالفعل».

قالت شاي: «صحيح، لكنك لست قويًا ولا سريعًا ولا مثاليًا يا زين-لا، بل إنك دون مستوى الإنسان العادي».

قال: «هل تعتقدين حقًا أنني سأخون الضباب؟»

ضغطت شاي على كتفي تالي وقالت: «من أجلها، ستفعل».

نظر زين إلى تالي وقد ارتسم الشرود على وجهه للحظات، وكأنه لا يدري ماذا يفعل، ثم أطرق رأسه لينظر إلى يديه وتنهد وهو يومئ برأسه ببطء.

لكن تالي قرأت الأفكار المحفورة على وجه زين بكل وضوح: سيقبل العرض ثم يحاول أن يخدعهم فور تمكنه من الهرب. كان يعتقد حقًّا أنه يستطيع خداعهما ثم ينقذ تالي بطريقة ما ويعيدها إلى صفوف الأشخاص العاديين.

كان من السهل عليها استشفاف ما يعتمل في عقله، تمامًا كما هو من السهل رؤية التنافس المثير للشفقة بين القبحاء وهم في حفل الربيع. وكان جسده السقيم يترك أفكاره تتسرب منه، مثلما يتصبب العرق من جسد القطريين في الأيام الحارة.

أشاحت تالي ببصرها.

قال: «حسنًا، لأجلك يا تالي».

قالت شاي: «قابلنا غدًا عند منتصف الليل عند نقطة تشعب النهر، وأحضر معك إمدادات تكفي مدة انتظار طويلة لأن الضباويين لن يثقوا سريعًا في الهاربين، بيد أنهم في النهاية سيأتون لأجلك يا زين».

أومأ زين برأسه إيجابًا، وقال: «أعرف ما عليّ فعله».

— «واحضر معك كل من تريد من الأصدقاء، وكلما زاد العدد كان هذا أفضل فقد نحتاج إلى بعض المساعدة هناك».

لم يرد على هذه الإهانة وإنما أومأ برأسه إيجابًا وهو يحاول أن تلتقي نظراته بنظراتها. أشاحت شاي ببصرها لكنها افتعلت ابتسامة باهتة، وقالت: «ستزداد سعادتك عندما تصبح من المتميزين يا زين-لا، أنت لا تعي مدى روعة الأمر». وثنت شاي يديها استعدادًا للانطلاق وهي تشاهد الوشم يدور. «كل ثانية بها وضوح وجمال».

وقفت شاي وشدت يدي تالي حتى وقفت هي الأخرى ثم سارت نحو النافذة بخطوات واسعة. وقفت شاي وإحدى قدميها على حافة النافذة.

نظر زين إلى تالي وقال: «سنكون معًا عما قريب».

لم يكن من تالي إلا أن أومأت برأسها إيجابًا.

الفصل الثامن

الجرح

«معك حق، كان ذلك مريعًا.»

اقتربت شاي منها بلوحها الطائر وقالت: «مسكينة يا تالي-وا ...». كانت صورة القمر المنعكسة على المياه تحتهما ترافقهما، وتتبدل بفعل أمواج المياه المصاحبة للتيار، قالت شاي: «يؤسفني ذلك حقًّا.»

– «لماذا يبدو مختلفًا تمامًا؟ يبدو وكأنه لم يعد هو.»

– «أنت التي تغيرت يا تالي، فأنت الآن من المتميزين، وهو من فئة العاديين.»

هزت تالي رأسها محاولة أن تتذكر صورة زين قبل أن يكونا من الحسان؛ كان متيقظًا، يحمر وجهه من فرط الحماس حين يتحدث، فتتحرك مشاعرها وتساورها رغبة في لمسه ... حتى عندما كان يتصرف تصرفًا يضايقها، كان أبعد ما يكون عن المستوى العادي. لكنه بدا الليلة وكأن شيئًا جوهريًا قد نُزِع منه، وكأنه طائر فقد جناحيه.

رأت تالي بعين خيالها شاشة تنقسم إلى جزأين: زين كما تتذكره وما أصبح عليه الآن، والصورتان تتصارعان، فالدقائق الثقيلة التي أمضتها معه جعلتها تشعر وكأن رأسها سينشق إلى شقين.

قالت تالي بخفوت: «لا أريد هذا». كانت تشعر باضطراب في معدتها ومن خلال بصرها الفائق، بدا لها ضوء القمر المنعكس على المياه ساطعًا أكثر مما ينبغي، وبدت خطوطه حادة أكثر من اللازم، قالت: «لا أريد أن أكون على هذه الحال.»

انعطفت شاي بلوحها واندفعت مباشرة في مسار تالي ثم دارت باللوح وأوقفته بغتة على نحو خطير. مالت تالي إلى الخلف، وصرخ اللوحان وهما يتوقفان وكأنهما منشاران دائريان، ووقفا لا يفصل أحدهما عن الآخر سوى سنتيمترات معدودة.

صاحت شاي في حدة: «أي حال تقصدين؟ الضيق؟ الحزن؟ حاولت أن أمنعك من المجيء معي!»

كان قلب تالي يخفق بشدة انزعاجًا من التصادم الذي كاد يقع، وانتابها غضب عارم، قالت: «كنت تعلمين بلا شك أن رؤيته ستؤثر فيّ!»

قالت شاي ببرود: «تظنين أنني عليمة بكل شيء؟ لست أنا العاشقة، فلم أشعر بذلك منذ أن خطفت ديفيد مني، لكن ربما ظننت أن الحب قد يؤدي إلى التغيير، والآن يا تالي-وا، هل جعل الحب زينًا من المتميزين في نظرك؟»

أجفلت تالي، وشعرت باضطراب يعتمل بداخلها. نظرت إلى المياه المعتمة وقد داهمها شعور بالغثيان. حاولت أن تحافظ على هدوئها وأن تتذكر المشاعر التي كانت تنتابها حيال زين حين كانا من الحسان، ثم قالت: «ما الذي فعلته دكتورة كابل بنا يا شاي؟ هل نحن مصابون بآثار تلف في أدمغتنا؟ تلف يجعلنا نرى أن الآخرين جميعًا يرثى لهم؟ وكأننا أفضل منهم؟»

لمعت عينا شاي كالعملات المعدنية عاكسة أضواء مدينة نيو بريتي تاون، وقالت: «نحن أفضل منهم بالفعل يا تالي-وا، والعملية تمدنا بالصفاء اللازم لرؤية ذلك، ولهذا يبدو الجميع مرتبكين وحقراء، لأن معظم الأشخاص هكذا بالفعل».

قالت تالي: «لا، زين لم يكن قط حقيرًا».

– «لقد تغير هو أيضا يا تالي-وا».

– «لكن هذا ليس ذنبه ...» أشاحت تالي بوجهها ثم أضافت: «لا أريد أن أرى بهذا الأسلوب، لا أريد أن ينتابني الاشمئزاز حيال كل مَن لا ينتمي لجماعتنا يا شاي!»

ابتسمت شاي وقالت: «تفضلين أن تكوني دائمة السعادة محبة للجميع كمشوشي العقل السذج؟ أم تفضلين العيش كالضبابيين: تتبولين في حفر، وتأكلين أرانب ميتة وأنت مقتنعة بالرضا التام عن ذلك؟ ما الجانب الذي لا يعجبك في كونك من المتميزين؟»

تلوت تالي أصابعها متخذةً وضعًا قتاليًا وقالت: «لا يعجبني أنني أرى زينًا على غير ما يرام».

– «أتظنين أنه يوجد من قد يراه على ما يرام يا تالي؟ إن عقله في حالة يرثى لها!»

شعرت تالي بحرارة الدموع بداخلها لكنها لم تنهمر من عينيها. إنها لم تر قط أحدًا من المتميزين يبكي، بل إنها لا تدري إن كان بوسعها البكاء أم لا؟ وقالت: «فقط أجيبيني: هل يوجد شيء ما في دماغي يجعلني أراه على غير ما يرام؟ ما الذي فعلته كابل بنا؟»

تنهدت شاي في إحباط وقالت: «تالي، في كل صراع يقوم الطرفان المتنازعان بالعبث بأدمغة الناس، لكن على الأقل جانبنا يجيد القيام بذلك، فالمدينة تجعل مشوشي العقل على ما هم عليه حتى تسعدهم وتضمن أمن الكوكب، وتجعلنا نحن المتميزين نرى العالم بوضوح شديد حتى إن جماله يكاد يؤذينا، وذلك كي نمنع البشرية من تدميره مرة أخرى». اقتربت شاي بلوحها ومدت يدها لتمسك كتفي تالي، وقالت: «لكن الضبابيين هواة يجرون التجارب على البشر، ويحولونهم إلى كائنات مشوهة مثل زين».

شرعت تالي تقول: «زين ليس مـ ...» لكنها لم تستطع أن تتم ما أرادت أن تقوله، فالجزء الذي يحتقر ضعفه بداخلها كان قويًا جدًا، فلا يمكن أن تنكر أن زينًا يثير اشمئزازها، وكأنه شيء مقزز لا ينبغي أن يترك حيًا.

لكن هذا ليس خطأه، بل خطأ دكتورة كابل لأنها لم تجعله من المتميزين، ولأنها اتبعت قواعدها السخيفة.

قالت شاي في خفوت: «حافظي على صفاء ذهنك».

أخذت تالي نفسًا عميقًا وهي تحاول أن تتمالك غضبها وإحباطها. وأطلقت العنان لحواسها حتى تمكنت من أن تسمع الرياح وهي تداعب أوراق شجر الصنوبر الإبرية، وفاحت الروائح من المياه: روائح الطحالب الطافية على السطح والمعادن القديمة المترسبة في أعماقها؛ وهدأت دقات قلب تالي قليلًا.

– «أخبريني يا تالي، أأنت واثقة من أنك تحبين زينًا حقًا، وأن الأمر ليس ذكرى فقط متبقية من الماضي؟»

ظهر الألم على وجه تالي وأغمضت عينيها. في أعماقها، لا تزال صور زين المختلفة تصارع بعضها البعض، وشعرت أنها ممزقة بينها، وعجزت عن بلوغ الصفاء الذهني.

همست تالي قائلةً: «ينتابني الغثيان عندما أنظر إليه، لكنني أعلم أن هذا الشعور خاطئ، أريد أن أعود ... إلى إحساسي السابق».

خفضت شاي صوتها وهي تقول: «إذن اسمعي يا تالي، لدي خطة، طريقة نخلع بها ذلك الطوق».

فتحت تالي عينيها وهي تجز على أسنانها حين تخيلت الطوق المحيط بعنقه، قالت: «سأفعل أي شيء يا شاي».

ردت شاي: «لكن يجب أن يبدو الأمر وكأن زينًا هرب بدون مساعدة من أحد، وإلا فإن دكتورة كابل لن تقبله، وهذا ينطوي على خداع السلطات الخاصة».

ابتلعت تالي لعابها وقالت: «وهل نستطيع فعل ذلك حقًا؟»

قالت شاي بتهكم: «بل قولي: هل ستتيح لنا عقولنا ذلك؟ بالطبع، فنحن لسنا من مشوشي العقل، لكننا بهذا سنغامر بكل ما نملك، أتفهمين؟».

سألتها تالي: «وهل أنتِ مستعدة للقيام بهذا من أجل زين؟».

ابتسمت شاي وعيناها تلمعان وقالت: «بل من أجلك يا تالي-وا، ومن أجل التسلية، لكنني أريدك أن تكوني في كامل صفاتك».

أخرجت شاي سكينها.

أغمضت تالي عينيها مرة أخرى وأومأت برأسها إيجابًا. كانت في أمس الحاجة إلى الصفاء الذهني، فمدت يدها لتمسك بسكين شاي من نصلها.

– انتظري، ليس بيدك...

لكن تالي أمسكت النصل الحاد بعنف في قبضتها. تفرقت الأعصاب الحساسة المطورة في كفها حتى صرخت من الألم، فهذه الأعصاب مفرطة الحساسية بحيث صارت تفوق أعصاب أي من الفطريين حساسيةً بمائة مرة. أحست بألم شديد جعلها تصرخ.

وجاءت اللحظة الفريدة بالصفاء العارم، وتمكنت تالي أخيرًا من الرؤية عبر أفكارها المشوشة، واكتشفت وجود أحاسيس وأفكار نائمة في أعماقها، وهي الأمور التي ظلت دون أن يطرأ عليها تغيير، سواء وهي من القبحاء أم من الحسان أم من المتميزين، وكان الحب من بينها. شعرت بالحنين للعودة إلى زين والإحساس بكل المشاعر التي كانت تنتابها وهي معه من قبل، ولكن بعد أن تزداد قوتها ألف مرة بفعل حواسها الجديدة. كانت تريد أن يتعرف زين على شعور المرء حين يكون من المتميزين، وأن يرى العالم بوضوح جلي.

قالت تالي: «حسنًا». كانت أنفاسها غير منتظمة، وفتحت عينيها وقالت: «كلي آذان صاغية».

تهلل وجه شاي، وقالت: «أحسنتِ، لكن جربت العادة على جرح الذراع».

فتحت تالي يدها، وسحبت السكين من جلد كفها، فانطلقت موجة أخرى من الألم، وأخذت نفسًا عميقًا.

همست شاي وهي تحدق بانبهار في النصل الملطخ بالدماء قائلة: «أعلم أن الأمر مؤلم يا تالي-وا، لقد شعرت بالإعياء أنا أيضًا عندما رأيت زينًا هكذا. لم أكن أدري أنه سيصبح منهارًا إلى هذا الحد، صدقيني». اقترب لوحها من تالي قليلًا، ووضعت يدها برفق على كف تالي المجروح قائلةً: «لكنني لن أسمح لهذا أن يضعفك يا تالي-وا، لا أريدك أن تتحولي إلى فتاة عاطفية إلى حد مفرط، لا تختلف عن العاديين، سنجعل زينًا واحدًا منا وننقذ المدينة أيضًا، سنعالج الأمر كله». أخرجت حقيبة الأدوات الطبية من أحد جيوب بذلة التخفي، وقالت: «مثلما سأعالجك الآن».

– «لكنه لن يتخلى عن الضبابيين».

– «ليس مضطرًا إلى ذلك.» قامت شاي برش الجرح، وسرعان ما تحول الألم إلى تنميل خفيف، وأردفت قائلة: «كل ما عليه فعله هو إثبات أن ذهنه متيقظ ونحن سنفعل الباقي، سنعيده هو وفاوستو ثم نقبض على نوفيد والباقين. هذه هي الطريقة الوحيدة التي نستطيع بها وضع حد لما يحدث، ومثلما قال زين فإن القبض على مجموعة من الحسان لن يفيد، وإنما علينا أن نقطع رأس الأفعى، وذلك بأن نعثر على الضباب الجديد».

أومأت تالي برأسها إيجابًا وذهنها لا يزال صافيًا وقالت: «أعرف، لكن زينًا معاق، وسيستشف الضبابيون أننا مكنّاه من الهرب. سيمزقون كل ما يحمله، وسيفحصون كل عظمة في جسده».

ابتسمت شاي وقالت: «طبعًا، لكنهم لن يجدوا شيئًا».

سألت تالي: «كيف سنتتبعه إذن؟».

انعطفت شاي بلوحها حتى صارت تواجه تالي، ومدت يدها لتمسك بيد تالي غير الملطخة بالدماء قائلةً: «بالطريقة القديمة». ارتفعا بلوحيهما وبدأت مراوح الرفع تعمل وهي تطن وأخذت شاي تشد تالي وترتفع بها حتى بدت المدينة منبسطة من حولهما، وبدت كأنها جزيرة هائلة من النور يحيطها بحر من الظلام.

أطرقت تالي رأسها وأخذت تتطلع إلى يدها، كان الألم قد تضاءل تدريجيًا حتى تحول إلى خفقان خافت ينبض بالتزامن مع دقات قلبها، وكان الدواء يساعد على تجلط دمها المراق، ويحوله إلى غبار أخذ يتطاير وهما ترتفعان بلوحيهما. كان

الجرح قد سبق وأن التأم دون أن يترك أي أثر سوى ندبة ممتدة عبر الوشوم المتحركة. تعطلت تالي الدوائر الكهربائية المغروسة في جلدها التي تجعلها تتحرك، وضربت على كفها مجموعة متشابكة من الخطوط المهتزة، فبدا أشبه بشاشة حاسب آلي توقف عن العمل.

غير أن أفكارها كانت لا تزال منظمة. حركت تالي أصابعها فسرى ألم طفيف في ذراعها.

أشارت شاي إلى أقرب حافة للمدينة وقالت: «أترين الظلام هناك يا تالي-وا؟ هذا المكان مناسب لنا، وليس للفطريين. إننا مبرمجون على العيش في البرية وسنتتبع زين-لا وأصحابه في طريقهم خطوة بخطوة».

– «لكنني ظننت أنك قلت ...»

– «ليس باستخدام الأجهزة الإلكترونية يا تالي-وا، وإنما سنستعين بحاستي السمع والبصر، وكل الطرق الأخرى القديمة التي يلجأ إليها سكان الغابات.» لمعت عيناها وهي تقول: «كما كان يفعل من عاشوا قبل سكان الأطلال القديمة».

تطلعت تالي نحو الضوء البرتقالي الساطع الصادر من المصانع، حيث الظلام الذي يدل على البرية، وقالت: «قبل عصر الأطلال القديمة؟ أتعنين البحث عن الأغصان الملتوية وما شابه؟ من يتنقلون بالألواح الطائرة لا يتركون خلفهم آثار أقدام يا شاي-لا».

«صحيح، ولهذا فلن يشكّوا أبدًا في أن أحدًا يتبعهم، لأن أحدًا لم يقم بهذا النوع من التتبع على مدار ثلاثمائة عام على الأقل.» لمعت عينا شاي وأضافت: «لكنني أنا وأنت نستطيع شم رائحة البشر الذين لم يستحموا من بعد كيلومتر، ورائحة نار المخيم الخامدة من بعد عشرة كيلومترات، ويمكننا أن نرى ونسمع في الظلام أفضل من الخفافيش». تحول لون بذلة التخفي التي ترتديها ليصبح كظلام الليل، وأردفت قائلة: «نستطيع أن نجعل أنفسنا غير مرئيين ونتحرك دون أي صوت. فكري في الأمر يا تالي-وا».

أومأت تالي برأسها ببطء. لن يتخيل الضبابيون أبدًا أن شخصًا ما يراقبهم من الظلام وينصت إلى كل دبة قدم، ويتشمم الهواء بحثًا عن رائحة نار المخيم ورائحة الطعام المطهو كيميائيًا.

قالت تالي: «وسيكون زين بخير طالما ظللنا على مقربة منه، حتى وإن ضل طريقه أو أصيب».

– «بالضبط، وبعد أن نجد الضباب الجديد، سيصبح بوسعكما أن تستأنفا علاقتكما.»

– «هل أنت واثقة أن دكتورة كابل ستجعله من المتميزين؟»

ابتعدت شاي عن تالي ضاحكةً ولوحها يهبط، وقالت: «بعد ما خططت له، الأرجح أنها ستوليه منصبي أنا».

نظرت تالي إلى يدها التي لا تزال مصابة بالتنميل، ثم مدتها لتلمس وجنة شاي وقالت: «أشكرك».

هزت شاي رأسها وقالت: «لا داعي للشكر يا تالي-وا، خصوصًا بعد الحال التي رأيتك عليها في غرفة زين، فلا أحب أن أراك بائسة هكذا، فهذا ليس من سمات المتميزين في شيء».

– «آسفة أيتها القائدة.»

ضحكت شاي وشدتها وراءها مرةً أخرى بعيدًا عن النهر واتجهتا نحو المنطقة الصناعية وانخفضتا إلى مستوى الطيران العادي، وقالت: «حسنًا فعلتِ، لم تتخلي عني الليلة الماضية يا تالي-وا، ولذا فإنكِ لن تتخلي عن زين أيضًا.»

– «وسنستعيد فاوستو أيضًا.»

استدارت شاي نحوها وهمت بالابتسام، قالت: «صحيح، فليس من المناسب أبدًا أن تنسى أمر فاوستو المسكين، وذلك المكسب الآخر البسيط ... نسيت، هلا ذكرتني؟»

أخذت تالي نفسًا عميقًا وقالت: «القضاء على الضباب الجديد».

– «أحسنت. هل من أسئلة أخرى؟»

– «نعم، سؤال واحد فقط: أين سنجد أداةً نستطيع أن نقطع بها السبائك التي تُصنع منها السفن المدارية؟»

دارت شاي دورة كاملة على لوحها وهي ترفع إصبعها إلى شفتيها.

همست قائلةً: «في مكان متميز جدًا يا تالي-وا، اتبعيني وستكتشفين كل شيء».

الفصل التاسع

ترسانة الأسلحة

قالت تالي: «لم تكوني تمزحين عندما قلت إن هذا خطر، أليس كذلك أيتها القائدة؟»

ضحكت شاي وقالت: «أتنسحبين بهذه السرعة يا تالي-وا؟»

همست تالي قائلة: «إطلاقًا» فمنذ أن جرحت نفسها وهي مفرطة النشاط، مفعمة بطاقة تبحث عن سبيل للاستفادة بها.

ابتسمت شاي لها وهي بين الحشائش الطويلة قائلة: «حسنًا». كانت الفتاتان قد أوقفتا عمل أجهزة التواصل المغروسة في جسديهما حتى لا تكشف تسجيلات المدينة أنهما كانتا هنا الليلة. فبدا صوت شاي معدنيًا بعيدًا وهي تقول: «ولكن سيحصل على أعلى درجات في حدة الذهن إن ظنوا أنه خطط لحيلة من هذا القبيل».

همست تالي وهي ترمق المبنى المبهر الماثل أمامهما: «لا شك في هذا».

حينما كانت تالي صغيرة، كان القبحاء الأكبر منها أحيانًا يتحدثون مازحين عن التسلل إلى ترسانة الأسلحة، لكن لم يبلغ الغباء بأحد حدًا يجعله يحاول التسلل فعلًا.

تذكرت تالي جميع الشائعات التي دارت حول الترسانة، إذ قيل إنها تضم كل الأسلحة المسجلة التي تملكها المدينة من مسدسات ومركبات مدرعة، وتكنولوجيا تجسس، ومعدات وتكنولوجيا قديمة، بل وأسلحة استراتيجية قادرة على إبادة مدن بأكملها. لم يُسمح قط بدخول هذا المكان إلا لقلة مختارة، وأغلب ما به من دفاعات تعمل أوتوماتيكيًا.

كان المبنى المظلم عديم النوافذ يحيط به حقل مكشوف تمامًا تحدد جوانبه أضواء حمراء متقطعة تدل على منطقة حظر الطيران. وكانت تحيط بالفناء أجهزة استشعار، وتحرس أركان الترسانة مدافع رشاشة، وكل هذه وسائل دفاع خطيرة زود بها المكان تحسبًا لاندلاع حرب غير متوقعة بين المدن.

لم يكن هذا المكان مصممًا لإبعاد المتطفلين بعد تحذيرهم، وإنما صُمم لقتلهم دون سابق إنذار.

قالت شاي: «هل أنت مستعدة للتسلية يا تالي-وا؟»

نظرت تالي لتعبيرات وجه شاي التي تعكس انفعالًا جارفًا، وشعرت بدقات قلبها تتسارع، فأرخت يدها المجروحة، وأجابت: «دائمًا مستعدة أيتها القائدة».

زحفتا عبر الحشائش عائدتين إلى لوحيهما الطائرين اللذين كانا ينتظرانهما خلف مصنع آلي عملاق. وبينما حلقتا باتجاه سطحه، أغلقت تالي الجزء الأمامي من بذلة التخفي التي ترتديها وشعرت بأنسجتها تستعد للتغيير. وتحول ذراعاها إلى اللون الأسود، وصار منظرهما مبهمًا، وتحايلت أنسجة البذلة للعمل على انحراف موجات الرادار عنها.

قطبت تالي جبينها وقالت: «سيعلمون أن من فعل هذا – أيًا كان – يملك بذلات تخفٍ، أليس كذلك؟»

– «لقد أخبرت دكتورة كابل من قبل أن الضبابيين يمرون بنا دون أن نراهم، ولذا فمن المحتمل أنهم أعاروا الأشقياء بعض بذلات التخفي». رمقتها شاي بابتسامة حادة ثم سحبت القلنسوة على رأسها فبدت ظلًا بلا رأس. وحذت تالي حذوها.

قالت شاي وهي ترخي قفازيها: «هل أنت مستعدة للانطلاق؟» وقد تغير صوتها بفعل القناع الذي ترتديه، وبدت والأفق خلفها كبقعة تتخذ شكل إنسان، وبدت هيئتها مموهة بفعل زوايا نسيج بذلتها غير المنتظمة.

ابتلعت تالي ريقها، فالقلنسوة التي تغطي فمها جعلتها تشعر بسخونة أنفاسها على وجهها وكأنها ستختنق. قالت: «أنا مستعدة حين تكونين مستعدة أيتها القائدة».

طقطقت شاي أصابعها وربضت تالي وهي تعد في سرها عشر ثوانٍ مرت عليها ببطء. بدأ اللوحان الطائران يصدران أزيزًا وهما يكتسبان شحنة مغناطيسية تدريجيًا، وبدأت ريشات مراوح الرفع تزيد من سرعة دورانها حتى وصلت إلى الحد الذي يسبق سرعة الإقلاع مباشرة ...

حين وصلت تالي إلى العدد عشرة، انطلق لوحها في الجو بغتة، فربضت بالقرب من سطح اللوح، وطوال رحلة الصعود كانت المراوح تصرخ بصوت مدوٍّ. وانعطف اللوح بتالي نحو الترسانة وكأنه من الألعاب النارية. بعد ثوانٍ معدودة، توقفت المراوح عن العمل ووجدت تالي نفسها تحلق في السماء المظلمة والصمت يغلفها وموجة الإثارة تجتاحها مرةً أخرى.

كانت تعرف أن الخطة جنونية، لكن الإحساس بالخطر أفعم ذهنها بالصفاء. سرعان ما سيتمكن زين من أن يشعر بهذا الإحساس أيضًا ...

في منتصف الطريق، أمسكت تالي باللوح وشدته نحو جسدها وهي تخفي سطحه خلف بذلتها المهيأة للعمل على انحراف موجات الرادار بعيدًا عنها. التفتت تالي خلفها فوجدت أنها تطير هي وشاي فوق منطقة حظر الطيران على ارتفاع يكفي لتفادي رصدهما بأجهزة استشعار الحركة المثبتة في الأرض. لم تنطلق أي أجهزة إنذار وهما تعبران حدود المكان وتهبطان في هدوء نحو سطح الترسانة.

ربما ستكون مهمتهما هذه سهلة. فلم ينشب نزاع خطير بين المدن منذ قرنين، ولم يخطر ببال أحد قط أن البشر سيخوضون الحرب مرة أخرى. إضافةً إلى هذا فإن الدفاعات الأوتوماتيكية المزودة بها الترسانة مصممة لصد هجوم كبير، وليس لصد شخصَين يقتحمان المبنى لاستعارة أداة صغيرة يمكن حملها يدويًا.

ابتسمت تالي مرة أخرى، فهذه أول مرة يجرؤ فيها الجارحون على خداع المدينة نفسها. شعرت وكأنها عادت إلى فترة القبح.

أخذ السطح يقترب بسرعة، وأمسكت بلوحها فوق رأسها وهي تتدلى منه وكأنه مظلة هبوط. قبل ثوانٍ من اصطدامها بالسطح، عادت مراوح الرفع إلى العمل، لتوقفها فجأة. هبطت تالي بسلاسة وكأنها تنزل من رصيف متحرك.

توقف اللوح عن العمل واستقر بين يديها، فوضعته برفق على السطح. ومن الآن فصاعدًا حرصتا على التزام الصمت، واقتصر التواصل بينهما على لغة الإشارة وقنوات التواصل المزودة بها بذلتي التخفي.

على بعد أمتار معدودة، وقفت شاي وهي ترفع إبهاميها.

وبخطوات حذرة هادئة، شقت الاثنتان طريقيهما نحو الأبواب الواقعة وسط السطح التي تدخل عبرها العربات الطائرة وتخرج. رأت تالي جزءًا غائرًا في المنتصف حيث تنفتح الأبواب.

لامست تالي أطراف أصابع شاي بأطراف أصابعها لينتقل كلامها الهامس عبر البذلتين: «هل يمكننا أن نخترق هذا؟»

هزت شاي رأسها نفيًا وردت: «المبنى بأكمله مشيد من السبائك المعدنية التي يصنعون منها السفن المدارية يا تالي، لو كنا سنستطيع اختراقه لتمكنا من تخليص زين بأنفسنا».

جالت تالي ببصرها في السطح فلم تر أية علامة تدل على وجود منفذ يمكنهما الدخول عبره. وقالت: «إذن، أظن أننا سنتبع خطتك».

أخرجت شاي سكينها وقالت: «انبطحي».

انبطحت تالي على أرض السطح وشعرت بنسيج بذلتها يتغير ليضاهي بنية الأرضية.

قذفت شاي السكين بقوة ثم انبطحت على الأرض هي الأخرى. طارت السكين في مسار قوسي وتخطت حافة المبنى ثم سقطت في الظلام وهي تدور باتجاه الحشائش التي تعج بأجهزة استشعار مبعثرة.

بعد ثوان انطلقت من جميع الاتجاهات أجراس إنذار تصم الآذان. ارتج السطح المعدني أسفلهما وانفتحت الأبواب بصرير أجش. تصاعدت من الفتحة زوبعة من الأتربة والغبار صعدت في وسطها مركبة هائلة الحجم.

كان حجم المركبة يزيد قليلًا عن حجم لوحَين طائرين مربوطين معًا، لكنها بدت ثقيلة؛ إذ كانت مراوح الرفع الأربعة المثبتة بها تئن تحت وطأة جهد رفعها في الجو. وحين ظهرت المركبة، بدا أنها تزداد حجمًا إذ بسطت أجنحتها وكلاباتها بحركات غريبة مرتجفة، وكأنها حشرة معدنية عملاقة تخرج للحياة، وكان بدنها المنتفخ يعج بالأسلحة والمجسات.

كانت تالي معتادة على الرجال الآليين؛ إذ كانت مدينة نيو بريتي تاون تعج بطائرات آلية تقوم بأعمال النظافة والعناية بالحدائق، بيد أنها كانت تبدو كلعب لطيفة. أما تلك المركبة، بحركاتها المضطربة وصفائحها المعدنية السوداء وريشات المراوح الصارخة، فتبدو وحشية خطرة قاسية.

ظلت المركبة تحوم للحظات مفعمة بالتوتر، وظنت تالي أنها رأتهما، لكن المراوح انعطفت انعطافة حادة وانطلقت المركبة في الاتجاه الذي رمت فيه شاي سكينها.

استدارت تالي في اللحظة المناسبة فرأت شاي تتدحرج عبر الأبواب التي عبرت منها العربة الطائرة والتي كانت لا تزال مفتوحة. تبعتها وهي تتسلل إلى داخل الظلام في الوقت الذي بدأت فيه الأبواب تنغلق فجأة بحركات متخفية ...

وجدت تالي نفسها تهوي في ممر رأسي مظلم. ولم يفدها جهاز الرؤية بالأشعة تحت الحمراء إلا بأنه حول الظلام إلى فوضى من الأشكال والألوان غير المفهومة تمر بجوارها.

حاولت أن تتشبث في الجدار المعدني الأملس بيديها وقدميها لتبطئ من حركتها، لكنها استمرت في الانزلاق إلى أن انحشر إصبع قدمها المغطى بالحذاء المانع للانزلاق في شق بالحائط، فتوقفت للحظات.

أخذت تالي تحرك يديها بحثًا عن موضع تتشبث به، لكنها لم تجد سوى السطح المعدني المصقول للجدار، فبدأت تميل إلى الخلف، وبدأ إصبع قدمها يفلت من الموضع المحشور فيه ...

لكن عرض الممر لم يكن يفوق طولها كثيرًا، فدفعت ذراعيها فوق رأسها وبسطت أصابعها وهي تضرب الجدار المقابل بيديها. وساعدها احتكاك قفازي التسلق بالجدار على التوقف في وضع مستقيم وعضلاتها مشدودة عن آخرها.

كان ظهرها مقوسًا وجسدها محشورًا في الممر الرأسي، فصارت تشبه ورقة من أوراق اللعب مثنية بين إصبعي لاعب. سرى في يدها المجروحة ألم بسيط من أثر الصدمة.

أدارت رأسها محاولةً أن ترى المكان الذي سقطت فيه شاي.

لم ترَ أسفلها سوى الظلام، وكانت رائحة الهواء الراكد والصدأ تفوح من الممر.

بذلت تالي أقصى ما تستطيع لكي تتمكن من الرؤية من زاوية أفضل. لا بد أن شاي في مكان قريب فمن المؤكد أن الممر لا يمتد إلى ما لا نهاية، وتالي لم تسمع صوت اصطدام أي جسم بالقاع. لكن من المستحيل أن تحكم على الأبعاد النسبية للمكان، إذ كانت تحيط بها فوضى من الأشكال المبهمة تظهر عبر جهاز الرؤية بالأشعة تحت الحمراء.

شعرت وكأن عمودها الفقري عظمة دجاج على وشك أن تنكسر ...

فجأة، شعرت بأطراف أصابع تلمس ظهرها.

وصلها همس شاي عبر قنوات التواصل المثبتة في بذلتيهما وهي تقول: «رويدك، إنك تحدثين ضوضاء».

أطلقت تالي تنهيدة ارتياح؛ إذ كانت شاي أسفلها مباشرةً في الظلام وتخفيها بذلة التخفي، همست تالي قائلةً: «آسفة».

ابتعدت يد شاي للحظة ثم عادت تلمسها وهي تقول: «حسنًا، أنا على أتم استعداد، دعي جسدك يسقط».

ترددت.

قالت شاي: «هيا أيتها الجبانة، سأمسك بك».

أخذت تالي نفسًا، وأغمضت عينيها بقوة ثم تركت نفسها تهوي. بعد لحظة من السقوط، تلقفتها ذراعا شاي.

أطلقت شاي ضحكةً مكتومةً وقالت: «يا لك من طفلة سمينة يا تالي-واه.

– «ما الذي تقفين عليه؟ لا أستطيع رؤية أي شيء هنا.»

– «إليك هذا.»

أرسلت شاي إليها حزمة بيانات عبر قنوات البذلتين، فتغير كل ما حول تالي، وأخذت ترددات الأشعة تحت الحمراء تعيد ضبط نفسها أمام عينيها. تدريجيًا، بدأت تتضح لها الأشكال المضيئة حولها.

كان الممر يعج بعربات طائرة رابضة في مناطق الانتظار محملةً بالأسلحة، كالمركبة التي شاهدتاها عندما كانتا بأعلى سطح الترسانة. وكان يوجد عشرات منها من كل الأشكال والأحجام، سرب من المركبات الفتاكة، فتخيلتها تالي وهي تنطلق فجأة وتبدأ العمل وتمزقها إربًا.

وضعت تالي قدمها بتردد على إحدى المركبات ثم نزلت من بين ذراعي شاي، ويداها ممسكتان بماسورة مدفع المركبة الرشاش.

مدت شاي يدها ولمست كتفها وهي تهمس: «ما رأيك في كل هذه الأسلحة؟ رائعة، أليس كذلك؟»

– «بلى، رائعة، لكن آمل ألا نتسبب في تشغيلها دون قصد.»

– «أجهزة الرؤية بالأشعة تحت الحمراء تعمل بأقصى طاقتها، ولا يزال يصعب علينا الرؤية، وهذا يعني أن كل ما حولنا بارد تمامًا، بل إن الصدأ يعلو بعض المركبات.» وفي ضوء الخلفية المشوبة بالفوضى، رأت تالي شاي وهي تدير رأسها إلى أعلى، لتضيف بعدها قائلةً: «لكن المركبة في الخارج نشطة جدًا، ويجب أن نتحرك قبل أن تعود.»

– «حسنًا أيتها القائدة، في أي اتجاه نذهب؟»

– «ليس إلى أسفل، فيجب أن نظل قريبتَين من لوحينا الطائرين.» دفعت شاي جسدها إلى أعلى وهي تتشبث بالأسلحة، ودعائم الهبوط، وريشات المراوح مثلما يمسك ممارسو رياضة التسلق بالصخور.

لم تواجه تالي صعوبة في الصعود، ولأنها صارت تستطيع الرؤية فقد ساعدتها الأجزاء البارزة من هيكل العربة الطائرة الخاملة على الصعود بسهولة، ولكن كان الإمساك بمواسير المدافع يصيبها بالتوتر قليلًا، فهذا يشبه دخول جسد حيوان

مفترس نائم عبر فمه المليء بأسنان حادة. وتحاشت تالي الكلابات المثبتة في المَركَبة وريشات المراوح، وكل الأشياء الأخرى التي بدت حادة؛ فإذا أصيبت بذلتها بأي تمزق، فسيؤدي ذلك إلى موت بعض الخلايا الجلدية مما سيفضح هويتها تمامًا وكأنها تركت بصمة واضحة.

وعند منتصف الطريق وهما تصعدان، مدت شاي يدها ولمست كتفها قائلةً: «يوجد منفذ».

سمعت تالي صوت حركة جسم معدني، ثم غمر الممرّ ضوء باهر، فرأت عربتين طائرتين، وعندئذٍ اكتشفت أنهما غير مخيفتين، إذ كان يغطيهما التراب وطالتهما يد الإهمال، فصارتا أشبه بالحيوانات المفترسة المحنطة في متحف تاريخ طبيعي قديم.

انسلت شاي عبر المنفذ وأسرعت تالي خلفها، فوجدت نفسها تهبط في دهليز ضيق. تأقلمت عيناها مع الأنوار البرتقالية المثبتة في السقف وتغير لون بذلتها حتى أصبح يضاهي لون الجدران الباهت.

كان الدهليز ضيقًا إلى حد يحول دون مرور البشر فيه؛ إذ لا يزيد عرضه عن المسافة بين كتفي تالي، وكانت الأرضية مغطاة بشفرات لخطوط متوازية تمثل علامات ملاحية لإرشاد المركبات. وأخذت تالي تتخيل الأجهزة البغيضة التي تجوب المكان بحثًا عن الفضلات.

أخذت شاي تنطلق في الدهليز وأشارت بإصبعها لتالي حتى تتبعها.

وسرعان ما أفضى بهما الدهليز إلى غرفة ضخمة، بل أضخم من ملعب كرة قدم، كانت الغرفة تعج بمركَبات تقف بلا حراك وارتفاعها شاهق كديناصورات ساكنة، وكان ارتفاع عجلاتها يضارع طول تالي، وكانت روافعها المنحنية تلامس السقف المرتفع. وعلى الضوء البرتقالي راحت الريشات العملاقة والكلابات المستخدمة لرفع الأشياء تلمع على نحو باهت.

أخذت تالي تفكر في سبب احتفاظ المدينة بمجموعة من معدات البناء الخاصة بسكان الأطلال القديمة. فهذه المعدات القديمة لن تفيد إلا عند البناء في مكان لا تغطيه الشبكة المغناطيسية الخاصة بالمدينة، ففي مثل هذا المكان لن تستطع الدعامات الطائرة والرافعات العمل. لقد كانت الكلابات والجرافات الموجودة حولها تعد معدات ضارة بالطبيعة وليست من المعدات التي تحافظ على المدينة.

كان المكان يخلو من الأبواب، لكن شاي أشارت إلى درجات معدنية مثبتة في الحائط، حيث ثمة سلم يصل بين طابق علوي وآخر سفلي.

وحينما صعدنا طابقًا وجدتا أنفسهما في غرفة صغيرة، بها أرفف تمتد من الأرض إلى السقف، وتتراكم عليها مجموعة متنوعة من المعدات، من بينها: أجهزة تنفس تحت الماء، ونظارات رؤية ليلية، وأسطوانات مكافحة الحرائق، ودروع تكسو الجسد كله ... إضافةً إلى كمية كبيرة من الأشياء التي لم تتعرف تالي عليها.

كانت شاي قد بدأت قبل ذلك في التنقيب بين الأدوات وأخذت تضع أشياءً منها خلسةً في جيوب بذلتها. واستدارت وقذفت شيئًا إلى تالي، كان يبدو أشبه بالأقنعة التي تُلبَس في عيد القديسين، إذ كان له عينان كبيرتان مستديرتان وأنف كخرطوم الفيل. ضيقت تالي عينيها حتى تتمكن من قراءة البطاقة الصغيرة المثبتة عليه، فوجدت عليها:

«نحو ق. ٢١»

أخذت تفكر في حيرة في معنى الكلمات للحظة، ثم تذكرت نظام التأريخ العتيق. يعود هذا القناع إلى القرن الحادي والعشرين تبعًا لتقويم سكان الأطلال القديمة، أي إلى ما يزيد عن ثلاثمائة عام مضت بقليل.

هذا الجزء من الترسانة ليس مخزنًا، بل هو متحف.

لكن ما هذا الشيء؟ قلبت تالي البطاقة فوجدت عليها:

«قناع مزود بمرشح يستخدم في الحروب البيولوجية، سبق استخدامه.»

الحروب البيولوجية؟ سبق استخدامه؟ أعادت تالي القناع إلى الرف بجوارها بسرعة. رأت شاي تراقبها وكتفا بذلتها يتحركان.

قالت لنفسها: «أمرٌ طريف حقًا، يا شاي-لا».

كانت الحروب البيولوجية من الأفكار الذكية التي ابتدعها سكان الأطلال القديمة؛ إذ كانوا يقومون بتخليق بكتيريا وفيروسات ليقتل بعضها بعضًا. ولكن تلك الحروب كانت تعتمد على أغبى سلاح يمكن للمرء تصنيعه لأنه فور أن تنتهي الآفة من تدمير أعدائك عادةً تستدير لتدمرك أنت. في الواقع إن حضارة سكان الأطلال القديمة كلها دُمرت بفعل نوع واحد من البكتيريا مخصص لالتهام النفط.

تمنت تالي ألا يكون القائمون على إدارة هذا المتحف — أيًا كانوا — قد تركوا في المكان أية آفات من النوع المدمر للحضارات.

توجهت نحو الجانب الآخر من الطابق وأمسكت بكتف شاي هامسةً بغضب: «رائع».

ردت شاي قائلةً: «نعم، ليتك رأيت وجهك، بل ليتني رأيت وجهك، بذلات التخفي هذه غبية».

سألتها تالي: «أوجدتِ شيئًا؟»

رفعت شاي أداةً لامعة تشبه الأنبوب في شكلها وقالت: «ستفي هذه بالغرض، تقول البطاقة إنها تعمل»، ووضعتها في أحد جيوب بذلة التخفي.

سألتها تالي: «إذن لماذا أحضرت كل تلك الأدوات الأخرى؟»

أجابتها: «لكي نضللهم؛ فإن سرقنا أداة واحدة، فربما يستشفون الغرض الذي نحتاجها من أجله».

همست تالي قائلةً: «آه». ربما تكون عبارات المزاح التي تتفوه بها شاي سخيفة لكن ذهنها لا يزال صافيًا.

قالت لها شاي: «إليك هذه»، ودفعت إليها بمجموعة صغيرة من الأدوات ثم عادت إلى البحث بين الرفوف.

أخذت تالي تتطلع إلى كومة المعدات، وأخذت تسأل نفسها إن كان أي منها ملوثًا ببكتيريا قد تقضي عليها هي، ووضعت في جيوب بذلة التخفي عددًا قليلًا من الأدوات يسمح به حجمها.

كان أكبرها يبدو مثل نوع ما من البنادق له ماسورة سميكة وعدسات بعيدة المدى. أنعمت تالي النظر في عدسة التسديد ورأت هيئة شاي مُصغرة وعلامة الصليب ترتسم في المكان الذي ستصيبه الرصاصات لو أنها ضغطت على الزناد. انتابها الاشمئزاز للحظة، فقد كان السلاح مصممًا بحيث يحول أي شخص عاديّ إلى آلة قتل، وبدا الموت والحياة أشبه برهان يخضع لزلة إصبع شخص من فئة الفطريين.

توترت أعصابها. كانت شاي قد وجدت ما تريدانه، وحان وقت الخروج من الترسانة.

ثم أدركت تالي ما الذي أثار أعصابها، لقد شمت رائحة ما عبر فلتر بذلة التخفي، رائحة مرتبطة بالبشر، فقطعت خطوة تجاه شاي ...

بدأت الأضواء فوقها تومض وميضًا متقطعًا، وبدأ الضوء الأبيض الناصع يحل محل لون الغرفة البرتقالي، وأخذ رنين وقع أقدام يأتي من جهة درجات السلم المعدني، يوجد من يصعد السلم متجهًا إلى المتحف.

جثمت شاي، ثم أسرعت بالاختباء داخل الرف الأدنى بجوارها وتمددت على كومة الآلات. وأخذت تالي تتلفت حولها في ذعر باحثةً عن مكان تختبئ فيه، ثم دفعت بنفسها في زاوية تقع بين رفين غير متلاصقين والبندقية مخبأة خلفها. تحركت أنسجة بذلة التخفي بغية التحول إلى لون يضاهي الأركان المظلمة.

في الجانب الآخر من الغرفة، كانت غابة من الخطوط المتعرجة تغمر بذلة شاي حتى تشوش على هيئتها، وعندما صار الضوء ثابتًا ومركزًا فوقهما، صارت غير مرئية تقريبًا.

نظرت تالي لنفسها، فما حدث مع شاي لم يحدث معها؛ فبذلات التخفي مصممة لإعانتهم على الاختباء في البيئات المعقدة، كالأدغال والغابات والمدن التي دمرتها المعارك، وليس في زوايا الغرف المضاءة بأنوار ساطعة.

ولكن فات أوان البحث عن مكان آخر.

إذ كان رجل ينزل على السلم.

الفصل العاشر

التحرر

لم يكن الرجل مخيفًا للغاية.

لقد بدا من الحسان العاديين كبار السن، فهو يشبه جدها الأكبر بشعره الأشيب ويديه المكسوتين بالتجاعيد. بدت على وجهه العلامات المعتادة التي تظهر نتيجة تناول العقاقير التي تطيل العمر، ومنها تجعد الجلد حول العينين واليدين اللتين كستهما الأوردة.

لكن تالي لم تر فيه الهدوء والحكمة اللذين كانت تراهما في كبار السن قبل أن تصبح من المتحولين، بل لم تر فيه سوى الهرم فحسب، ووجدت أنها تستطيع أن تجعله يفقد الوعي دون أن ينتابها شعور بالأسف إن اضطرت لفعل هذا.

لكن ما كان يثير توترها أكثر من الرجل الكهل هو الكاميرات الثلاثة الطائرة التي كانت تطير فوق رأسه. كانت هذه الكاميرات تحلق فوقه كالغمام وهو يمر بتالي متجها نحو واحد من الأرفف دون أن يراها. مد يده لينزل شيئًا من على الرف فغيرت الكاميرا اتجاهها وهي تطير واقتربت منه بسرعة وكأنها مشاهد واقع تحت تأثير ساحر يراقب كل حركة يقوم بها هذا الساحر دون أن يرفع عينيه من على يديه، أما الكهل فتجاهل الكاميرات وكأنه معتاد على مراقبتها الدائمة له.

قالت تالي لنفسها: «طبعًا»، فالكاميرات الطائرة عنصر من عناصر النظام الأمني في المبنى، لكنها لم تكن تبحث عن دخلاء، وإنما صممت لتراقب العاملين، وتتأكد أن أحدًا لن يهرب بواحد من الأسلحة القديمة المدمرة المخزنة هناك. طارت الكاميرات بهدوء فوق رأسه مراقبةً كل ما يقوم به هذا المؤرخ — أو أمين المتحف، أو أيًا ما كان — في الترسانة.

هدأت تالي قليلًا، فباحث كهل يخضع للمراقبة أقل خطرًا بكثير من فرقة المتميزين التي كانت تتوقع وصولها.

كان يتعامل مع المعروضات بعناية، مما أثار غثيانها قليلًا، فقد بدا وكأنه ينظر إليها باعتبارها قطعًا فنية ذات قيمة، وليست كآلات قتل.

وفجأة تجمد الرجل الكهل في مكانه، وقطب جبينه. لقد تحقق من البيانات المكتوبة في حاسوب صغير في يديه ينبعث منه الضوء ثم بدأ يفحص الأسلحة واحدًا بعد الآخر ...

كان قد لاحظ اختفاء شيء ما.

تساءلت تالي: هل الشيء المختفي هو البندقية التي توكز ظهرها؟ لكن هذا مستحيل، فقد أخذت شاي السلاح من الجانب الآخر من المتحف.

لكن عندئذٍ أمسك بقناع مزود بفلتر من نوعية الأقنعة التي تلبس في الحروب البيولوجية، فابتلعت تالي لعابها؛ لقد قد أعادته إلى غير مكانه.

جال ببصره ببطء في الغرفة.

لسبب ما لم ير تالي وهي محشورة في الزاوية، لا شك أن بذلة التخفي جعلت هيئتها جزءًا لا يتجزأ من الظلال المرسومة على الجدار حتى صارت لا تتميز عنه مثلما تختفي الحرباء على الشجرة.

حمل القناع إلى المكان الذي كانت شاي مختبئة فيه، وركبتاه لا تبتعدان عن وجهها إلا ببضع سنتيمترات قليلة. كانت تالي متأكدة أنه سيلاحظ غياب جميع الأسلحة التي استعارتها، لكن فور أن أعاد القناع إلى مكانه الصحيح أومأ برأسه إيجابيًا واستدار والرضا مرتسم على وجهه.

أطلقت تنهيدة ارتياح هادئة.

ثم رأت الكاميرا الطائرة تحدق فيها.

كانت لا تزال تطير فوق رأس الكهل مباشرةً، لكن عدساتها الصغيرة لم تعد تراقبه. إما أن خيال تالي كان جامحًا، أو أن الكاميرا كانت تتوجه إليها مباشرةً بالفعل مركزةً عليها بتأنٍ وإمعان.

عاد الكهل إلى المكان الذي انطلق منه، لكن الكاميرا ظلت في مكانها وقد فقدت اهتمامها به. اقتربت من تالي، وأخذت تجيء وتروح بسرعة، وكأنها طائر طنان يتأمل زهرة ما بتردد. لم يلاحظ الكهل حركة الكاميرا المتوترة لكن قلب تالي كان يدق بسرعة ورؤيتها تشوشت وهي تناضل حتى تمنع نفسها من التنفس.

واصلت الكاميرا اقترابها منها، ورأت تالي عبر عدستي الكاميرا دائمتي الحركة هيئةَ شاي تتغير. بدا من الواضح أن شاي أيضًا رأت الكاميرا الطائرة الصغيرة ولاحظت توترها، لقد أوشكت الأمور أن تتعقد تعقيدًا كبيرًا.

حدقت الكاميرا في تالي، وهي لا تزال في ريبة. سألت تالي نفسها: «هل هي ذكية بما يكفي لتعلم بأمر بذلات التخفي؟ أم أنها ستسجلها على أنها بقعة على عدستها فحسب؟».

يبدو أن شاي لم تكن لتنتظر حتى يتبين لها الأمر، فقد تغير المظهر التمويهي الذي اتخذته بذلتها وأصبحت بلون الأسود اللامع للدروع. وخرجت بصعوبة إلى الجزء المكشوف من الغرفة دون أن تصدر أي صوت، وأشارت إلى الكاميرا ثم مررت إصبعها على رقبتها.

فهمت تالي ما عليها فعله.

بحركة واحدة انتزعت البندقية من وراء ظهرها وضربت الكاميرا الطائرة ضربة قوية أصدرت صوتًا وأطاحت بها إلى الجانب الآخر من المتحف، فطارت أمام رأس الكهل المندهش، واندفعت بسرعة نحو الجدار، ثم سقطت على الأرض وقد تحطمت تمامًا.

في اللحظة نفسها دوى جرس الإنذار في الغرفة.

انطلقت شاي وهي تعدو نحو السلم، وخرجت تالي نفسها من الزاوية التي كانت فيها وتبعتها متجاهلة صيحات الذهول التي أطلقها الكهل، لكن بينما كانت شاي تقفز نحو السلم، التف غمد معدني حولها وارتطم بها، فارتدت إلى الوراء وتردد صدى صوت الارتطام حولها، وتناوبت بذلتها سلسلة من الألوان العشوائية تأثرًا بهذا.

جالت تالي ببصرها في أنحاء المتحف، فلم تر سبيلًا آخر للخروج.

وكانت إحدى الكاميراتين الطائرتين الباقيتين قد طارت على ارتفاع منخفض متوجهةً مباشرةً نحو وجه تالي فوجهت إليها ضربة أخرى بعقب البندقية محطمةً إياها، ثم صوبت تالي نحو الكاميرا الأخرى لكنها انطلقت مبتعدةً نحو زاوية من زوايا السقف وكأنها ذبابة متوترة تحاول الفكاك من ضربة ساحقة.

صاح الكهل: «ما الذي تفعلانه هنا؟»

تجاهلته شاي وأشارت للكاميرا الطائرة الباقية وأصدرت أمرها وقد تشوه صوتها بفعل قناع بذلة التخفي: «اقضي على هذه!»، ثم استدارت عائدةً نحو الأرفف مفتشةً فيها بأقصى سرعة ممكنة.

أمسكت تالي بأثقل ما عثرت عليه من أدوات — وهي أداة تشبه المطارق الآلية — وصوبتها ناحية الكاميرا. كانت الكاميرا تتحرك ذهابًا وإيابًا بسرعة وهي مذعورة تحرك عدستها في جهة ثم تنقلها إلى جهة أخرى في محاولة لمراقبتها هي وشاي في آن واحد. أخذت تالي نفسًا عميقًا وهي تراقب للحظات النمط الذي تسير عليه حركاتها وعقلها يجري حسابات سريعة ...

وعندما تركتها الكاميرا الطائرة مرة أخرى مركزةً على شاي، قذفت تالي المطرقة ناحيتها.

أصابت المطرقة وسط الكاميرا فسقطت على الأرض مطلقةً صوتًا يشبه صوت طائر يحتضر. ابتعد الكهل عن الكاميرا المصابة وكأنها هي أخطر ما في متحف الرعب هذا.

صاح قائلًا: «احترسي، ألا تعلمين أين أنت؟ هذا المكان قاتل!».

قالت تالي ناظرة إلى البندقية: «حقًّا!» وسألت نفسها: «هل رصاصها قوي بما يكفي ليخترق المعادن؟» صوبت نحو الغمد الذي كان قد غطى السلم واتخذت موضعًا ثابتًا لنفسها ثم ضغطت على الزناد ...

أصدرت البندقية صوت فرقعة.

قالت تالي لنفسها: «كم أنا غبية! لا أحد يترك البنادق محشوة في المتاحف».

واخذت تفكر في الوقت الذي سينقضي قبل أن ينفتح الغمد المحيط بالسلم ليكشف عن واحدة من الآلات الشريرة القادمة من الممر وهي في يقظة تامة وعلى أتم استعداد للقتال.

جثت شاي على ركبتيها في وسط المتحف ممسكة بزجاجة من الخزف، ثم وضعتها على الأرض وخطفت البندقية من تالي ورفعتها فوق رأسها.

صاح الكهل: «لا» في الوقت الذي نزلت فيه مؤخرة البندقية وارتطمت بالزجاجة مصدرةً صوتًا مكتومًا. رفعت شاي السلاح حتى تقوم بهذه الحركة مرة أخرى.

صاح بها الكهل: «أجننت؟ هل تعرفين ما هذا؟»

قالت شاي: «أعرف حق المعرفة». وسمعت تالي أثر الضحكة الهازئة على صوتها. كانت الزجاجة تصدر أصواتًا حادة، ومؤشر التحذير الضوئي الأحمر الخافت الموجود عليها يلمع متوهجًا.

استدار الكهل وبدأ يتسلق الأرفف الموجودة خلفه، وهو يزيح الأسلحة القديمة حتى يُفسح مكانًا ليديه.

التفتت تالي إلى شاي وتذكرت ألا تنطق باسمها بصوت مرتفع، وسألتها: «لماذا يتسلق هذا الرجل الأرفف؟»

لم ترد عليها شاي، لكن عندما بدأت البندقية تتحرك مرة أخرى، عرفت تالي الإجابة.

انكسرت الزجاجة وانساب منها سائلٌ فضي انتشر على الأرض، وتدفق السائل في عدة قنوات ممتدًا وكأنه عنكبوت ذو مائة قدم يتمطى بعد سبات طويل.

قفزت شاي مبتعدةً عن السائل المسكوب، ورجعت تالي عدة خطوات إلى الوراء عاجزةً عن أن ترفع عينيها عن المنظر المذهل.

نظر الكهل إلى أسفل وأطلق صيحة مفزعة، قال: «سكبت السائل؟ أجننت؟»

بدأ السائل يطلق صوتًا كالفحيح، وامتلأ المتحف برائحة البلاستيك المحروق.

تغير صوت الإنذار، وفي إحدى زوايا المتحف انفتح باب صغير فجأة بعنف وانطلقت منه طائرتان صغيرتان بلا ربابين. اندفعت شاي نحوهما وضربت واحدة منهما ضربةً عنيفةً بمؤخرة البندقية مما دفعها نحو الجدار. تحركت الطائرة الأخرى متجنبةً شاي، وأطلقت على السائل الفضي رذاذًا هو عبارة عن رغوة سوداء.

أطلقت شاي ضربة أخرى أوقفت انطلاق الرذاذ، ثم قفزت فوق العنكبوت الفضي الذي يزداد حجمًا على الأرض وقالت: «استعدي للقفز».

– «إلى أين؟»

– «إلى أسفل.»

نظرت تالي إلى الأرض مرةً أخرى ورأت أن السائل المسكوب يتسرب؛ إذ كان العنكبوت الفضي يشق طريقه على الأرضية المغطاة بالسيراميك فيذيبها.

ورغم ما يحيط تالي من برودة بفضل بذلة التخفي، فإنها شعرت بالحرارة الصادرة عن التفاعلات الكيميائية الشديدة، وصارت رائحة البلاستيك والسيراميك المحروقين خانقة.

رجعت تالي خطوة أخرى إلى الخلف وقالت: «ما هذا؟»

– «هذا هو التضور جوعًا في صورة جزيئات نانو، فهذا السائل يأكل كل ما يقابله تقريبًا ليزيد من حجمه.»

رجعت تالي خطوة أخرى إلى الخلف متسائلةً: «ما الذي يوقفه؟»

مسحت شاي قدميها في بقعة من الرغوة السوداء وقالت: «ماذا تظنينني، مؤرخة؟ من المنتظر أن تساعد هذه المادة الرغوية على هذا، فالأرجح أن من يدير هذا المكان وضع خطة طوارئ».

رفعت تالي بصرها نحو الكهل الذي كان قد وصل إلى أعلى الأرفف وقد اتسعت عيناه خوفًا، وتمنت ألا يكون تسلق الأرفف والاستسلام للذعر هو كل ما تنصّ عليه الخطة.

صدر صوت أنين من الأرضية تحتهما ثم انشقت وسقط قلب العنكبوت الفضي بعيدًا عن مجال الرؤية. حدقت تالي في الأرضية ذاهلةً للحظات وقد أدركت أن جزيئات النانو شقت طريقها عبر الأرضية بالتهامها في أقل من دقيقة. وظلت بعض الجزيئات المعترشة من الفضة في المكان وواصلت انتشارها في جميع الاتجاهات وهي لا تزال تشعر بالجوع.

صاحت شاي: «لننزل». مشت بحذر شديد نحو حافة الحفرة، ونظرت إلى أسفل ثم انطلقت عبرها.

قطعت تالي بخطوة إلى الأمام.

صاح الكهل: «انتظرا، لا تتركاني!»

[illegible] أن إحدى جزيئات الفضة المعترشة قد وصلت إلى الرف الذي يتعلق به، وكانت تنتشر في كومة الأسلحة والمعدات القديمة بسرعة انتشار النار في الهشيم.

تنهدت تالي وقفزت صاعدةً إلى الرف بجواره، ثم همست في أذنه: «سأنقذك لكن إن ضايقتني سأجعل منك طعامًا لهذه المادة!»

تشوه الصوت الذي كان يخفي هويتها محولاً هذه الكلمات إلى عواء مرعب، ولم يكن من الرجل إلا أن أخذ يئن. حركت أصابعه من على الرف ووزعت ثقله على كتفيها ثم قفزت إلى بقعة من أرض المتحف لم يمسسها السائل.

عندئذ كان الدخان قد ملأ المكان، فسعل الكهل بشدة. كان الجو حارًا وكأنهما في حمامات البخار، وكان العرق يتصبب من جسدها داخل بذلة التخفي التي ترتديها تالي. هذه أول مرة تعرق فيها منذ أن صارت من المتميزين.

وقع جزء آخر من أرض المتحف مصدرًا صوت تحطم، متسببًا في اتساع مجال رؤية الغرفة الواقعة في الأسفل. وغزت الجزيئات الفضية المعترشة القاعة الواسعة التي تعج بالمعدات، والتهمت نصف إحدى المركبات العملاقة.

عندئذ بدأت الترسانة ترد هجوم جزيئات النانو الجائعة بقوة، وامتلأ الهواء بمركبات طائرة صغيرة ترش الرغوة السوداء بحركات هستيرية. أخذت شاي تقفز من مركبة إلى أخرى وهي تضربها بالبندقية حتى تساعد الرغوة الفضية اللزجة على الانتشار.

كانت رحلة السقوط طويلة، لكن ليس أمام تالي أي خيار؛ إذ كانت الأرفف قد بدأت في الاعوجاج وجزيئات النانو تأكل قاعدتها.

أخذت تالي نفسًا عميقًا وقفزت، وكان الكهل على كتفيها يصرخ طوال الطريق إلى أسفل.

تأوهت بفعل ثقل الكهل وهي تهبط أعلى إحدى المركبات، ثم نزلت إلى بقعة من الأرض لم يمسسها السائل. كانت الفضة اللزجة الجائعة قريبة منها، لكنها نجحت في أن تدور بخفة إلى أن وقفت والحذاء المانع للانزلاق يصدر صريرًا حادًا كالفأر المذعور.

أوقفت شاي معركتها مع الطائرات التي ترش الرغوة للحظات، وأشارت إلى ما فوق رأس تالي قائلة: «احترسي!»

قبل أن تتمكن تالي من أن تنظر لأعلى سمعت صوت تحطم صادر من انهيار جديد. قفزت مبتعدة متجنبة جزيئات الفضة وبقع الرغوة السوداء التي تنمو بسرعة. كان الموقف يشبه لعبة الحجلة التي يمارسها الصغار، لكن عاقبة الخطأ فيه قاتلة.

عندما وصلت تالي إلى طرف الغرفة الآخر سمعت وراءها أجزاءً أخرى من السقف تتحطم. وانهمرت محتويات أرفف المتحف كالمطر على آلات البناء، وقد تحول اثنان منها إلى كتل مغلية من الفضة، وكانت طائرات الرش تحاول أن تغطيها بالسائل الأسود.

ألقت تالي الرجل الكهل على الأرض، ثم ألقت نظرة فاحصة على الجزء الذي تقف تحته مباشرةً من السقف فرأت أنهما ابتعدتا عن المتحف، لكن المادة الفضية ستظل تنتشر حتى عبر الجدران، ترى هل ستلتهم المبنى بأكمله؟

ربما كانت هذه هي خطة شاي. بدا أن الرغوة تؤتي ثمارها، لكن شاي ظلت تقفز من بقعة آمنة إلى أخرى وهي تضحك وتضرب طائرات الرش لتمنعها من احتواء انتشار المادة الفضية.

غيّر الإنذار من صوته مرة أخرى مما ينذر بضرورة إخلاء المكان.

وبدت هذه فكرة جيدة لتالي.

التفتت تالي نحو الكهل وقالت: «كيف نخرج من هنا؟»

سعل في قبضة يده، فقد كان الدخان يملأ هذه الغرفة العملاقة أيضًا، وقال: «القطارات».

تساءلت: «القطارات؟»

أشار إلى أسفل وقال: «قطارات مترو الأنفاق. تقع تحت الطابق الأرضي مباشرة. كيف دخلتما إلى هنا؟ ومن أنتما أساسًا؟»

أطلقت تالي صيحة استياء، وقالت لنفسها: «قطارات مترو الأنفاق؟» كان لوحاهما على السطح لكن الطريق الوحيد إلى أعلى يمر عبر ميناء العربات الطائرة المكتظ بمركَبات قاتلة ستكون متحفزة جدًا الآن ...

صارتا حبيستين.

فجأة دبت الحياة في إحدى المركَبات الضخمة.

بدت كآلة من آلات الزراعة القديمة، وشرعت ببطء في تدوير الأجزاء المعدنية الحادة الموجودة في مقدمتها، لتشبه أدوات درس الحبوب. بذلت جهدًا كبيرًا في محاولتها لتنعطف وتشق طريقها خارج المكان الضيق الذي كانت أبقي عليها فيه.

صاحت تالي: «أيتها القائدة، يجب أن نخرج من هنا!»

قبل أن تتمكن شاي من الرد عليها، ارتج المبنى كله ودوى فيه صوت مكتوم، إذ تحولت إحدى آلات البناء بأكملها إلى مادة فضية لزجة وبدأت تغوص في الأرض.

قالت تالي بصوت خفيض: «انظري إلى أسفل».

صاحت شاي: «لننطلق في هذا الاتجاه» وقد كان صوتها لا يكاد يكون مسموعًا بسبب الجلبة المحيطة.

استدارت تالي حتى تأخذ الكهل.

صاح: «لا تلمسيني، ستنقذني المركَبات إن ابتعدت عني!»

وقفت ثم رأت اثنتين من الطائرات الرشاشة الصغيرة تحومان فوق رأسه حماية له.

انطلقت تالي عبر الغرفة آملةً ألا تكون الأرض على وشك الانهيار. كانت شاي تنتظرها وهي تأرجح البندقية بيديها للأمام والخلف في سبيل حماية شبكة نامية من الجزيئات الفضية التي كانت تتشعب على الجدار. قالت: «نستطيع أن نمضي من هنا ثم ننطلق عبر الجدار التالي. لا مفر من الخروج آجلاً أو عاجلاً. أليس كذلك؟»

قالت تالي: «صحيح ... ما لم تحطمنا هذه الآلة».

كانت آلة الزراعة تواصل بذل محاولاتها للخروج من المكان الذي كانت منتظرة فيه، وبينما كانت تالي وشاي تشاهدانها، انطلقت الجرافة الواقفة بجوار الآلة مبتعدَة ببطء عن طريقها، فحررت الآلة الأكبر حجمًا نفسها وبدأت تمشي ببطء تجاههما.

عادت شاي تنظر إلى الجدار وقالت: «ضخمة بما يكفي تقريبًا!»

صارت الفجوة التي وقعت في الأرضية تتسع بسرعة، وحافتها الفضية تتوهج بفعل الحرارة، فأخرجت شاي شيئًا من أحد جيوب بذلة التخفي وقذفت به فيها.

– «انبطحي أرضًا!»

صاحت تالي وهي تقع على الأرض: «ما هذا؟»

– «قنبلة يدوية قديمة، آمل أن تكون لا تزال ...»

انبعثت من الفجوة ومضة نور وضوضاء كادت أن تصيبهما بالصمم.

– وأردفت شاي: «... تعمل، هيا بنا!» جرت شاي خطوات قليلة تجاه آلة الزراعة البطيئة، ثم انزلقت حتى توقفت عندها ثم استدارت مواجهةَ الحفرة.

– «لكنها ليست كبيرة بما يكفي ...»

تجاهلتها شاي متخذة سبيلها عبر الفجوة، ابتلعت تالي لعابها. لو وقعت نقطة واحدة من المادة الفضية على شاي ...

وهل من المفترض أن تتبعها؟

ذكرها صوت آلة الزراعة الخفيض بأنه لا خيار لها، إذ انطلقت الآلة في طريق خالٍ وأخذت سرعتها تزداد كل ثانية، وذلك بعد أن دارت حول المركبات التي تغوص في الأرض إثر إصابتها بالسائل. وكانت إحدى عجلات الآلة محاطة بالسائل الفضي اللزج، لكنها لن تفنى قبل مرور دقائق طويلة، أي بعد أن تكون قد حطمت تالي تمامًا.

تراجعت تالي خطوتين إلى الوراء، ووضعت إحدى راحتيها على الأخرى مثلما يفعل الغواص حين يهم بالغوص، ثم ألقت بنفسها عبر الحفرة.

حين وصلت إلى الجانب الآخر، أخذت تتدحرج إلى أن توقفت، ثم هبت واقفةً على قدميها. اهتزت الأرض وآلة الزراعة تصطدم بالجدار، وفجأة زاد حجم الحفرة المتوهجة خلف تالي كثيرًا.

وعبر الحفرة رأت تالي الآلة الضخمة ترجع إلى الخلف مسافة قصيرة استعدادًا لهجوم جديد.

قالت شاي: «هيا بنا، هذه الآلة ستصل إلى هنا بسرعة كبيرة».

قالت تالي: «لكنني ...» جاهدت حتى تلتف وتنظر إلى ظهرها وذراعيها وباطن قدميها.

قالت شاي: «اهدئي لا أثر للمادة الفضية اللزجة عليك، ولا عليّ». غمست شاي ماسورة البندقية في نقطة من المادة الفضية اللزجة ثم أمسكت بتالي وجرتها عبر الغرفة. كانت الأرض مغطاة بالأجزاء المحروقة التي تخلفت عن سائل المادة الرغوية المرشوش وطائرات الأمان بعد أن دمرتهما قنبلة شاي اليدوية.

عند الجدار المقابل قالت شاي: «لا يمكن أن يكون المبنى أكبر كثيرًا من هذا». دفعت شاي بالبندقية المستهلكة أمام الجدار، وعقبت: «أو أن هذا ما أتمناه على أية حال».

التصقت بالجدار قطرة من الفضة، وبدأت تكبر بالفعل ...

اهتزت الأرض مصدرةً صوتًا عميقًا جهوريًا مرة أخرى، ودارت تالي فرأت الطرف الأمامي لآلة درس الحبوب يبتعد عن الحفرة. عندئذ ازداد اتساع الفجوة كثيرًا وصار كافيًا ليمشيا خلاله. ولم يكن الجدار ليصمد طويلًا وهو يتعرض للمادة الجائعة اللزجة وللضرب في آن واحد.

صارت إصابة آلة الزراعة خطيرة. وأخذت الجزيئات المتوهجة المعترشة تسري في أجزائها المعدنية كما تسري النار في الهشيم. تساءلت: «هل يمكن أن يقضي على الآلة تمامًا قبل أن تتمكن من أن تشق طريقها؟» بيد أن اثنتين من الطائرات الرشاشة ظهرتا فجأة وبدأتا تغمرانها بالرغوة السوداء.

قالت تالي: «هذا المكان يصر على قتلنا، أليس كذلك؟»

قالت شاي: «هذا ظني، بالطبع تستطيعين تجربة الاستسلام إن أردت».

اهتزت الأرض وشاهدت تالي أجزاءً جديدةً من الجدار تتحطم وتسقط عليها. كادت الفجوة أن تصبح كبيرة بما يكفي لكي تسمح للآلة الضخمة بالمرور عبرها. سألتها: «ألديك قنابل يدوية أخرى؟»

– «نعم، لكنني أدخرها».

– «من أجل ماذا بربك؟»

– «من أجل هذه».

استدارت تالي نحو الشبكة الفضية الآخذة في الانتشار، فرأت سماء الليل منعكسةً في وسطها، ورأت أنوار كشافات لعربة طائرة في الخارج.

قالت بخفوت: «صرنا في عداد الموتى».

قالت شاي: «ليس بعد». ووضعت إحدى القنابل اليدوية في جزيئات النانو الفضية ورأتها تنتشر للحظات ثم انخفضت قليلًا وطوحتها عبر الفجوة ساحبةً تالي إلى أسفل.

كاد دوي الانفجار أن يصم آذانهما.

في الجهة المقابلة من الغرفة قامت آلة درس الحبوب بالهجوم الأخير، فانهار الجدار بأكمله مخلفًا حطامًا من الفضة المتوهجة. صارت الآلة تتقدم إلى الأمام ببطء، باذلةً جهدًا مضنيًا وهي تمشي على عجلات شبه متهالكة مغطاة برغوة سوداء وفضة لامعة.

عبر الفجوة الواقعة خلف تالي رأت خيال عربات طائرة عددها أكبر من أن تحصيه.

قالت تالي: «ستقتلنا إن خرجنا!»

صاحت شاي: «انبطحي أرضًا! فهذه المادة اللزجة من الممكن أن تصطدم بأي من مراوح الرفع في أية لحظة».

– «تصطدم بماذا؟!»

في تلك اللحظة صدر صوت مفزع من الخارج، يشبه صوت تروس الدراجات حين تُعشَّق على نحو خاطئ. سحبت شاي تالي إلى أسفل في الوقت نفسه الذي دوّى فيه انفجار آخر، وانهمر من الفجوة فيض من قطرات الفضة.

قالت تالي بخفوت: «آه». وانفجرت قنبلة شاي اليدوية بما عليها من جزيئات نانو في مراوح رفع إحدى العربات الطائرة المشئومة، فانطلق منها رذاذ مميت وهي تتآكل. عندئذ لم يكن من شك في أن كل آلة تنتظرهما في الخارج قد أُصيبَت.

– «استدعي لوحك الطائر!»

نقرت تالي بإصبعها على سوار الصدمات. كانت شاي تستعد للقفز منطلقةً بسرعة بين قطرات الفضة الآخذة في الانتشار التي تغطي الغرفة. قطعت ثلاث خطوات حذرة، ثم ألقت بنفسها عبر الفجوة.

رجعت تالي خطوة واحدة بعيدًا عن الفجوة، وكانت هذه هي كل المساحة المتاحة لها. كانت آلة درس الحبوب البطيئة قريبةً جدًا حتى إن تالي شعرت بالحرارة الناجمة عن تحللها.

أخذت تالي نفسًا وألقت بنفسها عبر الفجوة ...

الفصل الحادي عشر

الفرار

هوت تالي في الظلام.

أحاطها صمت الليل، وتركت نفسها للحظة تسقط دون مقاومة. ربما تكون قد لامست المادة الفضية الميتة وهي تمر عبر الفجوة، وربما هي على وشك أن تلفظها السماء، أو ربما ستسقط لتلقى حتفها.

ثم شعرت بمعصميها ينجذبان، وانطلق شبح لوحها الطائر المألوف خارجًا من قلب الظلام. دارت تالي في الجو هابطة عليه في وضع مثالي للركوب.

كانت شاي قد بدأت تسرع نحو أقرب طرف من أطراف المدينة. انعطفت تالي بلوحها حتى تتبعها، وشغلت مراوح الرفع؛ فتصاعد صوت النقر الخفيف الصادر من تحت قدميها تدريجيًا حتى صار مرتفعًا جدًا.

السماء من حولهما تعج بأشكال متوهجة كلها تتجه بعيدًا عن تالي، وكل عربة طائرة تحاول أن تحافظ على مسافة بينها وبين غيرها من المركَبات، إذ إنها لا تعرف أيّ العربات الطائرة لطختها المادة الفضية اللزجة وأي منها ظل نظيفًا. وكانت العربات الطائرة المصابة إصابة شديدة الوضوح تهبط في المنطقة المحظور فيها الطيران موقفةً مراوحها الدائرة قبل أن تصيب الأخريات.

ستحظى هي وشاي بميزة الانطلاق مبكرًا عدة دقائق في حين يقوم الأسطول بتنظيم نفسه.

توهمت تالي أن في ذراعيها ويديها سخونة بسيطة تزعجها، فنظرت إليهما لتتحقق مما إذا كانت القطرات الفضية تنمو عليهما. تساءلت: هل آلات الرش في الداخل تسيطر على جزيئات النانو أم أن الأرض ستبتلع المبنى بأكمله.

إن كانت المادة الفضية نموذجًا لما تعرضه الترسانة في المتحف، فما الأسلحة «الخطيرة» المخزنة في أعماق الأرض؟ طبعًا تدمير مبنى واحد ليس عملًا رهيبًا

بمقاييس سكان الأطلال الصدئة، فقد أبادوا مدنًا كاملة بقنبلة واحدة، وتسببوا في إصابة أجيال كثيرة بالأمراض بسبب النشاط الإشعاعي والسموم. مقارنةً بهذا فإن المادة الفضية تعد بالفعل أهلًا لأن توضع في المتحف.

خلفها كانت العربات الطائرة المخصصة لمكافحة الحرائق تفد من المدينة وتطلق سحبًا ضخمة من الرغوة السوداء في جميع أنحاء الترسانة.

ابتعدت تالي عن الفوضى وأسرعت بالانطلاق في أعقاب شاي في السماء المظلمة، وقد ارتاحت عندما تبينت عدم التصاق أية قطرات لامعة ببذلة التخفي حالكة السواد. صاحت: «لم يلحق بك أذى».

دارت شاي دورة سريعة حول تالي وقالت: «وكذلك أنت. أخبرتك أن المتميزين يولدون محظوظين!»

ابتلعت تالي ريقها والتفتت وراءها. كانت بضع عربات طائرة من التي نجت من المادة الفضية تنطلق بسرعة مبتعدة عن فوضى الترسانة وأخذت تطاردهما. ربما تكون هي وشاي غير مرئيتين وهما ترتديان بذلتيهما، لكن اللوحين الطائرين لا يزالان مرئيين. صاحت تالي في الفضاء: «لن أطلق على هذا حسن حظ بعد».

ردت شاي: «لا تقلقي يا تالي-وا، إن أرادوا العبث، فلا يزال معي المزيد من القنابل اليدوية». عندما وصلتا إلى طرف مدينة كرامبلي هبطت شاي حتى صارت على ارتفاع مماثل لارتفاع الأسطح لكي تستفيد بدرجة أكبر من الشبكة المعدنية للمدينة.

تبعتها تالي وهي تتنفس ببطء. كان ارتياح تالي لامتلاك شاي قنبلةً يدوية يكشف ما آلت إليه هذه الليلة.

صارت تسمع ضجيج العربات الطائرة يرتفع. صار من الجلي لها أن المادة اللزجة لم تتمكن من إصابتها جميعًا. قالت تالي: «إنها تقترب».

ردت شاي: «إنها أسرع منا، لكنها لن تعبث معنا فوق المدينة، فهي لا تريد أن تقتل أحدًا من المارة الأبرياء».

قالت تالي لنفسها: «لكننا لسنا من المارة» ثم سألت: «إذن كيف نهرب؟»

– «إن استطعنا العثور على نهر خارج المدينة سوف يصبح بوسعنا أن نقفز».

– «نقفز؟!»

– وبينما كانت شاي تعبث بواحدة من القنابل اليدوية قالت: «لن تستطيع المركبات أن ترانا نحن يا تالي، فهي لا ترى إلا لوحينا. وعندما نسقط في الهواء

ونحن مرتديتان بذلتي التخفي سنصبح غير مرئيتين تمامًا. فقط اعثري لي على نهر».

نقرت تالي بأصابعها فظهرت خريطة في نطاق رؤيتها.

قالت شاي: «كل هذه الأسلحة ستمزق لوحينا إربًا، لن يُترك لهم ما يكفي لـ ...» خبا صوت شاي، إذ فجأة اختفت العربات الطائرة بسرعة تاركةً سماء الليل خاوية.

استعرضت تالي العديد من البيانات التي تصدرها الأشعة تحت الحمراء لكنها لم تتمكن من رؤية أيّ شيء، فنادت: «شاي؟»

– «لا بد أنها أوقفت مراوح الرفع وصارت تسير بالمغناطيس، خفيةً تمامًا.»

– «لكن لماذا؟ فنحن نعلم بالفعل أنها تتبعنا.»

– «ربما لا تريد أن تفزع كبار السن، فهي تسبقنا وتحيط بنا منتظرةً أن نخرج من المدينة ثم تبدأ إطلاق النار.»

ابتلعت تالي ريقها. في الصمت العابر، كان الأدرينالين يخبو في جسدها، وأخيرًا أدركت حجم ما فعلتاه: فبسببهما صار الوطن في حالة استنفار ظنًا على الأرجح أن المدينة تتعرض لهجوم، وخبا للحظة بريق كونها من المتميزين. قالت: «شاي، أوَ لا أشكرك على محاولة مساعدة زين، حتى إن لم يسر هذا الأمر على ما يرام.»

قالت شاي بغضب: «اصمتي يا تالي-وا، فقط اعثري لي على ذاك النهر».

عدت تالي الثواني، لا تبعد عنهما حدود المدينة سوى بمسافة أقل من دقيقة.

تذكرت تالي تلك الليلة الأخرى وما اعتراها من إثارة وهي تطارد الضبابيين إلى حدود البرية، لكنها الآن صارت الفريسة، الأقل عددًا، والأضعف تسليحًا ...

نبهتها شاي قائلة: «يا إلهي! ها قد عدنا».

بينما هما تنطلقان خارج حدود المدينة المظلمة ظهرت أجسام مضيئة فجأة في كل مكان حولهما. في البداية سمعت تالي زئير مراوح الرفع وهي تبدأ في العمل، ثم بدأت تنطلق في السماء رماح قذائف تتوهج حرارةً.

صاحت شاي: «لا تيسري مهمتها!»

بدأت تالي تتمايل جيئةً وذهابًا، منطلقة بسرعة حول المسار قوسي الشكل الذي تتخذه القذائف المتوهجة التي يعج بها الهواء. وانطلقت أمامها مجموعة كبيرة من قذائف المدافع، ساخنةً كرياح الصحراء على وجنتها، ممزقةً الأشجار تحتها حتى

صارت كأعواد الثقاب. غيرت تالي اتجاهها وصعدت إلى أعلى متجنبةً بالكاد وابلًا آخر من النيران قادمًا من الاتجاه المعاكس.

ألقت شاي بقنبلة يدوية في الهواء في اتجاه رأسي، وبعد ثوانٍ انفجرت خلفهما فضربت إحدى موجات الارتجاج تالي متسببةً في ترنح لوحها، وسمعت أنين وصراخ مراوح رفع أصابها التواء؛ إذ أصابت شاي إحدى العربات الطائرة حتى دون أن تصوب نحوها!

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل بالطبع على كثرة عدد العربات الطائرة ...

انطلقت في طريق تالي شظايا قذائف المدفعية متخذةً مسارًا قوسي الشكل، فتسببت في ارتفاع حرارة الهواء، فانعطفت تالي حتى تتجنبها انعطافة بلغت حدتها درجةً جعلتها كادت تسقط من على لوحها.

في الأفق أمامها تلألأت خيوط نور القمر منعكسةً على سطح ما.

فصاحت تالي قائلةً: «النهر!»

ردت شاي بصوت مرتفع: «أراه، اضبطي لوحك بحيث يطير بموازاة الأرض فور أن تقفزي».

مالت تالي بلوحها مرة أخرى وأوشكت مجموعة جديدة من القذائف أن تصيبها. ضغطت على زر التحكم الموجود بسوار الصدمات الذي ترتديه لكي تضبط اللوح بحيث يطير بدونها.

صاحت شاي: «حاولي ألا تصدري صوتًا وأنت تنزلين إلى المياه، ثلاثة ... اثنان ...».

قفزت تالي.

وبينما كانت تسقط رأت النهر الذي يكاد يدثره الظلام يتلألأ أسفل منها وكأنه مرآة سوداء متعرجة تعكس الفوضى التي في السماء. وأخذت أنفاسًا عميقةً مدخرةً الأوكسجين في رئتيها، وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى حتى تشق صفحة المياه بمهارة دون إحداث صوت.

لطمتها صفحة النهر بقوة، ثم غطى هديره على صرخات نيران المدفعية ومراوح الرفع. غاصت تالي في أعماق الظلمات فغمرتها برودتها وهدوءها.

حركت تالي ذراعيها حركةً دائريةً حتى تحول دون أن تطفو على السطح بسرعة كبيرة، فتبقى تحت المياه أقصى مدة تتحملها رئتها. عندما طفت بعد مدة إلى السطح ألقت بنظرة فاحصة على السماء، لكنها لم تر في الأفق المظلم سوى ومضات على بعد كيلومترات. كان تيار النهر قويًا لا تعترضه عقبات.

لقد فرتا.

جاءتها صيحة عبر المياه تنادي باسمها: «تالي؟»

ردت تالي بصوت خفيض قائلةً: «أنا هنا»، وهي تضرب المياه بقدمها حتى تصبح مواجهة للبقعة التي انطلق منها الصوت.

وصلت شاي إليها بقليل من الضربات القوية، وقالت: «هل أنت بخير يا تالي-وا؟»

ردت تالي «نعم»، وفحصت عظامها وعضلاتها فحصًا داخليًا سريعًا ثم قالت: «لم أصب بأي كسور».

«أنا كذلك.» وبينما كانت شاي تبتسم ابتسامة منهكة، قالت: «لنتوجه إلى الشاطئ، أمامنا رحلة طويلة».

وبينما كانتا تسبحان ببطء نحو الشاطئ، راقبت تالي السماء بقلق، فقد نالت كفايتها ليلة كاملة من صد القوات المسلحة التابعة للمدينة.

قالت شاي وهما تجران جسديهما على ضفة النهر الموحلة: «هذه المغامرة مثيرة جدًا يا تالي-وا»، ثم أخرجت الأداة التي وجدتها في المتحف وأضافت: «في مثل هذا الوقت من مساء الغد سيكون زين في طريقه إلى البرية، وسنكون خلفه مباشرةً».

نظرت تالي إلى أداة قطع السبائك ولم تصدق أنهما كادتا أن تقتلا من أجل أداة أصغر في حجمها من الإصبع، ثم قالت: «لكن بعد كل ما فعلناه هناك هل سيصدق أحد أن من فعل هذا هم مجموعة من الأشقياء؟»

ردت شاي قائلةً: «ربما لا»، وهزت كتفيها ثم ضحكت مضيفةً: «لكن بحلول الوقت الذي ينجحون فيه في إيقاف المادة الفضية لن يكون قد بقي لهم الكثير من الأدلة، وسواء أظنوا أن من فعل هذا هم الأشقياء أم الضبابيون أم مجموعة من الفدائيين من صفوة مدينة أخرى، فإنهم سيعرفون أن زين-لا له بعض الأصدقاء المشاغبين».

قطبت تالي جبينها، فقد كان كل ما يرميان إليه هو أن يجعلا زينًا يبدو سليم الذهن، لا أن يورطاه في هجوم كبير.

طبعًا مع تعرض المدينة لمثل هذا التهديد فإن دكتورة كابل ستفكر على الأرجح في تجنيد حفنة من المتميزين بأسرع ما يمكن، وسيكون من المنطقي أن ترى في زين مرشحًا مناسبًا.

ابتسمت تالي، وقالت: «طبعًا لديه بعض الأصدقاء المشاغبين يا شاي-لا: أنت وأنا».

ضحكت شاي عندما شرعا في دخول الغابة وبدأتا التخفي تتحولان حتى تجعلهما شبيهتين بالأشكال الظاهرة بفعل انعكاس ضوء القمر والمتدرجة بين الإنارة والظلمة.

- «أوافقك الرأي يا تالي-وا. ذلك الفتى لا يدري كم هو محظوظ.»

الجزء الثاني

اقتفاء أثر زين

«تحت سمائنا هذه يمكننا أن نرى الجمال جمالًا لأنّ القبح موجود، ونرى الخير خيرًا لأن الشرّ موجود.»

الحكيم الصيني لاو تزو،
من كتاب تاو تي تشينغ

الفصل الثاني عشر

التحرر

في الليلة التالية وجدتا زينًا ومجموعة صغيرة من الأشقياء ينتظرونهما مجتمعين تحت ظل السد الذي يهدئ تيار النهر قبل أن يطوق مدينة نيو برتي تاون. توقدت حواس تالي بفعل صوت المياه المنهمرة وروائح الأشقياء التي تشي بخوفهم، فأخذت الوشوم المتحركة المرسومة على ذراعيها تدور مثل لعبة دولاب الهواء.

لو أنها كانت لتؤدي مغامرات ليلة أمس بجسدها العادي القديم لقضى عليها الإرهاق. فقد قطعت هي وشاي الطريق إلى وسط المدينة كله مشيًا قبل أن تتصل بناكس كي يحضر أوراقًا جديدة؛ وهي رحلة طويلة مرهقة كفيلة بإنهاك أي إنسان عادي حتى يصبح طريح الفراش أيامًا. لكن حصولها على قسط قليل من النوم — بضع ساعات فقط — ساعد جسدها على التعافي تقريبًا، وأصبحت البطولات التي قاما بها في الترسانة أشبه بمزحة بسيطة زادت عن الحد قليلًا ...

كان صوت الإنذار المرتفع الذي أطلقته المدينة يدوي في شبكة التواصل المغروسة في جسدها، والحراس والمتميزون النظاميون مجتمعين في حشود ضخمة، والمواد الإخبارية تتساءل صراحةً عن دخول المدينة في حالة حرب. وكان نصف سكان مدينة كرامبلي فيل قد رأوا الجحيم المستعر في الأفق، وكان من الصعب تبرير وجود كومة الرغوة السوداء الضخمة في المكان الذي كانت الترسانة قائمة فيه. ورأى الناس حشودًا من العربات الطائرة الحربية فوق وسط المدينة تحمي حكومتها من أية هجمات أخرى، وأُلغيت عروض الألعاب النارية الليلية حتى إشعار آخر، فظل الأفق مظلمًا على غير المعتاد.

بل إن السلطات استدعت الجارحين وطلبت منهم البحث عن أية صلة بين الضبابيين وتدمير الترسانة، وهو ما أضحك شاي وتالي كثيرًا.

دب النشاط في تالي بفعل الهرج الذي صاحب حالة الطوارئ، وقد وجدت الأمر كله رائعًا مثلما كان يحدث في الماضي عندما يُلغى اليوم الدراسي بسبب هبوب عاصفة ثلجية عنيفة أو اندلاع حريق. وبالرغم من آلام عضلاتها، شعرت أنها على استعداد لتتبع زين إلى البرية طيلة أسابيع أو أشهر مهما كانت المدة.

لكن عندما هبط لوحها الطائر حرصت على ألا تتطلع إلى عينيه الذابلتين، إذ لم تشأ أن يفقدها سقمه هذا الإحساس الرائع، ولم تشأ أن تؤثر عليها حالته وتردها إلى ما عليه العاديون، لذا أشاحت بعينيها نحو بقية الأشقياء.

بلغ إجمالي عددهم ثمانية، وكان بينهم بريس وقد اتسعت عيناه الواسعتان وهو يتطلع بإمعان إلى وجهها الجديد. وكان يمسك بعنقود من البالونات، فبدا وكأنه من المكلفين بالترفيه عن الضيوف في حفل عيد ميلاد أحد الصغار.

قالت تالي في ضيق: «لا تقل لي إنكم راحلون».

بادلها نظرة بنظرة دون أن يطرف له جفن وقال: «أعرف أنني خذلتك يا تالي، لكني أشعر بأنني متيقظ وذهني أكثر صفاءً الآن».

نظرت تالي إلى عيني بريس المكتئبتين وإلى التعبير الواهن الذي يحاول أن يبدو من خلاله بمظهر المتحد، ودار بخلدها أن موقفه الجديد ربما يكون نتيجة لتناول قرص من الأقراص التي صنعتها ماشي. سألته: «لماذا تمسك بكل تلك البالونات؟ أتحسبًا للوقوع من اللوح الطائر؟»

أجاب مبتسمًا ابتسامة مصطنعة: «ستعرفين».

قالت شاي: «أرجو أن تكونوا مستعدين لقطع رحلة طويلة يا مشوشي العقل، فقد ينتظر الضبابيون بعض الوقت قبل أن يصطحبوكم. آمل أن تكون تلك الأمتعة تحتوي على الأغراض اللازمة للبقاء على قيد الحياة وليس على الشمبانيا».

رد عليها زين: «نحن مستعدون، معنا أجهزة تنقية المياه، ووجبات ذاتية التسخين تكفينا ستين يومًا، وكمية وفيرة من الاسباجتي بولونيز».

أجفلت تالي حين سمعت الكلمة الأخيرة، فمنذ أول رحلة لها في البرية، وكان مجرد التفكير في الاسباجتي بولونيز يثير غثيانها. من حسن الحظ أن المتميزين يقومون بجمع طعامهم بأنفسهم من البرية؛ فبعد تعديل معداتهم صارت تستطيع استخراج المواد المغذية من أي شيء مزروع تقريبًا. وعلى الرغم من أن فئة قليلة من الجارحين قررت الاشتغال بالصيد، لكن تالي تمسكت بتناول النباتات البرية، فقد نالت كفايتها من تناول الحيوانات الميتة عندما كانت تقيم في منطقة الضباب.

بدأ الأشقياء ارتداء حقائب الظهر الخاصة بهم وهم يرسمون تعبيرًا رزينًا على وجوههم بغية الظهور بمظهر تغلب عليه الجدية. كل ما ترجوه هو ألا يتخاذلوا وسط البرية ويتركوا زينًا بمفرده، فهو يبدو من الآن متوعك الصحة قليلًا، قبل أن يفارق لوحه الطائر الأرض.

كان بعض الأشقياء الآخرين يحدقون فيها وفي شاي، فهم على الأرجح لم يروا أحدًا من المتميزين من قبل، ولا الجارحين الذين تغطي وجوههم الندوب والوشوم المعقدة، بيد أنهم لم يبدُ عليهم الفزع — مثلما يحدث مع مشوشي العقل العاديين — فكل ما بدا عليهم هو الفضول.

بالطبع جزيئات النانو التي صنعتها مادي ظلت متداولة منذ مدة قصيرة، ولا بد أن الأشقياء على استعداد لتجربة أي شيء من الممكن أن يعيد لهم توقد الذهن والتيقظ.

كيف السبيل لحكم مدينة كل من فيها من الأشقياء؟ فبدلًا من أن يلتزم معظم الناس بالقواعد، فإنهم دائمًا ما يسرقون وينفذون الحيل: ألن يؤدي ذلك في نهاية المطاف إلى ارتكاب أشقياء حقيقيين لجرائم حقيقية، كالعنف العشوائي، بل جرائم القتل، مثلما كان يحدث في الماضي في عهد سكان الأطلال القديمة؟

قالت شاي: «حسنًا، استعدوا للانطلاق»، واستخرجت أداة قطع السلاسل.

خلع الأشقياء من أصابعهم خواتم الاتصال المرتبطة بشبكة التواصل، ثم أخذ بيريس يناول كلًّا منهم بالونة فأخذوا يربطون الخواتم في الخيوط المتدلية منها.

قالت تالي: «فكرة ذكية». وابتسم لها بيريس ابتسامة تنم عن الرضا. عندما تنطلق البالونات والخواتم مربوطة بها، فسيبدو الأمر لشبكة المدينة وكأن الأشقياء يقومون معًا برحلة بطيئة على متن الألواح الطائرة تسيرها الرياح على طريقة مشوشي العقل العاديين.

قطعت شاي خطوةً نحو زين لكنه رفع يده وقال: «لا، أريد أن تحررني تالي».

أطلقت شاي ضحكة قصيرة عالية، وألقت الأداة إلى تالي قائلةً: «فتاك يريدك».

أخذت تالي نفسًا عميقًا وهي تقطع المسافة التي تفصلها عن زين، وقد عاهدت نفسها على ألا تدعه يشوش ذهنها. لكن عندما مدت يدها لتمسك بالقلادة المعدنية، مست أصابعُها جلدَ رقبته، وسرت في جسدها قشعريرة. لم ترفع عينيها عن القلادة، لكن وقوفها على مسافة قريبة منه هكذا وأطراف أصابعها على بعد سنتيمترات من جلده جعلها تستدعي ذكريات قديمة أصابتها بالدوار.

ولكنها عندئذٍ لاحظت ارتجاف يدي زين، فانتابها الغثيان مرة أخرى. لن ينتهي الصراع الدائر في ذهنها إلا بعد أن يصبح من المتميزين، ويصير جسده فائقًا كجسدها.

قالت: «لا تتحرك، فهي ساخنة».

ضيقت تالي عينيها عندما بدأت الأداة العمل، فبدت كقوس قزح يقتصر على اللونين الأزرق والأبيض، يطقطق وسط الظلمة. ولفحت الحرارة وجهها وكأنها فتحت فرنًا، وعبقت الهواء رائحة تشبه رائحة البلاستيك المحترق.

كانت يداها ترتعشان.

قال: «لا تقلقي يا تالي، أنا أثق بك».

ابتلعت تالي ريقها، ولم ترفع عينيها إليه، إذ لم تود أن ترى لون عينيه الذابل أو ترى أفكاره المرسومة على وجهه. كل ما كانت تريده هو أن ينطلق في البرية حتى يعثر عليه الضبابيون ثم تعيد المدينة إلقاء القبض عليه مرةً أخرى وتدخل عليه تعديلات في آخر الأمر.

عندما لامس القوس المتألق معدن القلادة، سمعت تالي أزيزًا تحذيريًا ينطلق بداخلها. هذا إجراء نمطي متبع في المدينة، فالقلادة مصممة بحيث ترسل إشارة إذا لحق بها ضرر، والأرجح أن أي فرد من الحراس في الجوار سمع الأزيز هو أيضًا.

قالت شاي: «هيا أطلقوا تلك البالونات، سرعان ما سيحضرون للبحث».

اخترق القوس المليمترات القليلة المتبقية من القلادة، فرفعتها تالي من حول رقبته بكلتا يديها، وهي تحرص على إبعاد الأطراف الساخنة عن جلده.

كانت ذراعاها تطوقانه تقريبًا، وعندئذ أمسك بمعصميها قائلًا: «حاولي أن تغيري رأيك يا تالي».

فابتعدت عنه، وشعرت أن قبضته واهنة كخيوط العنكبوت، وقالت: «أنا راضية بما أنا عليه».

راحت أطراف أصابعه تنزلق ببطء على ذراعها وتلمس الندوب الباقية من أثر الجروح وقال: «إذن لم تفعلين هذا؟»

نظرت إلى يديه وهي لا تزال خائفة من أن تنظر إلى عينيه وقالت: «هذا يساعدنا على الاحتفاظ بالصفاء الذهني، نصبح في حالة تشبه التيقظ وتوقد الذهن، لكنها أفضل كثيرًا».

فسألها: «ما الشعور الذي تفتقدينه فتضطرين إلى فعل هذا؟»

قطبت جبينها وقد عجزت عن الرد؛ إذ إنه يعجز عن فهم فكرة إحداث الجروح لأنه لم يفعل ذلك قط، والأهم من ذلك أن شبكة التواصل كانت تنقل كل كلمة إلى شاي ...

قال: «تستطيعين إعادة برمجة عقلك يا تالي، فطالما أنهم سمحوا لك بالانضمام إلى المتميزين فذلك معناه أنك تستطيعين التغير».

نظرت إلى أداة إحداث الجروح التي لا تزال شديدة السخونة، فتذكرت كل ما واجهته حتى حصلت عليها وقالت: «لقد قطعت شوطًا أكبر مما تظن».

– «رائع، إذن تستطيعين اختيار المعسكر الذي تقاتلين في صفوفه يا تالي».

رفعت تالي عينيها لتتطلع إلى عينيه أخيرًا، وقالت: «الأمر لا يتعلق بالمعسكر الذي أقاتل في صفوفه يا زين، فأنا لا أفعل هذا إلا من أجلنا نحن الاثنين».

ابتسم وقال: «وأنا أيضًا، لا تنسي هذا يا تالي».

فقالت تالي: «ما الذي ...؟» وأطرقت وهي تهز رأسها قائلةً: «عليك أن تبدأ الانطلاق يا زين، فلن تكون في حالة تيقظ إن أمسك بك الحراس هنا قبل أن تقطع خطوة واحدة».

همست شاي قائلةً: «وبمناسبة الحديث عن الوقوع في الأسر»، ناولت زينًا أداة التتبع وتابعت حديثها قائلة: «عندما تجد الضباب قم بتحريك هذا حركة دائرية وسنهرع إليك، لن يصاب بعطل إن ألقيت به في النار، أليس كذلك يا تالي-وا؟»

نظر زين إلى أداة التتبع ثم وضعها في جيبه، وجميعهم يعرفون أنه لن يستخدمها.

تشجعت تالي ونظرت مرةً أخرى في عيني زين، قد لا يكون من المتميزين، لكن التعبير الحاد المرتسم على وجهه لا يبدو مثل تعبيرات مشوشي العقل أيضًا.

قال بخفوت: «حاولي أن تتغيري يا تالي».

– «هيا انطلق!» استدارت وابتعدت عنه بضع خطوات، ثم خطفت البالونات القليلة المتبقية مع بيريس ولفت خيوطها حول القلادة التي لا تزال شديدة السخونة. عندما أفلتت تالي البالونات من يدها، أخذت ترتفع بصعوبة في البداية بفعل ثقل القلادة إلى أن هبت رياح فرفعتها.

وحين التفتت إلى زين، كان لوحه يرتفع وهو يمد ذراعيه بترنح وكأنه فتى صغير يمشي على عارضة التوازن التي يسير عليها لاعبو الجمباز. وكان يطير عن يمينه وعن يساره اثنان من الأشقياء، وكلاهما على استعداد لمد يد العون له.

تنهدت شاي وقالت: «ستكون مهمتنا سهلة إلى حد الملل».

لم ترد عليها تالي، وظلت تتطلع إلى زين إلى أن ابتلعه الظلام.

قالت شاي: «الأفضل أن نمضي». أومأت لها تالي، فعندما يأتي الحراس بحثًا عنه، ربما يندهشون لوجود اثنين من المتميزين في آخر موقع عُرف أن زينًا موجود فيه.

قامت تالي بتفعيل بذلة التخفي فتحرك نسيجها، ثم ارتدت تالي قفازيها وسحبت القلنسوة فوق وجهها.

في غضون ثواني كانت تالي وشاي قد صارتا متشحتين بالسواد تمامًا كسماء منتصف الليل التي تظللهما.

قالت تالي: «هيا بنا أيتها القائدة، لننطلق في رحلة البحث عن الضباب الجديد».

الفصل الثالث عشر

البرية

مضت عملية هروب زين بسهولة أكبر مما توقعت تالي.

لا شك أن باقي الأشقياء وحلفاءهم من الحسان كانوا على علم بخطة الهرب؛ إذ إن المئات منهم ربطوا خواتم الاتصال ببالونات وأطلقوها في الوقت نفسه، فازدحم الجو بإشارات مضللة. وحذا حذوهم نحو مائة من القبحاء. وعجت قناة الاتصال التي يستخدمها الحراس بكلام مختلط غير واضح يشي بالانزعاج، وهم يقطعون المكان ويجمعون الخواتم ويحاولون وضع حد لعشرات الحيل المازحة. ولم تكن السلطات مستعدة لتحمل أية مزحة بعد هجوم ليلة أمس.

وفي آخر الأمر أوقفت شاي وتالي قناة الاتصال فسكت كلام الحراس.

قالت شاي: «تسير الأمور على ما يرام إلى الآن. يصلح صاحبك أن يكون جارحًا جيدًا».

ابتسمت تالي وهي تشعر بالارتياح لأنها لم تعد ترى زينًا وهو يقف مرتجفًا مترنحًا. والآن بدأت المطاردة المثيرة.

أخذا يتتبعان مجموعة الأشقياء الصغيرة من على بعد كيلومتر، وكانت هيئات الثمانية شديدة الوضوح بفضل الأشعة تحت الحمراء حتى إن تالي تمكنت من تمييز هيئة زين المتوهجة من بين الآخرين. لاحظت أن واحدًا منهم على الأقل دائمًا يطير بالقرب منه ليمد له يد العون.

لم ينطلق الهاربون فوق النهر نحو الأطلال القديمة، وإنما انطلقوا على مهل نحو طرف المدينة الجنوبي. وعندما بدءوا يبتعدون عن الأماكن التي تغطيها الشبكة المغناطيسية، هبطوا إلى الغابة وقطعوا الطريق سيرًا على الأقدام حاملين ألواحهم الطائرة نحو النهر نفسه الذي قفزت فيه شاي وتالي ليلة أمس.

قالت شاي: «هذا الفعل ينم على مدى تيقظهم، أقصد عدم لجوئهم إلى الأسلوب المعتاد للخروج من المأزق».

قالت تالي: «لا بد أن الأمر سيكون صعبًا على زين. فالألواح الطائرة كانت ثقيلة وهي تطير دون وجود الشبكة».

– «إن لم تكُفّي عن القلق عليه طوال هذه الرحلة يا تالي-وا، فستصبح مملة إلى حد لا يطاق».

– «آسفة أيتها القائدة.»

– «اهدئي يا تالي، سنحرص على ألا يصاب صاحبك بمكروه.» هبطت شاي بين قمم أشجار الصنوبر وبقيت تالي في الأعلى دقيقة أخرى، وراحت تشاهد المجموعة الصغيرة وهي تتقدم ببطء. أمامهم ساعة قبل أن يصلوا إلى النهر ويتمكنوا من استخدام ألواحهم مرة أخرى، لكنها لم تكن ترغب في أن يبعد الهاربون عن نظرها وهم هنا في البرية.

جاءها صوت شاي من الأسفل، وكان قريبًا بفضل شبكة التواصل المغروسة في جسديهما: «لا يزال الوقت مبكرًا على إرهاق مراوح لوحك الطائر، فنحن في بداية الرحلة، ألا ترين هذا؟»

تنهدت تالي بهدوء وخفضت من ارتفاع لوحها الطائر.

بعد ساعة، كانتا جالستين على ضفة النهر في انتظار الأشقياء.

قالت شاي وهي ترمي حجرًا آخر: «إحدى عشرة». أخذ الحجر يدور بشدة وقفز على صفحة المياه وهي تعد بصوت مرتفع إلى أن غاص بعد القفزة الحادية عشرة.

صاحت شاي: «هاه! فزت مرة أخرى».

– «على من؟ لا أحد غيرك يلعب، يا شاي-لا.»

– «أنا ألعب ضد الطبيعة. اثنتا عشرة.» قذفت حجرًا آخر، فأخذ يثب إلى منتصف النهر ثم غاص إلى القاع بعد اثنتي عشرة قفزة بالضبط. قالت شاي: «لقد أحرزت النصر! هيا جربي».

ردت عليها تالي: «لا شكرًا أيتها القائدة. ألا يجب أن نطمئن عليهم مرة أخرى؟»

فقالت شاي في ضجر: «سيصلون إلى هنا عما قريب يا تالي، فآخر مرة ذهبت فيها للاطمئنان، كادوا يصلون إلى النهر، ولم يمر على هذا سوى خمس دقائق».

سألتها: «إذن لماذا لم يصلوا إلى هنا حتى الآن؟»

ردت عليها قائلةً: «لأنهم يأخذون قسطًا من الراحة يا تالي، فهم متعبون بعد أن حملوا ألواحهم الرديئة وهم يقطعون الغابة» ثم ابتسمت وأضافت: «أو ربما يعدون وليمة لذيذة من الاسباجتي بولونيز».

قطبت تالي جبينها، تمنت لو أنهما لم تسبقانهم، فالغرض الأساسي من هذه المهمة هو البقاء بالقرب من الهاربين، وقالت: «ربما اتخذوا الطريق الآخر، فالأنهار لها اتجاهان: اتجاه المنبع واتجاه المصب، أليس كذلك؟»

ردت عليها: «لا تكوني كالعاديين يا تالي-وا، فلِمَ يتوجهون بعيدًا عن المحيط؟ فما إن يجتاز المرء الجبال حتى يجد صحراء تمتد أمامه مئات الكيلومترات. لقد أطلق عليها سكان الأطلال القديمة «وادي الموت» حتى قبل أن تغزوها الأعشاب الضارة».

عادت تسأل: «ربما قد أعدوا العدة للالتقاء بالضبابيين هناك. نحن لا نعرف مدى التواصل بين الأشقياء ومن يقيمون في البرية».

تنهدت شاي وقالت: «حسنًا أقنعتني» وأخذت تركل التراب بين قدميها لتبحث عن صخرة مستوية أخرى. «فقط لا تطيلي المكوث هناك، فقد يكون معهم أجهزة أشعة تحت حمراء».

«شكرًا أيتها القائدة» وقفت تالي وأسرعت نحو لوحها.

ردت عليها شاي قائلةً: «ثلاث عشرة» ورمت الصخرة.

تمكنت تالي من رؤية الهاربين من أعلى، وصح ظن شاي، إذ وجدتهم على ضفة النهر لا يتحركون، يريحون أقدامهم على الأرجح. لكن بينما أخذت تالي تحاول أن تميز أيهم زين، قطبت تالي جبينها.

ثم أدركت ما الذي يقلقها: لقد رأت تسع نقاط حرارية متوهجة، وليس ثمانية. هل أشعلوا نارًا؟ أم أن وجبةً من الوجبات ذاتية التسخين هي التي تربك جهاز الأشعة تحت الحمراء الذي تستخدمه؟

عدلت تالي من رؤيتها حتى تتضح لها صورتهم، فازدادت حدة هيئاتهم حتى تأكدت تالي أنهم جميعًا في حجم البشر.

همست قائلةً: «شاي-لا، لقد التقوا بشخص ما فعلًا».

أجابتها شاي من الأسفل: «بهذه السرعة؟ هه، لم أظن أن الضبابيين سيتمكنون من الوصول بهذه السهولة».

قالت تالي بخفوت: «إلا إن كان هذا كمينًا آخر».

– «دعيهم يحاولون. أنا قادمة إليك.»

– «بل ابقي مكانك، إنهم يتحركون.» كانت الأشباح المتوهجة تتسل نحو النهر باتجاهها هي وشاي بسرعة الألواح الطائرة، لكن تخلف شخص واحد عنهم وأخذ يسير داخل الغابة. «إنهم في طريقهم إلى هنا يا شاي، أقصد، ثمانية منهم، فهناك شخص ما يمضي في الاتجاه الآخر.»

– «حسنًا، اتبعي الآخر، وأنا سأراقب الأشقياء.»

– «لكن ...»

– «لا تجادليني يا تالي، سأحرص على ألا أفقد أثر صاحبك، هيا انطلقي ولا تدعيهم يرونك.»

قالت تالي: «حسنًا أيتها القائدة.» هبطت تالي نحو النهر حتى تتيح لمراوح لوحها الطائر أن تبرد. فعَلَت بذلتها وشدت القلنسوة على وجهها وهي تنطلق بسرعة نحو الأشقياء الذين يقتربون منها. ثم انعطفت مقتربة من الضفة والنباتات المتدلية التي تكسوها، وأخذت تبطئ من سرعتها حتى كادت أن تتوقف.

في غضون دقيقة تجاوزها الأشقياء بسرعة دون أن يشعروا بوجودها، وميزت هيئة زين المنحنية بينهم.

قالت شاي بعد دقيقة: «وصلت إليهم». كان صوتها يتهدج، أضافت: «إن ابتعدنا عن النهر سأبث إليك إشارة عبر أجهزة التواصل المغروسة في أجسادنا».

قالت تالي: «حسنًا أيتها القائدة»، ومالت إلى الأمام متجهةً نحو الشبح التاسع الغامض.

– «توخي الحذر يا تالي-وا، لا أريد أن أفقد اثنين من الجارحين في أسبوع واحد.»

قالت تالي: «اطمئني». كانت تريد أن تعود لتعقب زين، لا أن تقع هي نفسها في الأسر. أضافت: «أراك قريبًا».

ردت شاي وإشارتها تخبو: «سأفتقدك كثيرًا ...».

أخذت حواس تالي تفحص الغابات الواقعة على ضفتي النهر. كانت الأشجار المظلمة التي تعج بها الضفتان ممتلئة بأشباح تظهر لها في الأشعة تحت الحمراء، فمرت بجوار حيوانات صغيرة وطيور في أعشاشها ظهرت لها في هيئة ومضات حرارية عشوائية. لكنها لم ترَ أي شبح بحجم إنسان ...

وعندما كانت تالي تقترب من البقعة التي التقى فيها الأشقياء بصديقهم الغامض أبطأت من سرعتها وهي تربض على لوحها. ابتسمت وقد بدأت تشعر بالصفاء الذهني والحماس. إن كان هذا كمينًا جديدًا فسيكتشف الضبابيون أنهم ليسوا الوحيدين الذي يستطيعون جعل أنفسهم غير مرئيين.

توقفت تالي على ضفة النهر الموحلة، ثم نزلت من على لوحها الطائر وتركته يرتفع في الجو لينتظرها.

وجدت المكان الذي كان يقف فيه الأشقياء مزدحمًا بآثار الأقدام. وكان الهواء يفوح برائحة جسد بشري غير نظيف، رائحة شخص أمضى أيامًا دون أن يغتسل. لا يمكن أن يكون هذا واحدًا من الأشقياء؛ إذ إن رائحتهم تذكر المرء بالملابس القابلة لإعادة التدوير، والخوف.

تحركت تالي بحذر متجهة نحو الأشجار لتقتفي أثر الرائحة.

أحست أن من تتبعه لديه دراية بشئون الغابات، إذ لم تجد أي أغصان منكسرة تدل على مرور شخص تعوزه القدرة على الحركة برشاقة، ولم تحمل الشجيرات الصغيرة أي آثار تشي بأن أحدًا داس عليها؛ لكن الرائحة كانت تزداد قوة كلما تقدمت تالي حتى إن أنفها أخذ يتغضن تقززًا. بصرف النظر عن توفر المياه الجارية من حوله، لا أحد تكون رائحته سيئة إلى هذه الدرجة، حتى الضبابيون القساة.

رأت تالي بالأشعة تحت الحمراء ومضة بين الأشجار، رأت هيئة بشرية أمامها. توقفت لحظة حتى ترهف السمع، لكن هواء الغابة لم ينقل إليها أي صوت يذكر: أيًا كانت هوية هذا الشخص فإنه يستطيع أن يتحرك في سكون، تمامًا كديفيد.

أخذت تالي تتقدم ببطء وعيناها تفحصان الأرض بحثًا عن أي آثار دقيقة. بعد ثواني وجدت ما تبحث عنه: رأت قناة تكاد تكون غير مرئية بين الأشجار الكثيفة، هي السبيل الذي كان يسلكه ذلك الشخص.

لقد نصحتها شاي أن تتوخى الحذر، وأيًا كان ذلك الشخص، سواء أكان من الضبابيين أم لا، فلن يكون من السهل تعقبه خلسة، لكن ربما ينبغي نصب كمين آخر ردًا على الكمين الأول ...

انعطفت تالي مبتعدةً عن الآثار وأخذت تتوغل في الغابة. تحركت في سكون وخفة عبر الشجيرات الملساء وهي تدور حول طريدتها ببطء في مسار دائري، حتى وصلت إلى الآثار مرة أخرى، ثم تقدمت ببطء، وقد أصبحت أمامها الآن، إلى أن رأت فرع شجرة مرتفع يمتد فوق الطريق مباشرةً.

إنه الموقع المنشود.

وبينما كانت تتسلق الشجرة تحول نسيج بذلتها ليصبح شبيهًا بنسيج لحاء الشجر الخشن، وتحول لونها ليتخذ الشكل الذي يشي ببقع من ضوء القمر المتسلل من وراء الغصون. تعلقت تالي بفرع متدلٍ، وقد أصبحت غير مرئيةٍ، وتسارعت دقات قلبها وهي تنتظر.

جاء الشبح المتوهج من بين الأشجار في سكون تام. عادةً لا تفوح روائح مواد صناعية من البشر الذين لا يغتسلون: لا رائحة الكريمات الواقية من الشمس ولا المواد الطاردة للحشرات، بل لا أثر للصابون أو الشامبو. وبينما كانت تالي تستعرض البيانات البصرية لم تر أية إشارة تنم عن وجود إلكترونيات أو سترة من السترات المزودة بأجهزة التدفئة، ولم تلتقط أذنها الأزيز الخافت الذي يصدر من نظارات الرؤية الليلية.

لم تكن المعدات لتساعد طريدتها؛ إذ إنه من غير الممكن لأفضل التكنولوجيا أن تكشف تالي، فهي ساكنة الحركة تمامًا لا تكاد تتنفس، وترتدي بذلة تخفٍ ...

ومع هذا حين مر الشبح أسفلها أبطأ سرعته وأمال رأسه وكأنما يستمع إلى شيء ما.

حبست تالي أنفاسها، كانت متأكدة أنها غير مرئية، لكن دقات قلبها ازدادت سرعتها، وقامت حواسها بتكبير الأصوات الصادرة من الغابة حولها. ترى هل يوجد شخص آخر هنا؟ شخص رآها تتسلق الشجرة؟ رأت بطرف عينها أطيافًا تومض. وشعرت بجسدها يتوق إلى الحركة، لا أن يكتفي بالاختباء بين أوراق الشجر والأغصان.

ولدقيقة مرت بطيئًا، لم يحرك الشبح ساكنًا، ثم ببطء شديد أرجع رأسه للخلف حتى ينظر إلى أعلى.

لم تتردد تالي، وقفزت وهي تضبط أنسجة البذلة على النسق الليلي الأسود المدرع، ثم لفت ذراعيها حول الشبح حتى شلت حركته، وهي تجره حتى سقط على الأرض. من هذه المسافة القريبة كادت الرائحة الناجمة عن عدم اغتساله تخنقها.

قالت بعنف من خلف قناع البذلة: «لا أريد أن أؤذيك، لكنني سأؤذيك إن اضطررت».

قاومها الشاب للحظة، ورأت تالي لمعان سكين معدني في يده. شددت من قبضتها عليه وهي تضغط على صدره بشدة حتى سمعت صوت طقطقة من ضلوعه، إلى أن انزلق السكين من بين أصابعه.

نطق كلمةً غريبةً «سياشال» بصوت متزعج.

وكانت نبرة صوته لتجعلها تتعرف على هويته، فسرت رعشة في جسدها. إنها تتذكر الكلمة الغريبة التي نطقها، وإن كانت لا تذكر أين سمعتها. أوقفت عمل الأشعة تحت الحمراء وشدته حتى يقف، ثم دفعته إلى الخلف وهي تمسك بوجهه لتتأمله على شعاع شارد من ضوء القمر.

كان ملتحيًا متسخ الوجه لا يرتدي سوى أسمالًا من جلود الحيوانات مخيطة خياطة بدائية.

قالت في خفوت: «أعرفك ...».

عندما لم يرد عليها خلعت القلنسوة لكي يرى وجهها.

قال مبتسمًا: «يانج بلود، لقد تغيرت».

الفصل الرابع عشر

الهمجي

اسمه أندرو سيمبسون سميث، كانت تالي قد التقت به من قبل.

عندما هربت من المدينة حينما كانت تنتمي إلى الحسان، صادفت في طريقها مكانًا يشبه المحمية، يمثل حقل تجارب لعلماء المدينة. كان الناس داخل هذه المحمية يعيشون كما كان يعيش الناس في عصر ما قبل سكان الأطلال القديمة، فيلبسون جلود الحيوانات، ولا يستخدمون إلا الأدوات التي كانت تستخدم في العصر الحجري، كالهراوات والعصي والنيران، ويسكنون قرى صغيرة دائمًا يحارب بعضها بعضًا في سلسلة لا تنتهي من حالات القتل الانتقامي، وذلك حتى يدرس العلماء العنف البشري مثلما يدرسون أية شريحة تحت المجهر.

لم يكن سكان القرى يعرفون شيئًا عن باقي العالم، ولم يكونوا يعرفون أن المجتمع البشري توصل منذ قرون إلى حل كل مشكلة من المشكلات التي يواجهونها، من مرض وجوع وسفك دماء، أو بالأحرى لم يكونوا يعرفون إلى أن قابلت تالي مصادفةً مجموعةً من مجموعاتهم التي تخرج للصيد وظنوها واحدة من الآلهة، فأطلعت راهبًا يدعى أندرو سيمبسون سميث على الأمور كلها.

سألته: «كيف خرجت؟»

ابتسم بفخر قائلًا: «تخطيت حافة عالمنا يا يانج بلود».

رفعت تالي أحد حاجبيها في دهشةٍ؛ فالمحمية محاطة بما يعرف بالأقزام، وهي دمى معلقة في الأشجار ومزودة بعناصر متوهجة تقوم بالتشويش على الأعصاب؛ فتتسبب في تعرض أي شخص يقترب منها اقترابًا شديدًا لآلام مريعة. فسكان القرى أشد خطرًا من أن يُسمح بإطلاق سراحهم في البرية الحقيقية، لذا فإن المدينة أحاطت عالمهم بحدود لا يمكن تخطيها.

سألته: «كيف نجحت في هذا؟»

ضحك أندرو سيمبسون سميث وهو ينحني ليلتقط سكينه، وقاومت تالي رغبتها في الإطاحة بها من يده. وأطلق عليها «سياشال» تلك الكلمة التي يطلقها سكان القرى على من يكرهونهم من المتميزين. طبعًا الآن وقد رأى وجهها، صار ينظر إليها بصفتها صديقة لهم، بصفتها حليفتهم ضد آلهة المدينة. لم تكن لديه أية فكرة عما تعنيه الشبكة الجديدة من الوشوم المتحركة المرسومة على وجهها، ولم يعِ أنها أصبحت واحدة ممن يرهبونهم من جند الآلهة.

– «بعد أن أخبرتني عما يوجد خلف حدود العالم يا يانج بلود بدأت أتساءل: هل يوجد ما يُخيف الأقزام؟»

– «يخيفهم؟»

– «نعم، جربت طرقًا عديدة لإخافتهم: أغانٍ، وتعاويذ، وجماجم الدببة.»

– «ممم، ليسوا أقزامًا حقيقيين يا أندرو، إنهم فقط آلات، فهم لا يشعرون بالخوف بالمعنى الذي تقصده.»

ازدادت ملامحه جدية وقال: «ولكن النار يا يانج بلود، لقد علمت أنهم يخافون النار».

– «النار؟» ابتلعت تالي ريقها وأضافت: «حسنًا أندرو، تقصد نارًا هائلة فعلًا؟»

عادت إليه ابتسامته وقال: «أحرقت الكثير من الأشجار، وعندما خمدت النيران كان الأقزام قد هربوا».

تنهدت قائلة: «أعتقد أن الأقزام قد احترقوا يا أندرو. إذن أنت تقول إنك أشعلت حريقًا من حرائق الغابات».

– «حريق غابات.» فكر في هذا اللحظة ثم أضاف: «هذا تعبير ملائم لوصفها».

– «في الواقع يا أندرو هذا تعبير سيئ، فأنت محظوظ أن الجو لم يكن صيفًا وإلا لكان الحريق ليبتلع كامل ... عالمك.»

ابتسم قائلًا: «عالمي صار أكبر الآن يا يانج بلود».

– «صحيح لكن ... لم يكن هذا ما رميت إليه.»

تنهدت تالي. لقد أدت محاولتها لكشف العالم الحقيقي لأندرو إلى حدوث دمار شامل بدلًا من أن تؤدي إلى تنويره، والأرجح أن الحريق الذي أشعله حرر العديد من القرى المليئة بهمج خطرين مُطلقًا إياهم في البرية. يوجد هنا ضبابيون وهاربون، بل أشخاص من المدينة يعسكرون. سألته: «كم مر على فعلتك هذه؟»

– «سبعة وعشرون يومًا.» هز رأسه وأضاف: «لكن الأقزام عادوا، أقزام جدد لا يخافون الحرائق، ولقد ظللت خارج عالمي القديم منذ ذلك الوقت».

– «لكنك عقدت بعض الصداقات الجديدة، أليس كذلك؟ صداقات مع أشخاص من المدينة.»

نظر إلى تالي نظرة ارتياب للحظة. لا بد أنه أدرك أنها إن كانت قد رأته مع المتمردين، فهذا يعني أنها كانت تتبعهم، قال بحذر: «يانج بلود، أي رياح طيبة أتت بك إلى هنا؟»

لم تجبه تالي على الفور. لقد كانت قرية أندرو لا تكاد تعي معنى الكذب، على الأقل إلى أن شرحت لهم تالي الكذبة الكبيرة التي كانوا جميعًا يعيشون فيها، لكن المؤكد أنه الآن أكثر ارتيابًا في سكان المدينة. قررت أن تختار كلماتها بعناية، قالت: «هذه الآلهة التي قابلتها لتوك، بعض منهم أصدقائي».

– «ليسوا آلهة يا تالي، أنت علمتني هذا.»

– «صحيح، أحسنت يا أندرو.» وسألت نفسها: «ترى ما الأمور الأخرى التي توصل إلى فهمها في تلك الأيام؟» صار أكثر تمكنًا من لغة المدينة وكأنه كان يتحدث بها كثيرًا. سألته: «لكن كيف عرفت أنهم قادمون؟ لم تقابلهم مصادفة، أليس كذلك؟»

نظر إليها نظرة ارتياب للحظة ثم هز رأسه نفيًا وقال: «كلا، إنهم يفرون من المتميزين الأشرار، وأنا عرضت عليهم المساعدة. هل هم أصدقاؤك؟»

عضت تالي شفتيها وقالت: «واحد منهم كان ... أعني، لا يزال ... صاحبي».

تلألأ وجه أندرو فهمًا، وضحك ضحكة خفيضة. مد إحدى يديه وربت على كتفها بقوة. «فهمت، لهذا أنت تقتفين أثرهم وأنت غير مرئية كالمتميزين الأشرار، سعيًا وراء صاحب لك».

حاولت تالي ألا يبدو عليها الانزعاج من كلامه، إن أراد أندرو سيمبسون سميث أن يظن أنها حبيبة مهجورة تتطفل على الهاربين فهذا بالتأكيد أخف وطأة من توضيح الحقيقة. «إذن كيف عرفت أن هنا مكان اللقاء؟»

– «بعد أن وجدت أنني لا أستطيع العودة إلى موطني، انطلقت في رحلة بحث عنك يا يانج بلود؟»

سألته تالي: «عني أنا؟»

– «كنت تحاولين الوصول إلى الأطلال القديمة، أنت سألتني كم تبعد وفي أي اتجاه تقع؟»

– «وهل نجحت في الوصول إلى هناك؟»

اتسعت عينا أندرو وهو يومئ برأسه إيجابًا، وسرت قشعريرة في جسده، ثم قال: «وجدت أنها قرية ضخمة، مليئة بالموتى».

– «وقابلت الضبابيين هناك، أليس كذلك؟»

قال برزانة: «فليحيا الضباب الجديد».

– «أي نعم، وأنت الآن تساعد الهاربين لأجلهم؟»

– «لست وحدي من يفعل هذا. الضبابيون يعرفون كيف يطيرون فوق الأقزام. لقد انضم إلينا آخرون من قريتي، وفي يوم من الأيام سنصبح أحرارًا جميعًا».

قالت تالي: «حسنًا، هذه أخبار رائعة». لقد جن جنون الضبابيين فعلًا إذ يطلقون مجموعة من الهمج القتلة إلى البرية. طبعًا سيكون سكان القرى حلفاء نافعين، لمعرفتهم بأسرار الغابات تفوق أفضل ما يتمناه أبناء المدينة، بل على الأرجح تفوق معرفة أكبر الضبابيين سنًا؛ إذ يعرفون كيف يقومون بجمع الطعام أثناء الترحال، ويصنعون الملابس من المواد الطبيعية، ويتقنون جميع المهارات التي فقدتها المدينة من زمن، وبعد عقود من الحروب القبلية صاروا خبراء في فن الكمائن أيضًا.

شعر أندرو سيمبسون سميث على نحو ما بوجود تالي فوقه، بالرغم من ارتدائها [illegible] النجم، [illegible] هذا [illegible] يحتاج وقتًا مديدًا في البرية حتى يصقل [illegible]

– «ما المساعدة التي قدمتها الآن لهؤلاء الهاربين؟»

ابتسم ابتسامة فخر وقال: «أرشدتهم إلى طريق الضباب الجديد».

– «عظيم، لأنني كما ترى لست مدرجة ضمن مجموعتهم تقريبًا، وكنت آمل أن تجد لي مخرجًا من هذا أيضًا».

أومأ برأسه إيجابًا وقال: «طبعًا يا يانج بلود، فقط انطقي بكلمة السر».

رمشت عينا تالي وقالت: «كلمة سر؟ أندرو، هذه أنا، قد لا أكون على علم بأية كلمة سر، لكنني ظللت أحاول الوصول إلى الضباب منذ أن قابلتك».

– «صحيح لكنني قطعت عهدًا». وتململ في وقفته انزعاجًا ثم أضاف: «ماذا حدث لك يا يانج بلود بعد أن رحلت؟ عندما وصلتُ إلى الأطلال أخبرت الضبابيين حكاية ظهورك لنا، فقالوا إن المدينة أسرتك مرة أخرى، وأحدثت بك أمورًا»، وأشار إلى وجهها، وقال: «هل هذا من أجل جذب الأنظار إليك؟»

تنهدت تالي ناظرة إلى عينيه، لقد بدا أنه لا يعدو أن يكون شخصًا عاديًا، بل عادي جدًا بأسنانه غير المنتظمة وجلده المليء بالبقع الذي لم يُغسل قط، لكن لسبب

ما لم تُرِد أن تكذب على أندرو سيمبسون سميث. ومن أسباب هذا أن خداعه بدا مفرط السهولة لها إذ إنه شخص أمي أمضى طيلة حياته فأر تجارب، فيما عدا الأسابيع القليلة الماضية منها.

– «قلبك يدق بسرعة يا يانج بلود.»

تحركت يد تالي نحو وجهها الذي كان الوشم المرسوم عليه يدور بلا شك. لم ينس أندرو أن الوشوم المتحركة تكشف عن الحماس والحزن. ربما أنه من غير المجدي الكذب عليه، فلا يجب أن يُستهان بالحدس الذي يستطيع كشف أمر شخص يرتدي بذلة تخفٍ.

قررت أن تخبره الحقيقة، أو الجزء الذي يهمها هي على أية حال.

قالت: «دعني أريك شيئًا يا أندرو». ونزعت قفاز اليد اليمنى، ومدت راحة يدها فرأيا على ضوء القمر أن الوشم المتحرك منكسر الخطوط يتحرك حركةً ضعيفةً مواكبةً لخفقان قلبها. قالت: «أترى هاتين الندبتين؟ إنهما علامتا حبي ... لزين».

حدق في يديها بعينين متسعتين وهو يومئ برأسه إيماءة إيجاب ببطء ثم قال: «لم أر قط أية ندوب على جماعتك من قبل، فجلدكم دائمًا ... مثالي».

– «صحيح. لا تظهر علينا ندوب إلا إن أردنا، لذا فإنها دائمًا يكون لها مغزى. هذه الندوب تعني أنني أحب زينًا، إنه الشخص الذي بات على غير ما يرام، مرتعش قليلًا ربما. أحتاج إلى أن أتبعه وأتأكد أنه على ما يرام هناك.»

أومأ أندرو برأسه إيجابًا ببطء وقال: «وهل كبرياؤه يبلغ حدًا يمنعه من قبول مساعدة امرأة؟»

هزت تالي كتفيها. عكس سكان القرى قيم العصر الحجري في كافة الأمور، وهذا يشمل كل ما يتعلق بعلاقة الذكر والأنثى. قالت: «حسنًا، دعنا نقول فحسب إنه تقريبًا لا يريد مساعدتي الآن».

– «لم أشعر بالإهانة لأنك حاولت تبصيري بما يحدث في العالم». ابتسم وأردف قائلًا: «ربما أنا أذكى من زين؟».

– «ربما أنت كذلك.» ضمت قبضة يدها غير المغطاة بالقفاز. كانت حواف الندوب على راحتها لا تزال متيبسة، قالت: «أطلب منك أن تخلف عهدك يا أندرو وتخبرني إلى أين توجهوا، أعتقد أنني أستطيع أن أشفي زينًا من رعاشه، ووجوده في العراء مع مجموعة من صغار سكان المدينة يقلقني، فهم لا يفهمون البرية مثلك ومثلي.»

كان لا يزال يحدق في يديها ويمعن التفكير — ثم رفع عينيه ليتطلع إلى عينيها، قال: «بدونك كنت سأظل أسير العالم الوهمي، أود لو وثقت بك يا يانج بلود».

رسمت تالي ابتسامةً على شفتيها وقالت: «إذن ستخبرني أين يقع الضباب الجديد؟»

– «لا أعلم، فهذا السر أكبر من أن يطلعوني عليه، لكنني أستطيع أن أرشدك إلى سبيل ما.» مد يده إلى جراب في حزامه وأخرج مجموعة من الشرائح الدقيقة.

قالت تالي بخفوت: «شرائح تحديد المواقع، هل تحتوي على طرق مبرمجة؟»

– «نعم، هذه الشريحة أرشدتني إلى هنا لأقابل هؤلاء الهاربين الصغار، وهذه سترشدك إلى الضباب الجديد، هل تعرفين كيف تعمل؟» تحركت سبابة أندرو الخشنة المتسخة جيئةً وذهابًا على زر التشغيل الخاص بإحدى الشرائح، وارتسم الشغف على ملامح وجهه.

– «نعم، لا مشكلة، لقد استخدمتها من قبل.» بادلته تالي الابتسام وهي تمد يدها للحصول على الشرائح.

سحب يده، ورفعت بصرها إليه آملة ألا تضطر إلى أن تأخذها عنوة.

ظلت قبضته مغلقة وقال: «هل ما زلت تتحدين الآلهة يا يانج بلود؟»

قطبت تالي جبينها. لقد أدرك أندرو أنها تغيرت، لكن إلى أي مدى؟

قال وعيناه تلمعان على ضوء القمر: «أجيبيني».

مرت دقيقة قبل أن تجيب: فليس أندرو سيمبسون سميث كأهل المدينة من غير المتميزين، ليس كمجموعة الحسان والقبحاء ذوي الأعين الخاوية. فالعيش في البرية جعله أقرب إليها: صياد، ومحارب، وشخص قادر على تخطي الصعاب. أيضًا كانت الندوب التي أصيب بها في عشرات المعارك والحوادث لتجعله يكاد يبدو كالجارحين.

لسبب ما لم تنظر تالي إلى أندرو على أنه شخص هامشي تافه. وبصرف النظر عما إذا كانت ستنجح في خداعه أم لا، فقد أدركت أنها لا تريد هذا.

قالت تالي: «هل لا أزال أتحدى الآلهة؟» وفكرت تالي فيما فعلته هي وشاي ليلة أمس من اقتحام أكثر منشأة تتمتع بالحماية في المدينة كلها وتدميرها تدميرًا تامًّا في خضم الاقتحام. لقد انطلقا من تلقاء أنفسهما دون أن يخبرا دكتورة كابل بخططهما الحقيقية. أيضًا الهدف من هذه الرحلة كلها — على الأقل في نظر تالي — يتعلق بعلاج زين لا بكسب حرب المدينة ضد الضباب.

قد يكون الجارحون من المتميزين، لكن في الأيام القليلة السابقة عادت تالي يانج بلود إلى طبيعتها: متمردة بكل ما تحمله الكلمة من معان.

قالت بصوت خفيض وهي تدرك أن ما تقوله هو الحقيقة: «نعم، ما زلت أتحداهم».

قال: «حسنًا» ابتسم في ارتياح وسلمها شرائح تحديد المواقع قائلًا: «انطلقي واتبعي صاحبك، وأخبري الضباب الجديد أن أندرو سيمبسون سميث كان متعاونًا جدًا».

الفصل الخامس عشر

الافتراق

أحكمت تالي قبضة يدها المشوهة بالندوب على شريحة تحديد المواقع وهي مستغرقةً في التفكير وهي في طريقها عائدةً متبعة مسار النهر.

وبمجرد أن تخبر شاي بشأن لقائها مع أندرو سيمبسون سميث ستتغير الخطة. وبالاستعانة بالشريحة تستطيع كل منهما أن تطير لتسبق زينًا ومجموعته الذين يتحركون ببطء، وتصل إلى الضباب الجديد قبلهم بوقت طويل، وعندما يصل الأشقياء ستكون وجهتهم قد تحولت إلى معسكر تابع للسلطات الخاصة مكتظ بالضبابيين المسمومين والهاربين الذين وقعوا في الأسر مرة أخرى. وظهور زين بعد قطع السوار لن يجعله يبدو حاد الذهن.

بل أسوأ؛ إذ سيظل بمفرده في العراء لما تبقى من الرحلة، وإن تدهور الحال به لن يجد من يمد له يد العون سوى أصدقائه من الأشقياء. إن سقط زين من لوحه الطائر سقطةً عنيفةً واحدة فلن يعيش ليرى الضباب الجديد.

لكن ما مدى اهتمام شاي بكل هذا؟ ما تريده حقًا هو أن تعثر على الضباب الجديد وتنقذ فاوستو وتنتقم من ديفيد وجماعته، أما العناية بزين فلا ترى أنها هدف جلل للمهمة.

أبطأت تالي سرعتها إلى أن توقفت، وفجأة وجدت نفسها تتمنى لو لم تصادف أندرو سيمبسون سميث على الإطلاق.

طبعًا شاي لم تعلم بشأن شريحة تحديد المواقع بعد. ربما لا داعي لإخبارها. إن لزمتا الخطة الأساسية واقتفينا آثار الأشقياء بالطريقة القديمة، فستحتفظ تالي بالشريحة على سبيل الاحتياط خشية أن تضلا السبيل ...

فتحت يديها ونظرت إلى الشريحة وإلى الندوب متمنية لو تمتعت بشيء من الصفاء الذي شعرت به الليلة الماضية. وفكرت في إخراج سكينها لكنها تذكرت التعبير الذي ارتسم على وجه زين وهو يحدق في ندوبها.

في الواقع ليست الرغبة الملحة في جرح نفسها لب الأمر.

أغمضت تالي عينيها، وهي تحث نفسها على التفكير بوضوح.

فحينما كانت من القبحاء كانت دائمًا تجبن عن اتخاذ قرارات كهذه. كانت دائمًا تتجنب أية مواجهة. وبهذا آل بها الأمر إلى خيانة سكان الضباب القديم مصادفةً؛ إذ حال الخوف بينها وبين إخبار أي شخص بشأن جهاز التتبع الذي تحمله. ولهذا فقدت ديفيد، إذ لم تخبره إطلاقًا أنها كانت جاسوسة.

الكذب على شاي الآن هو الأمر الذي كانت تالي السابقة ستفعله.

أخذت تالي نفسًا عميقًا. هي الآن من المتميزين وتتمتع بالصفاء والقوة. هذه المرة ستخبر شاي الحقيقة.

أغلقت تالي قبضتها وهي تحث اللوح على المضي قدمًا في طريقها للعودة.

على ارتفاع عشرة كيلومترات من النهر صدر أزيز من شبكة التواصل المغروسة في جسد تالي وهي تستقبل إشارة شاي.

– «بدأت أقلق عليك يا تالي-وا.»

– «آسفة أيتها القائدة، صادفت صديقًا قديمًا.»

– «أحقًا؟ هل أعرفه؟»

– «لم تقابليه قط، أتذكرين القصص التي كنت أحكيها عن المنطقة التجريبية المحظورة ونحن جالسان حول نيران المعسكر؟ لقد بدأ الضبابيون إطلاق سراح سكان القرى وتدريبهم على مساعدة الهاربين.»

– «هذا جنون!» صمتت شاي ثم قالت: «لكن مهلًا، أتعرفينه؟ كان من القرية نفسها التي صادفتها؟»

– «نعم، وأخشى أن الأمر أكبر من مصادفة فقط أيتها القائدة، فهذا الشخص هو الراهب الذي ساعدني، أتذكرين؟ أخبرته أين تقع الأطلال القديمة، وكان أول من هرب، وهو الآن منضم انضمامًا شرفيًا إلى الضبابيين.»

أطلقت شاي صفير دهشة وقالت: «يا للمصادفة، إذن كيف يُتَوَقع أن يساعد الأشقياء؟ أيعلمهم سلخ الأرانب؟»

– «بل يعمل مرشدًا لهم إلى حد ما، فالهاربون يجهرون له بكلمة سر وهو يعطيهم شريحة تحديد المواقع التي تقودهم إلى الضباب.» أخذت تالي نفسًا عميقًا ثم أضافت: «ومن أجل الأيام الخوالي، أعطاني شريحةً أنا أيضًا».

عندما لحقت تالي بشاي، كان الأشقياء قد نصبوا معسكرًا.

راقبتهم تالي والظلام يلفها ورأت كل واحد منهم يقطع طريقه على حدة إلى حافة النهر واضعًا جهاز تنقية المياه في مياه النهر المعكرة بالطمي. خبأت تالي وشاي أنفسهما في موقع قائم في نفس اتجاه الريح؛ فاشتمتا روائح الطعام المحتفظ بسخونته تتصاعد من معسكر الهاربين. تذكرت تالي بوضوح كل المذاقات والخصائص المرتبطة بالأيام التي قضتها في البرية حين شمت النسيم محملاً برائحة وجبة المكرونة بالكاري، والأرز التايلاندي، والاسباجتي بولونيز الكريهة. التقطت أذنها شذرات من كلام الأشقياء وهم يستعدون لقضاء النهار نائمين، وكان الحماس لا يزال يغلف حديثهم.

كانت شاي تعبث بشريحة تحديد المواقع وهي تقول: «لقد أعدوا هذه الشريحة إعدادًا ماهرًا، فهي لن تفصح لي عن الوجهة النهائية، وإنما تفصح عن نقطة واحدة فقط على الطريق في كل مرة نستخدمها وننتظر حتى نصل إلى هناك ثم تفصح لنا عن النقطة التالية، وسيكون علينا أن نقطع الطريق المحدد عليها بأكمله لكي نكتشف إلى أين يؤدي» أطلقت شاي ضحكة عالية وأضافت: «الأرجح أنها ستقودنا عبر طريق مليء بالمشاهد الخلابة».

تنحنحت تالي وقالت: «لن تقودنا معًا، يا شاي-لا».

رفعت شاي بصرها قائلة: «ماذا تقصدين يا تالي؟»

– «سأظل مع الأشقياء، مع زين.»

– «تالي ... هذه مضيعة للوقت، نستطيع أن نسافر بضعف السرعة التي يسافرون بها.»

استدارت حتى تواجه شاي وقالت: «أعلم، لكنني لن أترك زينًا في العراء هنا مع مجموعة من صغار سكان المدينة، ليس وهو بهذه الحال.»

أطلقت شاي صيحة استياء وقالت: «إنك تثيرين شفقتي حقًا يا تالي-وا، ألا تشعرين بأدنى إيمان بقدراته؟ ألا تصيبين رأسي بالصداع دائمًا وأنت تحكين لي كم هو متميز؟».

– «الأمر لا يتعلق بالتميز، فنحن في البرية، يا شاي-لا، وكل الاحتمالات واردة فمن الممكن أن تقع له حادثة، أو يصادف حيوانًا خطرًا، أو تتدهور حالته، انطلقي وحدك أو استدعي باقي الجارحين، وبهذا لن يكون عليك أن تقلقي من أن يراكِ أحد، أما أنا فسأبقى بجوار زين.»

ضيقت شاي عينيها وقالت: «تالي ... ليس أمامك خيار، فأنا آمرك».

أطلقت تالي ضحكة مكتومة وقالت: «تقولين هذا بعد ما فعلناه ليلة أمس؟ أظن أنه قد فات أوان تلقيني درسًا بشأن تسلسل القيادة يا شاي-لا».

صاحت شاي: «هذا الأمر لا يتعلق بتسلسل القيادة يا تالي، هذا الأمر يتعلق بالجارحين وبفاوستو، أتفضلين مشوشي الذهن علينا؟»

هزت تالي رأسها نفيًا وقالت: «بل أفضل زينًا».

– «لكن عليك أن تأتي معي، لقد وعدتني أن تكفي عن إثارة المشكلات!»

– «شاي، لقد وعدتك أن أكف عن محاولة تغيير الأمور إن جعلوا زينًا من المتميزين، وسأحفظ هذا العهد فور أن يصبح من الجارحين، لكن حتى ذلك الوقت ...»

حاولت تالي أن ترسم بسمة على شفتيها وقالت: «ماذا بيدك أن تفعلي؟ تشكينني لدكتورة كابل؟»

أطلقت شاي صفير استهجان طويلًا، وانقبضت يداها متخذتين وضع القتال وانكشفت أسنانها مبرزة طرف فكها الأسفل، وأشارت بذقنها جهة الهاربين وقالت: «ما سأفعله يا تالي-وا هو أنني سأذهب إلى هناك وأخبر زينًا أنه أضحوكة وأنه مغفل، وأنك كنت تخدعينه وتهزئين به. سأجعله يهرع إلى البيت في فزع، في حين نقوم نحن باستئصال شأفة الضباب، ونرى إن كان سيصبح من المتميزين بعدها».

أغلقت تالي قبضتيها وهي لا تزال تحدق في عيني شاي، لقد دفع زين ما يكفي ثمنًا لافتقارها إلى الشجاعة، وعليها أن تصمد هذه المرة، عصرت ذهنها بحثًا عن رد على تهديد شاي، وبعد لحظات جاءها الرد، وهزت رأسها نفيًا قائلة: «لا تستطيعين فعل هذا يا شاي-لا، فأنت لا تعلمين إلى أين تقودك هذه الشريحة، إذ من الممكن أن تقودك إلى اختبار آخر من نوع ما، ليس إلى شخص همجي وإنما إلى شخص من الضباب يعلم من أنت، شخص لن يعطيك أبدًا المجموعة التالية من التوجيهات».

أشارت تالي نحو الهاربين، وقالت: «على أحدنا أن يبقى معهم، تحسبًا للطوارئ».

بصقت شاي على الأرض وقالت: «أنت لا تأبهين البتة بشأن فاوستو، أليس كذلك؟ الأرجح أنهم يجرون التجارب عليه الآن، وأنت تريدين أن تضيعي الوقت في تعقب مشوشي العقل هؤلاء».

«أعرف أن فاوستو في حاجة إليك يا شاي، وأنا لا أطلب منك أن تبقي معي»، وباعدت بين يديها وأضافت: «على أحدنا أن يمضي قدمًا وعلى الآخر أن يبقى مع الأشقياء، هذا هو الحل الوحيد».

أطلقت شاي صفير استهجان مرة أخرى واتجهت بغضب إلى ضفة النهر. أخرجت حجارة مستوية من الطين ورفعتها استعدادًا لإلقائها في المياه.

همست تالي قائلة: «شاي-لا قد يرون هذا». توقفت شاي وذراعها لا يزال مرفوعًا وقالت: «اسمعي، أنا آسفة بشأن هذا، لكنني لا أنتمي إلى القطريين تمامًا أليس كذلك؟».

ما كان من شاي إلا أن أخذت تحدق في الحجر دقيقة ثم ألقته في الطين مرة أخرى واستلت سكينها. بدأت تشمر كم بذلة التخفي التي ترتديها، وأشاحت تالي برأسها آملةً أن تتفهم شاي موقفها ما إن يصبح دمها صافيًا. راقبت معسكر الهاربين حيث كان الجميع يأكلون بعناية، يبدو أن هذا كان بعد أن أدركوا أن الوجبات ذاتية التسخين من الممكن أن تحرق ألسنتهم. كان الدرس الأول الذي تلقنه الجميع في البرية هو أن ليس ثمة شيء جدير بالثقة، ووجبة العشاء الخاصة بهم ليست استثناءً. فالبرية لا تشبه المدينة حيث زودت كل زاوية حادة بحواف مستديرة، وزُودت الشرفات بنطاقات مقاومة تحول دون سقوط أحد منها، ولا يُقدم الطعام وهو شديد السخونة أبدًا.

لا يمكنها أن تترك زينًا وحده في العراء، وإن كان بقاؤها معه سيجعل شاي تكرهها.

بعد لحظات سمعت تالي شاي وهي تنهض، وتستدير لتواجهها، كان ذراعها ينزف والوشوم المتحركة تدور بسرعة شديدة، وعندما كانت تقترب رأت تالي حدةً كاشفةً في عينيها. قالت: «حسنًا سنفترق». حاولت تالي أن تبتسم لكن شاي هزت رأسها وقالت: «إياك أن تفرحي بهذا يا تالي-وا، ظننت أن تحويلك إلى واحدة من المتميزين سيغيرك، ظننت أنك إن استطعت رؤية العالم بوضوح فستصبحين أقل أنانيةً، ولن يصبح كل ما يهمك هو نفسك وأحدث صاحب لك، ظننت أنك ستسمحين لأمر غير هذا أن يحظى باهتمامك من حين لآخر».

– «أنا أهتم بأمر الجارحين يا شاي، صدقًا، وأهتم بأمرك.»

«كنت كذلك حتى ظهر زين مرةً أخرى، والآن لا يهمك شيء آخر.» هزت رأسها في ازدراء وقالت: «وأنا كنت أبذل قصارى جهدي لأساعدك لأنجز هذه المهمة لأجلك، لكن لا فائدة.»

ابتلعت تالي ريقها وقالت: «لكن علينا أن نفترق، هذه هي الطريقة الوحيدة التي نضمن بها أن شريحة تحديد المواقع تعمل.»

– «أعلم هذا يا تالي-وا، وأتفهم منطقك.»

نظرت شاي إلى الهاربين والازدراء مرتسم على وجهها الذي تدور الوشوم المرسومة عليه بسرعة جنونية: «لكن أجيبي على سؤالي هذا: هل أنعمت التفكير في الأمر فأدركت أنه علينا أن نفترق؟ أم أنك كنت قد قررت من الآن أن تبقي مع زين مهما كلف الأمر؟» فتحت تالي فمها ثم أطبقته.

قالت شاي باحتقار: «لا تكلفي نفسك عناء الكذب يا تالي-وا، فكلانا يعرف الإجابة»، ثم أشاحت بوجهها وطقطقت أصابعها استدعاءً للوحها الطائر. قالت: «ظننت حقًا أنك قد تغيرت لكنك ما زلت حقيرة أنانية كما كنت دائمًا. هذا هو المدهش فيك يا تالي، لا شيء يستطيع مواجهة أنانيتك، حتى دكتورة كابل نفسها وعملياتها.»

شعرت تالي بأن يديها بدأتا ترتعشان، لقد توقعت شجارًا، لكن ليس كهذا. قالت: «شاي ...»

– «إنك دائمًا تخيبين الآمال المعقودة عليك، حتى وأنت من المتميزين، فدائمًا تشعرين بالقلق من كل شيء، لماذا لا تتمتعين بصفاء الذهن؟»

– «حاولت دائمًا أن أفعل ما تقومين ...»

«حسنًا تستطيعين أن تكفي عن المحاولة الآن.» مدت شاي يدها في مكان التخزين الملحق بلوحها وأخرجت البخاخة الطبية ورشت كمية كبيرة من السائل على ذراعها التي تنزف، ثم أخرجت بضع علب مغلقة وألقتها في الطين تحت قدمي تالي قائلةً: «إليك مجموعة من البلاستيك الذكي، إن اضطررت لأن تنطلقي متخفيةً، إضافةً إلى اثنين من الأجهزة التي تطلق إشارات لا يراها سوانا، وجهاز تقوية إشارة القمر الصناعي.» وأطلقت ضحكة ساخرة وصوتها لا يزال يختلج في احتقار وقالت: «سأعطيك واحدة من القنابل اليدوية المتبقية معي، تحسبًا لأن يحول بينك وبين صاحبك المرتعش أمر جلل.»

سقطت القنبلة اليدوية على الأرض محدثةً صوتًا مكتومًا وتراجعت تالي إلى الوراء.

– «شاي، لماذا أنتِ ...»

«كفي عن التحدث إليّ.» هذا الأمر أخرس تالي التي لم تستطع سوى أن تحدق في شاي وهي تقوم بإنزال بذلة التخفي على ذراعها وتغطي وجهها بالقلنسوة. فلقد حل قناع من ظلام الليل محل الغضب الذي كان مرتسمًا على وجهها. جاء صوتها مشوهًا عبر القناع وهي تقول: «لن أنتظر هنا أكثر من ذلك. فاوستو مسئوليتي، وليس مشوشي العقل هؤلاء».

ابتلعت تالي ريقها وقالت: «آمل أن يكون على ما يرام».

«أنا واثقة من صدق شعورك.» وقفزت على لوحها وقالت: «لكنني اكتفيت من الاهتمام بما تأملينه وما تعتقدينه يا تالي-وا. اكتفيت إلى الأبد».

حاولت تالي أن تتكلم، لكن كلمة شاي الأخيرة خرجت ببرود شديد أفقدها القدرة على الحديث. ارتفعت شاي في السماء حتى كادت صيحتها تصبح غير مرئية وسط ظلام الأشجار التي تغطي الضفة الأخرى. انطلقت بهدوء فوق النهر، ثم انطلقت إلى قلب الظلمة، واختفت على الفور، كنجم مضيء خبا فجأة.

لكن تالي كانت لا تزال بوسعها أن تسمع أنفاسها عبر شبكة التواصل المغروسة في جلدها، كان صوت أنفاسها يأتي قاسيًا غاضبًا عند بداية انقطاعه، وكأن شاي لا تزال تكشف عن أسنانها كرهًا وازدراءً. حاولت تالي أن تفكر في عبارة أخرى تنطق بها، عبارة توضح لِمَ كان عليها أن تفعل هذا. البقاء مع زين كان أهم من أن تكون من الجارحين، أهم من أي عهد قطعته في حياتها. فهذا القرار يتعلق بسؤال: من هي تالي يانج بلود في أعماقها؟ هل هي من القبحاء، أم من الحسان أم من المتميزين؟ لكن بعد دقيقة كانت شاي قد صارت خارج النطاق الذي يمكن التواصل فيه، ولم تزل تالي مطبقة فمها. ووجدت تالي نفسها وحيدةً مختبئةً في انتظار أن ينام الأشقياء.

الفصل السادس عشر

التقصير

حاول الأشقياء أن يشعلوا نيرانًا ففشلوا.

فكل ما نجحوا في فعله هو أن جعلوا مجموعة صغيرة من أفرع الأشجار الرطبة تحترق ببطء دون أن يكون لها لهب، وكان صفير غضبهم عاليًا جدًا، حتى إن تالي استطاعت سماعه وهي في مخبئها. ولم ينجحوا قط في تأجيج أي لهب قوي، وحتى بزوغ الفجر لم يصدر عن كومة الأخشاب سوى حسيس متقطع. عندما لاحظ الأشقياء أن عمودًا أسود من الدخان يرتفع في السماء التي بدأت تصبح أكثر إشراقًا، حاولوا أن يخمدوه، وانتهى بهم الأمر إلى إلقاء حفنات من الطين على النيران شبه المشتعلة. وعندما سيطروا عليها، كانت ملابس المدينة التي يرتدونها تبدو وكأنهم كانوا ينامون في العراء مدة أسبوع كامل.

تنهدت تالي متخيلةً شاي تطلق ضحكاتها وهم يحاربون للقيام بأتفه الأمور، لكنهم على الأقل أدركوا أنه من الأذكى أن يناموا نهارًا ويسافروا ليلًا.

وبينما كان الهاربون يشقون طريقهم إلى حقائب النوم، سمحت تالي لنفسها بأن تغفو إغفاءةً قصيرة. فعلى الرغم من أن المتميزين لا يحتاجون إلى نوم طويل فهي لا تزال تشعر بتأثر عضلاتها من المجهود الذي بذلته في اقتحام المستودع وفي الرحلة الطويلة التي قطعتها بعده. ولأن الأشقياء سيكونون منهكين بشدة بعد أولى لياليهم في البرية، فإن الوقت هو على الأرجح أفضل وقت تنال فيه قسط الراحة الذي أغفلته. وبدون وجود شاي لتبادل نوبات الحراسة مع تالي، قد يصبح عليها أن تبقى مستيقظةً أيامًا متتابعة.

جلست تالي وقد عقدت ساقيها مواجهةً معسكر الهاربين وضابطةً برنامجها الإلكتروني الداخلي بحيث يصدر أزيزًا كل عشر دقائق، لكن النوم لم يأتها طواعيةً،

واضطرمت في عينيها نيران الدموع التي لم تذرفها بعد شجارها مع شاي. كان صدى الاتهامات لا يزال يتردد في ذهنها جاعلًا العالم من حولها بعيدًا محاطًا بالضباب. أخذت عدة أنفاس بطيئة عميقة حتى داعب الوسن عينيها ...

دوى الأزيز، مضت عشر دقائق بالفعل.

تفقدت تالي الأشقياء ووجدت أنهم لم يحركوا ساكنًا فحاولت أن تخلد إلى النوم مرة أخرى.

صُمم المتميزون بحيث ينامون على هذا النحو، لكن الاستيقاظ كل عشرة دقائق جعل إحساسها بالوقت غريبًا، بدا الأمر وكأن تالي تشاهد شريط فيديو للنهار وتتابع لقطاته بسرعة، فقد بدا أن الشمس ترتفع بسرعة إلى السماء والظلال تغير مواقعها حولها وكأنها كائنات حية. تداخلت الأصوات المنخفضة الصادرة من النهر فيما بينها وخبت حتى صارت صوتًا واحدًا مملًا شديد الخفوت، وتقلب عقلها مرتبكًا بين قلقها على زين وحزنها بسبب الشجار مع شاي. بدا أن شاي مقدر لها أن تكرهها أيًا كان الأمر، أو ربما أن شاي كانت محقة وأن تالي يانج بلود بداخلها نزعة فطرية لخيانة أصدقائها...

وعندما كانت الشمس في كبد السماء تقريبًا استيقظت تالي، لا بسبب صوت أزيز [illegible] الإلكتروني وإنما بسبب انعكاس ضوء شديد السطوع على عينيها، وقفت فجأة وبعنف وانقبض كفاها متخذين وضع القتال.

كان الضوء صادرًا من معسكر الأشقياء، وبينما هي تقف، خبا مرة أخرى.

هدأت تالي، فكل ما في الأمر هو أن الألواح الطائرة الخاصة بالهاربين التي تعمل بالطاقة الشمسية انتشرت عبر ضفة النهر حتى تعيد شحن نفسها، وعندما كانت الشمس تتحرك في السماء التقت بالخلايا العاكسة في زاوية مناسبة فسطع الضوء منعكسًا في عيني تالي.

شعرت تالي بالتوتر وهي ترى الألواح تتوهج بالشحنات، فقيام الهاربين بقضاء ساعات قليلة فحسب على هذه الألواح لا يجعلها في حاجة إلى إعادة الشحن، وكان من المفترض أن ينصب جم اهتمامهم على الحفاظ على تخفيهم.

وضعت تالي يديها فوق عينيها ونظرت إلى أعلى. فأية عربة طائرة عابرة ستلمح الألواح المنبسطة كإشارة استغاثة، ألا يدرك الأشقياء كم هم قريبون من المدينة؟ الأرجح أن الساعات القليلة التي قضوها في ركوب الألواح بدت لهم وكأنها زمن لا نهاية له، مع أنهم كانوا لا يزالون على أعتاب الحضارة.

شعرت تالي بالخجل يداهمها مرة أخرى. هل عصت أمر شاي وخانت فاوستو لتعتني بمشوشي العقل هؤلاء؟

فتحت تالي شبكة التواصل على القنوات الرسمية للمدينة وعلى الفور وصلت إليها ثرثرة قادمة من سيارة أحد الحراس يقوم بدورية بطيئة كسولة على النهر. بحلول ذلك الوقت كانت المدينة قد أدركت أن خدعة ليلة أمس كانت هجومًا مضللًا يمهد لهروب جديد. وستخضع كل الطرق المكشوفة البعيدة عن المدينة — من أنهار وخطوط سكة حديدية قديمة — للمراقبة. وإن رأى الحراس الألواح الطائرة المنبسطة فسينتهي هروب زين نهاية سيئة، وستكون تالي قد تحدت شاي بلا جدوى.

أخذت تالي تفكر كيف تثير انتباه الأشقياء دون أن تكشف عن نفسها، فمن الممكن أن تلقي ببعض الأحجار على أمل أن توقظهم بضوضاء من المقنع أنها صدرت عشوائيًا، لكن الهاربين على الأرجح ليس معهم جهاز المدينة الخاص بالترددات، ولن يدركوا الخطر الذي يتعرضون له، وإنما سيعودون إلى النوم فحسب.

تنهدت تالي، ستتولى هذا الأمر بنفسها.

خلعت غطاء رأسها وقطعت خطوات قليلة نحو ضفة النهر ثم نزلت في المياه. بدأت بذلة التخفي تتموج وهي تسبح متخذةً شكل الموجات الصغيرة المحيطة بها ومكتسبة القدرة نفسها التي للنهر الشفاف البطيء فيما يتعلق بعكس الضوء.

حين ازدادت اقترابًا من المعسكر تسللت إلى أنفها رائحة النار المطفأة وعبوات الطعام الملقاة. أخذت تالي نفسًا عميقًا وغاصت في المياه غوصًا تامًا تحت الماء إلى أن وصلت إلى ضفة النهر.

سبحت على بطنها صاعدةً إلى أعلى وهي ترفع رأسها ببطء حتى تضبط البذلة نفسها وفقًا لكل تغيير من حولها. صارت بنيةَ اللون وملساء الملمس وأخذ نسيجها يغوص في الوحل ويدفعها إلى الأمام كالحلزون.

كان الأشقياء نائمين لكن طنين الذباب وهبوب الريح بين الحين والآخر جعلهم يصدرون همهمات منخفضة الصوت. قد يتلقى صغار الحسان تدريبًا مكثفًا على النوم حتى الظهيرة، لكنهم لا يتدربون أبدًا على النوم على أراضٍ صلبة. فأية ضوضاء من الممكن أن توقظهم جميعًا.

مع أن حقائب النوم المرقطة بالألوان الأخضر والبني والأسود قد تكون غير مرئية من الجو على الأقل، فالألواح المنبسطة أخذت تزداد سطوعًا والشمس ترتفع في السماء، وكان ثمانية منها تحتشد على ضفة النهر. وكانت الرياح تشد زواياها.

ولما كانت تلك الزوايا محملة مثقلة بالأحجار وكتل الطين فأخذت تلمع كالبالونات المملتئة بمواد لامعة.

لإعادة شحن الألواح الطائرة يجب تفكيكها وكأنها دمية ورقية وتعريض أكبر مساحة ممكنة منها للشمس، وعند بسطها تمامًا تصبح رفيعة وخفيفة كالطائرة البلاستيكية، ويمكن للريح العارمة أن تحملها لأعلى إلى الأشجار، لذا فإن استيقظ الأشقياء ووجدوا ألواحهم قد انتقلت إلى الغابة قد يعتقدون أن هذا ما حدث. زحفت تالي إلى أقرب لوح ونزعت الأحجار من زواياه ونهضت ببطء وسحبته إلى الظل، وبعد عمل استغرق دقائق قليلة، حشرته تالي بين شجرتين بشكل أملت أن يبدو عشوائيًا لكنه كان ثابتًا بحيث لا تحمله الرياح بعيدًا.

لم يبق أمامها سوى سبعة ألواح أخرى.

كان العمل بطيئًا إلى حد مرهق، وكان على تالي أن تفكر في كل خطوة تخطوها بين الأجساد النائمة، وكان كل صوت يصدر عن غير قصد يجعل قلبها يخفق بشدة، وأثناء هذا كانت ترهف السمع عبر شبكة التواصل إلى عربة الحراس وهي تقترب.

أخيرًا سحبت آخر الألواح الطائرة الثمانية إلى الظل بعناية. كانت مكدسة فوق بعضها في فوضى كالمظلات المحطمة بعد الأعاصير، وقد صار سطح صفوف الخلايا الشمسية الساطعة موجهًا إلى أسفل في الظل.

قبل أن تتسلل تالي عائدة إلى النهر وقفت للحظات تتأمل زينًا، وبينما كان نائمًا كان يبدو أقرب إلى صورته في الماضي، إذ لم تكن الرجفات العشوائية تسبب اضطرابًا له وهو غائب عن الوعي. وأفكاره غير مرتسمة على وجهه، كان يبدو أكثر ذكاءً، بل يكاد يبدو من المتميزين. تخيلت عينيه وقد صارتا أكثر حدةً بعد أن اكتسبت الزوايا المائلة لأعين الحسان ذوي الملامح القاسية، وتركت عقلها يتابع تخيل شبكة الوشوم المتحركة المرسومة على وجهه. ابتسمت تالي وأشاحت وجهها متخذةً خطوة إلى الوراء نحو النهر.

ثم سمعت صوتًا، وتسمرت في مكانها.

كان صوت شهقة مباغتة ضعيفة، ينم عن شعور بالمفاجأة. انتظرت دون أن تحرك ساكنًا، آملة أن يكون هذا كابوسًا وأن يعود من يتنفس إلى النوم، لكن حواسها أنبأتها أن أحدًا استيقظ.

وفي آخر الأمر، أدارت رأسها ببطء شديد حتى تنظر وقد صار ذقنها على كتفها.

إنه زين.

كانت عيناه منفتحتين ناعستين شبه مغمضتين في ضوء الشمس. حدق فيها مباشرةً وهو ناعس شبه نائم غير واثق أن ما يراه حقيقة.

وقفت تالي وكأن على رأسها الطير، لكن بذلة التخفي لم تجد من حولها بيئة ثرية تساعدها على العمل، فهي قد تعكس صورة غير واضحة من المياه الموجودة خلف تالي، لكن في ضوء النهار الساطع سيرى زين هيئة بشرية شفافة تشبه تمثالًا من الزجاج الصلب واقفًا نصفه في النهر. ومما زاد الأمر سوءًا أن الطين كان لا يزال عالقًا بالبذلة، فكانت كتل بنية تطفو في خلفية المشهد الذي يراه.

فرك زين عينيه ونظر إلى ضفة النهر الخاوية حوله مدركًا أن الألواح الطائرة غير موجودة، ثم رفع بصره إليها مرةً أخرى والحيرة لا تزال مرتسمة على وجهه.

ظلت تالي بلا حراك وهي تأمل أن يتخيل زين أن ما يراه حلم غريب فقط.

قال في خفوت: «مرحبًا». جاء صوته أجش فتنحنح حتى يتمكن من أن يتحدث بصوت أعلى.

لكن تالي لم تسمح له بهذا، إذ قطعت ثلاث خطوات عبر الطين وخلعت أحد قفازيها بسرعة ونقرت خاتمها وأخرجت سن الإبرة الكامن فيه.

وحين غاصت الإبرة الصغيرة في رقبته، صدرت عنه صيحة فزع منخفضة، لكن عينيه زاغتا وعاد يسقط على الأرض مرة أخرى غارقًا في نوم عميق وبدأ يطلق شخيرًا منخفضًا.

همست تالي في أذنه: «حلم ليس إلا»، ثم رقدت على بطنها وأخذت تزحف نحو النهر.

بعد نصف ساعة، مرة عربة الحراس الطائرة وهي تتلوى من جانب إلى آخر كثعبان كسول، لم تر الأشقياء ولم تتوقف ثانية واحدة في السماء.

ظلت تالي قريبةً من المعسكر مختفيةً في شجرة تبعد عن زين نحو عشرة أمتار، وبذلة التخفي التي ترتديها لها ملمس مستدق كملمس أوراق شجر الصنوبر إبرية الشكل.

وبحلول العصر بدأ الأشقياء يستيقظون ولم يبد أن أحدًا يأبه كثيرًا بالألواح الطائرة التي حملتها الرياح بعيدًا، وإنما سحبوها فقط إلى ضوء الشمس مرةً أخرى ومضوا قدمًا في عملية طي الخيام.

وبينما كانت تراقبهم رأت الهاربين يسيرون إلى الغابة ليقضوا حاجتهم، ويعدوا لأنفسهم الوجبات، ويسبحون بسرعة في النهر البارد للاغتسال من الطين والعرق من أثر السفر والأوساخ الناتجة من النوم في العراء.

تابعت جميعهم عدا زين؛ فقد ظل غائبًا عن الوعي مدة أطول من الآخرين، والمادة المخدرة تشق طريقها في جسده ببطء. لم يستيقظ إلا مع غروب الشمس وذلك عندما مال بيريس عليه وهزه.

جلس زين ببطء واضعًا رأسه بين يديه، في صورة مثلى للحسان الذين يعانون من دوار شديد بفعل الإسراف في شرب الخمر. ودت تالي لو عرفت ما الذي تذكره. حتى الآن يعتقد بيريس والآخرون أن الرياح حركت ألواحهم الطائرة لكنهم قد يغيرون رأيهم بعد سماع حلم زين القصير.

تحدث بيريس وزين وحدهما سرًا للحظة، فتحركت تالي ببطء حول شجرتها حتى صارت في موقع مميز يكاد يمكنها من قراءة شفاههما. خيل لها أن بيريس يسأل زينًا إن كان بخير. الحسان الجدد لا يكادون يمرضون أبدًا — فالعملية جعلتهم أصحاء بصورة تحميهم من الإصابات البسيطة — فيما عدا حالته...

هز زين رأسه نفيًا وأشار جنوبًا نحو ضفة النهر حيث كانت الألواح الطائرة تستمتع بأشعة الشمس. أشار بيريس نحو البقعة التي وضعتها فيها تالي، وسارا معًا نحوها، مقتربين إلى حد مزعج من المكان الذي تتعلق فيه تالي بالشجرة. بدا عدم الاقتناع مرتسمًا على وجه زين، فقد كان يعرف أن جزءًا واحدًا على الأقل من الحلم حقيقة، ألا وهو الألواح المفقودة.

وبعد دقائق طويلة متوترة، عاد بيريس إلى طي الخيام. لكن زينًا بقي في المكان وأخذ يقلب بصره ببطء في الأفق. وبالرغم من أن تالي كانت غير مرئية وهي ترتدي بذلتها فقد أجفلت وعيناه تمران بمخبئها.

لم يكن زين على يقين من أمره، لكنه كان يشك أن ما رآه أكثر من كونه حلمًا. سيكون على تالي أن تتوخى أشد الحذر من الآن فصاعدًا.

الفصل السابع عشر

غير مرئية

طوال الأيام القليلة التالية سارت عملية تتبع تالي للمتمردين على وتيرة واحدة.

كان الهاربون يسهرون كل ليلة حتى وقت متأخر وأجسادهم العادية تتأقلم ببطء مع السفر في الظلام والنوم أثناء النهار. وسرعان ما تمكنوا من قطع الليل بأكمله في السفر دون أن ينصبوا الخيام إلا عندما شقَّ أولُ أنوار الفجر ظلام الأفق.

وكانت شريحة تحديد المواقع التي أعطاها إياها أندرو تقودهم جنوبًا، فساروا مع النهر إلى المحيط ثم أخذوا يقفزون عبر القضبان الصدئة لأحد خطوط السكة الحديدية السريعة القديمة. لاحظت تالي أن شخصًا ما جعل الطرق الساحلية آمنة لركوب الألواح الطائرة بلا فجوات خطرة في المجال المغناطيسي، ففي كل بقعة ينقطع فيها الخط توجد كابلات معدنية مدفونة تحفظ الأشقياء من التصادم، بل إنهم لم يضطروا قط إلى المشي على أقدامهم.

تساءلت: كم يبلغ عدد الهاربين الذين سلكوا هذا الطريق غيرهم؟ ومن كم مدينة أخرى يقوم ديفيد وحلفاؤه بتجنيد الأشخاص؟

المؤكد أن الضباب الجديد أبعد مما توقعت. فكان والدا ديفيد ينتميان إلى المدينة نفسها التي تنتمي إليها تالي، وكان ديفيد دائمًا يختبئ في أماكن تقع على مسيرة أيام قليلة من موطنه، لكن شرائح تحديد المواقع قطعت بهم نصف طريق القارة الجنوبية، وصارت الأيام تصبح أطول بدرجة ملحوظة، والليالي تصبح أكثر دفئًا وهم يتوجهون جنوبًا.

وعندما بدأ الساحل في الارتفاع مكونًا منحدرات عالية خف صوت الأمواج المتلاطمة في الأسفل بعيدًا حتى صار هديرًا مكتومًا، وصارت الحشائش الطويلة تخترق قضبان السكة الحديد القديمة، وفي الأفق كانت حقول شاسعة من الأعشاب البيضاء الضارة تلمع في ضوء الشمس، وكانت هذه الأعشاب الضارة نوعًا من أزهار

السحلبية المهندسة وراثيًا، حيث قام عالم من علماء مدينة الأطلال القديمة بإطلاقها على العالم، فنمت في كل مكان مستنزفةً العناصر الغذائية من الأراضي، وخانقةً غابات كاملة في طريقها، لكن شيئًا في المحيط أبقاها بعيدًا عن الساحل، ربما ملوحة الهواء.

وبدا لها الأشقياء صاروا معتادين على النظام المتبع في السفر، فتحسنت مهارات ركوب الألواح الطائرة، مع أن مهمة اتباعهم لم ترتق قط إلى مرتبة التحدي. والممارسة الدائمة لم تضر بقدرة زين على التحكم في حركته لكنه مقارنةً بالآخرين لا يزال غير ثابت على لوحه.

على شاي أن تتقدم أكثر كل ساعة، وتساءلت تالي: هل انضم إليها باقي الجارحين، أم أنها تتوخى الحذر وتسافر بمفردها منتظرةً أن تجد الضباب الجديد قبل أن تطلب تعزيزات.

كل يوم يمر دون أن يصل الأشقياء إلى هدفهم يزداد احتمال أن تصل السلطات الخاصة إليهم وتصبح رحلتهم بأكملها مزحة سخيفة فقط، كما قالت شاي.

وكان سفر تالي بمفردها ليمنحها وقتًا طويلًا للتفكير، وقد أمضت معظم هذا الوقت في التساؤل: هل هي فعلًا وحش أنانيّ كما وصفتها شاي؟ لم يبد هذا عدلاً. مزية أو صفة سمحت لها بأن تكون أنانية؟ فمنذ أن جندتها دكتورة كابل والآخرون يتخذون القرارات بدلاً منها. دائمًا يوجد من يجبرها على أن تكون بصفه في الصراع بين الضبابيين والمدينة. فالقرارات الحقيقية التي اتخذتها حتى الآن هي: قرارها بأن تظل من القبحاء في الضباب القديم (ولم ينجح هذا القرار نهائيًا)، والهروب من مدينة نيو برتي تاون مع زين (وقد لاقى المصير نفسه)، والافتراق عن شاي حمايةً لزين (لم يمض على خير ما يرام حتى الآن). أما كافة الأمور الأخرى فقد وقعت بسبب التهديدات والحوادث والأمراض التي أصابت عقلها والجراحة التي غيرته.

وهذا ليس ذنبها هي.

ومع هذا فإنها هي وشاي دائمًا ينتهي بهما الأمر إلى الانضمام لصفوف متخاصمة. هل هذه مصادفة؟ أم أن شيئًا فيهما دائمًا يحولهما من أصدقاء إلى أعداء؟ ربما لأنهما فصيلتان مختلفتان لا يمكن أبدًا أن يكونا أصدقاء، كالصقور والأرانب مثلًا.

تساءلت تالي: إذا كان الأمر كذلك، فمن هو الصقر؟

وبينما كانت وحدها في العراء شعرت بنفسها تتغير مرة أخرى. فالبرية جعلتها على نحو ما تشعر بأنها أقل تميزًا. كانت لا تزال ترى جمال العالم النقي، لكن شيئًا ما كان مفقودًا: أصوات الجارحين الآخرين حولها، وحميمية أنفاسهم التي تصلها عبر شبكة التواصل المغروسة في جلدها. بدأت تدرك أن كونها من المتميزين لا يقتصر على امتلاك القوة والسرعة، بل يتطلب أن يكون المرء فردًا في مجموعة، عندما كانت تالي في المعسكر، كانت تشعر بأنها متصلة بالآخرين، وكانوا دائمًا يذكرونها بالقوى والمزايا التي يتمتعون بها، والمشاهد والروائح التي لا تلتقطها سوى حواسهم الخارقة.

بين الجارحين كانت دائمًا تشعر بالتميز، لكن الآن — وقد أصبحت بمفردها في البرية — لم يكن من حدة رؤيتها إلا أن جعلتها تشعر بضآلتها، فعالم الطبيعة بتفاصيله ذات الجمال والجلال كان يبدو ضخمًا حتى كاد يبتلعها.

لم تنبهر مجموعة الهاربين البعيدة بوجهها الذي يشبه وجه الذئاب وأظافرها الحادة، كما لم تشعر بالرهبة حيال ذلك. وكيف يمكن لهم أن يشعروا بهذا وهم لم يلمحوها قط؟ كانت غير مرئية، لم تكن إلا منبوذة فحسب.

كانت تشعر بالارتياح حين ارتكب الأشقياء خطأ ثانيًا.

لقد توقفوا حتى ينصبوا الخيام على أحد جوانب هضبة مرتفعة محمية من الرياح القادمة من المحيط. وكانت الأعشاب الضارة قريبة من هذه المنطقة تلمع لمعانًا طفيفًا في حين أضفت الشمس المرتفعة على التلال الداخلية نفس درجة بياض الكثبان الرملية.

بسط الأشقياء ألواحهم وأثقلوها بحيث تبقى على الأرض، وأشعلوا نيرانًا لا بأس بها وتناولوا طعامهم. رأتهم تالي يغطون في النوم بسرعتهم المعتادة وقد أنهكهم السفر الطويل.

على هذا البعد من المدينة لم يعد عليها أن تقلق من أن يرى أحد ألواحهم، ولم تلتقط شبكة التواصل المغروسة في جلدها أية إشارة من الحراس طوال أيام، لكن بينما كانت تستعد ليوم مراقبة طويل لاحظت أن واحدًا من الألواح الطائرة — وهو لوح زين — قد رفعه نسيم البحر وأخذ يدور بسرعة وقوة حول الأرض المرتفعة.

اهتز اللوح وتدحرجت من عليه إحدى الأحجار التي كانت تثقل زواياه.

تنهدت تالي؛ فبعد أسبوع في هذه الرحلة لم يتعلم الهاربون بعد أن يقوموا بهذا على النحو الصحيح، لكنها شعرت بالهمة تعلو بداخلها، فتصحيح هذا الخطأ سيعطيها شيئًا تفعله على الأقل، وربما يخفف من شعورها بأنها تافهة. في هذه الدقائق القليلة لن تكون وحدها تمامًا، ستسمع أنفاس الأشقياء النائمين وتلقي بنظرة على زين من قرب أكثر. وكانت رؤيته وهو هادئ نائم لا يداهمه الارتعاش دائمًا تذكرها بالأسباب التي دفعتها إلى اتخاذ ما اتخذته من قرارات.

زحفت تالي نحو المعسكر وبذلة التخفي تتحول لتصبح في لون الوحل. كانت الشمس تشرق من خلفها لكن هذه المهمة أسهل كثيرًا من المهمة التي أدتها على ضفة النهر حيث شردت الألواح الثمانية جميعها. كان لوح زين الطائر لا يزال يترنح، وقد تحررت زاوية أخرى منه من ثقل الأحجار الموضوعة عليه، لكنه لم يكن قد انطلق في الجو بعد، ربما لأن الروافع المغناطيسية المزودة به تفاعلت مع عرق من الحديد مدفون في باطن الأرض، فعملت على رفع اللوح الطائر.

عندما وصلت تالي إلى اللوح كان يخفق كالطير الجريح، وكان النسيم الذي يدور حولها يحمل رائحة أعشاب البحر والملح. الغريب في الأمر أن شخصًا ما ترك كتابًا قديمًا مجلدًا بطبقة من الجلد مفتوحًا بجوار اللوح الطائر. كانت صفحاته تتصادم مصدرةً ضوضاء بفعل الرياح.

حدقت تالي في الكتاب، إنه يشبه ذلك الذي كان زين يقرؤه في أول ليلة رأته فيه بعد أن عاد من المستشفى.

تحررت زاوية أخرى من اللوح الطائر مما عليها من ثقل ورفعت تالي يدها لتمسك به قبل أن تحمله الرياح بعيدًا، لكن اللوح الطائر لم يتزحزح من مكانه.

يوجد أمر غير طبيعي هنا ...

ثم لاحظت تالي سبب عدم حركته، كانت الزاوية الرابعة مشدودة إلى وتد ثابت في وجه الريح، وكأن من وضعه هنا في مهب الريح يعلم أن ثقل الأحجار لا يكفي.

ثم سمعت صوتًا عبر صفحات الكتاب التي تخفق في الهواء، وصار من الواضح أن الكتاب الغبي الذي يصدر الضوضاء تُرك هنا عمدًا حتى يغطي على الأصوات الأخرى، إذ كان تنفس واحد من الأشقياء أقل انتظامًا من تنفس الآخرين ... يوجد شخص ما مستيقظ.

استدارت ورأت زينًا يراقبها.

هبت تالي واقفةً وخلعت قفازها وأخرجت السن في حركة واحدة، لكن زينًا رفع إحدى يديه، وكان فيها مجموعة من الأوتاد المعدنية وأدوات إشعال النيران، وحتى

لو تمكنت تالي على نحو ما من قطع الخمسة أمتار هذه ووكزه بالإبرة فإن كل هذا المعدن سيسقط إلى الأرض محدثًا جلبة ويوقظ بقية الهاربين.

لكن لماذا لم يطلق صيحة فحسب؟ انقبضت عضلاتها وهي تنتظر أن يطلق إنذارًا، لكنه بدلًا من هذا رفع أحد أصابعه إلى شفته.

كان التعبير الماكر المرتسم على وجهه يوجه لها الرسالة الآتية: «لن أنبس ببنت شفة، على شرط أن تلتزمي الصمت».

ابتلعت تالي ريقها مقلبةً بصرها في باقي الأشقياء الراقدين في الظلام، لم يكن أحد منهم يراقبها عبر عينين نصف مغمضتين، وإنما كانوا جميعًا غارقين في نوم عميق. كان يريد أن يتحدث معها على انفراد.

فأومأت إليه إيجابًا وقلبها يخفق بقوة.

تسللا معًا خارج المعسكر، ودارا حول الأرض المرتفعة إلى حيث تختفي كلماته في خضم هدير متواصل بفعل الرياح والأمواج المتلاطمة. الآن وقد بدأ زين يتحرك عاد الارتعاش مرة أخرى، وعندما هم بالاستقرار إلى جوارها على الحشائش القصيرة، لم تنظر إلى وجهه، فقد كانت تشعر بأن الاشمئزاز يهدد بأن يغمرها.

سألته: «هل الآخرون على علم بأمري؟»

«كلا، لم أكن أنا نفسي واثقًا، ظننت أنني أسير الوهم.» ولمس ذراعها قائلًا: «وأنا سعيد أنني لم أكن كذلك».

«لا أصدق أنني وقعت في هذه الحيلة الغبية.» ضحك قائلًا: «آسف لأنني استغللت طيبتك؟»

– «ماذا؟»

رأته بطرف عينها يبتسم، قال: «كنت تحمينا في اليوم الأول، أليس كذلك؟ حين نقلت الألواح الطائرة بعيدًا عن مرمى البصر؟»

– «صحيح، كان أحد الحراس على وشك أن يراكم يا مشوشي العقل.»

– «ظننت هذا، ولهذا فقد توقعت أنك ستمدين يد العون مرة أخرى، يا حارسنا الشخصي.»

ابتلعت تالي ريقها وقالت: «حسنًا، هذا رائع، من الجميل أن يقدرك الناس».

– «إذن، هل أنت بمفردك؟»

«نعم أنا بمفردي تمامًا.» ولقد كان هذا صحيحًا الآن على أية حال.

– «ليس من المفترض أن تكوني هنا، أليس كذلك؟»

– «تقصد أنني أعصي الأوامر؟ أخشى هذا.»

أومأ زين برأسه إيجابًا وقال: «أعرف أنك أنت وشاي كان لديكما حيل احتياطية حين تركتماني أرحل، أعني أنكما لم تتوقعا أن أستخدم أداة التتبع تلك التي أعطتني إياها». مد يده وأمسك بذراعيها فبدت أصابعه شاحبة على بذلة التخفي الرمادية الداكنة. «لكن كيف تتبعيننا يا تالي؟ لم تقومي بغرس شيء داخلي، أليس كذلك؟»

«نعم يا زين، ليس بك شيء، كل ما في الأمر أنني أبقى على مقربة منكم أراقبكم كل دقيقة، فليس من الصعب متابعة ثمانية من أبناء المدينة.» هزت تالي كتفيها وهي لا تزال تحدق في الأمواج المتلاطمة، وقالت: «أستطيع أن أشم رائحتكم أيضًا».

ضحك قائلًا: «آه، آمل ألا تكون قد صارت شديدة السوء حقًا».

هزت رأسها نفيًا وقالت: «كنت في البرية من قبل يا زين، وشممت روائح أسوأ، لكن لماذا لم ...؟» والتفتت نحوه لكنها خفضت بصرها مركزةً على سوستة سترته. «لقد نصبت لي فخًا لكنك لم تطلع باقي الأشقياء على الأمر؟»

قال زين: «لم أقصد أن أتسبب في إفزاع الجميع» وهز كتفيه وأضاف: «إن كانت مجموعة كاملة من المتميزين تتبعنا، فليس بأيديهم فعل الكثير، وإن كنت وحدك [illegible] أن يعرف الآخرين بالأمر لأنهم لن يتفهموا»

قالت تالي بخفوت: «يتفهمون ماذا؟»

تابع حديثه قائلًا: «أن الرحلة بأكملها ليست فخًا، وأنك وحدك معنا من أجل حمايتنا».

ابتلعت تالي ريقها، فبالطبع كانت الرحلة فخًا، لكن ما الذي آلت إليه الآن؟ صارت مزحة؟ مضيعة للوقت لا طائل من ورائها؟ الأرجح أن شاي ودكتورة كابل وباقي من في السلطات الخاصة ينتظرونهم بالفعل في الضباب الجديد.

ضغط زين على ذراعها وقال: «إنها تعمل على تغيرك مرة أخرى، أليس كذلك؟»

– «ماذا تقصد؟»

– «البرية، هذا ما كنت تقولينه دائمًا، أن السفر إلى الضباب تلك المرة الأولى هو ما جعلك على ما أنت عليه».

أشاحت تالي بوجهها لتحدق في المحيط شاعرةً بمذاق ملحه في فمها. كان زين محقًا، فالبرية تغيرها مرةً أخرى. كلما عبرت البرية بمفردها تتزلزل المعتقدات التي غرستها المدينة فيها. لكن هذه المرة كان ما تدركه تالي يزعجها بشدة. قالت: «لم أعد

واثقة من أنا يا زين، أحيانًا أظن أنني لست إلا ما فعله الآخرون بي، إنني مجموعة كبيرة من عمليات غسيل المخ والعمليات الجراحية ووسائل العلاج». نظرت إلى يديها المشوهة بالندوب والوشم يتحرك حركات سريعة متقطعة على راحة يدها. قالت: «هذا إضافةً إلى كل ما ارتكبته من أخطاء وكل من خيبت آمالهم من أشخاص».

تحسس الندبة بطرف إصبعه المرتعش فقبضت يدها وأشاحت بوجهها، قال: «لو كان هذا صحيحًا يا تالي لما كنت هنا في العراء الآن تعصين الأوامر».

– «صحيح، حسنًا، أنا أجيد عصيان الأوامر».

– «انظري إلي يا تالي».

«لست واثقة إن كانت هذه فكرة جيدة يا زين.» ابتلعت تالي ريقها وأضافت: «فأنت تعرف ...».

«أعرف، رأيت وجهك تلك الليلة، ولاحظت أنك لم تنظري إلي، من المنطقي جدًّا أن تفعل دكتورة كابل أمرًا كهذا؛ أن تجعل المتميزين يظنون أن الآخرين جميعهم لا قيمة لهم، أليس كذلك؟» هزت تالي كتفيها رغبة عن أن توضح له أن الأمر أسوأ مع زين منه مع الآخرين، وأحد أسباب هذا هو المشاعر التي كانت تكنها له من قبل، وما ينتج عنه من تناقض بين الحاضر والماضي، والسبب الآخر وراء ذلك ... هو ما قاله.

قال: «حاولي يا تالي».

أشاحت بوجهها وهي تكاد تتمنى للحظات لو لم تكن من المتميزين ولم تكن عيناها قد خضعتا لقياسات دقيقة تجعلها ترى ضعفه بكل تفاصيله، ولم يكن عقلها قد أصبح معاديًا لكل ما هو عادي و... معاق.

– «لا أستطيع يا زين».

– «بل تستطيعين».

– «ماذا؟ هل أصبحت خبيرًا في أمر المتميزين الآن؟».

– «كلا، لكن أتتذكرين ديفيد؟».

– «ديفيد؟» حدقت في البحر وسألته: «ماذا عنه؟».

– «ألم يخبرك ذات مرة أنك جميلة؟».

سرت رعشة في جسدها وقالت: «صحيح، عندما كنت من القبحاء، لكن كيف ...؟» ثم تذكرت تالي هروبهما الأخير وأن زينًا وصل إلى الأطلال القديمة قبلها بأسبوع،

فصار أمامه هو وديفيد ما يكفي من الوقت لأن يتعارفا قبل أن تظهر هي في النهاية، وسألته: «هل أخبرك بهذا الأمر؟».

هز زين كتفيه وقال: «لقد رأى كم كنت وسيمًا، وأظن أنه كان يأمل أن تكون على استعداد لصاحبته، كما كنت تصاحبينه عندما كنتما في الضباب القديم».

هزت تالي كتفيها وغمرتها موجة من الذكريات القديمة، في تلك الليلة قبل أن تخضع للعمليتين على يد السلطات الخاصة: عندما نظر ديفيد إلى وجهها القبيح – بشفتيه الرفيعتين وشعره المتجعد، وأنفه الأفطس – وقال إنها جميلة. حاولت أن تشرح كيف أن هذا لا يمكن أن يكون حقيقيًا، وأن علم الأحياء لا يمكن أن يسمح لهذا بأن يكون حقيقيًا ...

لكنه لم يزل يصفها بالجمال، بالرغم من أنها كانت قبيحة.

كانت هذه هي اللحظة التي بدأ فيها عالم تالي ينهار بأكمله، وتبدل موقفها لأول مرة.

شعرت فجأة بشفقة على ديفيد البائس ذي الوجه الفطري. فلأنه نشأ كأحد الضبابيين لن يخضع أبدًا للعملية ولم ير قط أناسًا من حسان المدينة في ذلك الوقت، ولذا فإنه قد يظن بالطبع أن لا ضير في أن ينظر إلى تالي يانج بلود القبيحة.

لكن بعد أن صارت من الحسان، سمحت نفسها لدكتورة كابل فقط لتقابل مع زين وأبعدت ديفيد عن طريقها.

– «ليس لهذا السبب اخترتك يا زين، ليس بسبب وجهك، وإنما بسبب ما فعلناه أنا وأنت معًا من تحرير لأنفسنا، وأنت تعرف هذا، أليس كذلك؟».

– «طبعًا، إذن ما المشكلة الآن؟».

– «ماذا تقصد؟».

«اسمعي يا تالي، عندما رأى ديفيد كم أنت جميلة، تصرف بنضج كبير، فقد نظر إلى ما وراء جلدك المعيب وعدم تناسق ملامحك، وكل العيوب الوراثية.» مد زين يده وأضاف: «وأنت الآن لا تستطيعين فقط النظر إليّ لأنني أرتعش قليلًا؟» حدقت تالي في أصابعه المريضة المرتعشة وقالت: «الأمر أسوأ من أن تكون من مشوشي العقل يا زين، فمشوشو العقل ليسوا إلا أغبياء، أما المتميزون فـ ... توجد أمور لا يكونون متفتحي العقل بشأنها. لكنني على الأقل أحاول أن أصلح الأمر. لماذا تظن أنني هنا أتبعك؟».

– «تريدين أن تعيديني إلى المدينة، أليس كذلك؟».

أطلقت صيحة استياء وقالت: «وما البديل؟ أن نجعل مادي تجرب واحدًا من أدويتها غير تامة الصنع؟»

«البديل بداخلك يا تالي، الأمر لا يتعلق بما أصاب عقلي من ضرر، الأمر يتعلق بما أصاب عقلك أنت.» اقترب منها بسرعة فأغمضت عينيها، وقال: «لقد حررت نفسك مرة من قبل وهزمت التشوش العقلي الذي يصيب الحسان، في البداية لم يتطلب الأمر سوى قبلة».

شعرت تالي بحرارة جسده بجوارها واشتمت رائحة دخان نار المعسكر في جلده، فأشاحت بوجهها وعيناها لا تزالان مغمضتين تمامًا، وقالت: «لكن الأمر مختلف حين تكون من المتميزين، فالأمر لا يتعلق بجزء ضئيل من عقلي، وإنما بجسدي كله، بنظرتي إلى العالم».

– «صحيح، أنت مميزة جدًا، ولا يستطيع أحد أن يلمسك؟»

– «زين ...»

– «أنت مميزة جدًا، لذا عليك أن تجرحي نفسك لتقري بداخلك أي شعور.»

هزت رأسها نفيًا وقالت: «لم أعد أفعل هذا.»

– «إذن تستطيعين أن تتغيري.»

«لكن هذا لا يعني ...» فتحت تالي عينيها.

كان وجه زين على بعد سنتيمترات منها، ونظرته تنفذ إلى أعماقها. لقد غيرته البرية على نحو ما هو أيضًا، فعيناه لم تعدا تبدوان لها عاديتين وشاحبتين، وأحست أن نظرته تكاد تكون رائعة، بل مميزة كنظرة المتميزين تقريبًا.

مالت واقتربت منه أكثر ... والتقت شفاههما دافئة وسط برودة ظل الهضبة. وصم هدير الأمواج أذنيها مغطيًا على صوت ضربات قلبها المتوترة.

اقتربت منه أكثر ودفعت يديها تحت ملابسه. أرادت أن تخرج من بذلة التخفي، ألا تظل بمفردها، وألا تظل غير مرئية. لفت ذراعيها حوله وضغطت عليه بقوة وهي تسمعه يشهق وهي تقبض عليه بيديها بشدة. وأحست بكل خلجة من خلجاته من خلال كل حواسها: فأحست بدقات قلبه الهادئة حين لمست عنقه، وتذوقت مذاق فمه، وشمت رائحة جسده غير المغتسل ممزوجةً برائحة ملح البحر.

ثم لمست أصابعه وجنتها وشعرت برعشتها.

قالت في صمت: لا.

كانت الرعشات ضعيفة، لا تكاد تذكر، في نفس ضعف صدى صوت الأمطار المتساقطة على بعد كيلومتر، لكنها كانت في جميع أنحاء جسده، في بشرة وجهه، في عضلات ذراعيه الملتفين حولها، في شفتيه الملتصقتين بها، وجهه كله كان يرتعش كطفل في البرد، وفجأة تمكنت تالي من سبر أغواره: رأت جهازه العصبي المدمر، وفساد التواصل بين جسده وعقله.

حاولت أن تمحو الصورة من ذهنها، لكنها صارت أكثر وضوحًا، إذ كانت قد صممت لتلتقط نقاط الضعف، حتى تنتهز نقاط الضعف في القطريين وتستغل عيوبهم، لا أن تتجاهلها. حاولت تالي أن تبتعد قليلًا لكن زينًا أحكم قبضته على ذراعها وكأنه ظن أنه يستطيع حبسها بين يديه. قطعت القبلة وفتحت عينيها محدقةً في الأصابع الشاحبة الممسكة بها، واستشاط غضبها فجأة.

قال: «تالي، انتظري، نستطيع ...».

لكنه لم يتركها، فامتلأت غضبًا واشمئزازًا، وأخرجت مجموعةً من الأشواك الحادة من سطح بذلتها؛ فصاح زين وتراجع إذ كانت أصابعه وراحتاه تنزفان.

ابتعدت تالي بصعوبة واقفة، وجرت. لقد قبلته، تركته يلمسها، تركت رجلًا ليس من المتميزين، ولا يكاد يكون عاديًا، شخصًا معاقًا ...

تصاعدت الصفراء في حلقها وكأن ذكرى تقبيلها له كانت تحاول أن تخرج من جسدها. تعثرت وجثت على إحدى ركبتيها وهي تشعر بالغثيان والدوار.

ناداها: «تالي!» كان زين يلاحقها.

قالت «لا تقترب!» ورفعت إحدى يديها دون أن تجرؤ على أن ترفع بصرها إليه. ساعدها استنشاق هواء البحر البارد النقي على التخلص من الشعور بالغثيان، ولكن هذا لن يحدث إن اقترب منها.

– «هل أنت بخير؟»

«هل أبدو بخير؟» داهمت تالي موجة من الخجل، ما هذا الذي فعلته؟ «حقًا لا أستطيع يا زين».

وقفت على قدميها ثم جرت نحو المحيط بعيدًا عنه. وعلى الرغم من أن الهضبة كانت تنتهي بجرف طباشيري، لم تهدئ تالي من سرعتها ...

قفزت دون أن تلامس ما تحت قدميها من صخر تقريبًا، وارتطمت بالمياه محدثةً صوت تلاطم، وغاصت في حضن المياه الثلجي. وجعلها المحيط الهائج جعلها تدور وكاد أن يجعلها ترتطم مرة أخرى بالشاطئ المفلول، لكنها دفعت نفسها

إلى أسفل بضربات قوية إلى أن لامست يداها قاع المحيط المظلم الرملي. بدأت المياه الهائجة تعود مرة أخرى متحولةً إلى تيار ممزق حولها. سحبت تالي نفسها إلى الخارج وهي تهدر في أذنيها محاولة أن تطرد أفكارها بعيدًا.

حبست تالي نفسها وغاصت تاركة المحيط يهدئها.

بعد دقيقة تركت تالي نفسها تخترق السطح شاهقة طلبًا للهواء. كانت على بعد نصف كيلومتر من المكان الذي انطلقت منه، مبتعدة عن الشاطئ بمسافة كبيرة يحملها التيار جنوبيًا.

كان زين على حافة الجرف يقلب بصره في المياه بحثًا عنها، ويداه النازفتان ملتفتان في سترته. بعد ما فعلته تالي لم تعد تستطيع أن تواجهه، ولم تعد تريد أن يراها أحد وهي بجواره. كانت تريد أن تختفي. سحبت القلنسوة وجعلت بذلتها تتخذ شكل المياه الفضية المتموجة، وأخذت تبتعد وتبتعد. وفي النهاية عندما عاد إلى المعسكر، سبحت تالي باتجاه الشاطئ.

الفصل الثامن عشر

العظام

بعد ذلك بدا أن الرحلة ستمتد للأبد.

في بعض الأيام كانت تشعر أن شرائح تحديد المواقع ليست إلا حيلة من حيل الضبابيين، الهدف منها أن يظلا يجوبان البرية إلى ما لا نهاية: زين المعاق يبذل جل طاقته للبقاء على قيد الحياة في ليالي السفر الطويلة، وتالي المضطربة نفسيًا وحدها في بذلة التخفي معزولة وغير مرئية، وكل منهما في جحيم مختلف.

ودت لو عرفت طبيعة شعور زين نحوها الآن. بعد ما حدث لا بد أنه أدرك كم هي ضعيفة، فما هي إلا آلة القتال الخبيثة التي صنعتها دكتورة كابل لتقتل مخلوقاتها قتلة، ويثير غثيانها رؤية يد ترتجف فحسب.

حين تذكرت ذلك كله، راودتها الرغبة في أن تجرح نفسها وأن تمزق لحمها حتى تتغير من الداخل، وتصبح أقل تميزًا وتزداد إنسانيةً، لكنها لا تريد أن تعود إلى جرح نفسها بعد أن أخبرت زينًا أنها أقلعت عن ذلك، سيكون هذا بمنزلة الحنث بعهد قطعته له.

ودت تالي لو عرفت إن كان قد أخبر الأشقياء الآخرين بشأنها أم لا؟ هل هم يخططون من الآن للقيام بأمر ما، لنصب كمين لها وتسليمها للضبابيين؟ أم أنهم سيحاولون الهروب ويتركونها في البرية وحدها إلى الأبد؟

فكرت في التسلل إلى المعسكر مرةً أخرى أثناء نوم الآخرين والإفضاء إلى زين بمدى شعورها بالحزن، لكنها لم تحتمل أن تواجهه، ربما تكون قد تمادت هذه المرة، إذ كادت أن تتقيأ في وجهه، فضلًا عن إصابته بجروح في يديه.

لقد فقدت شاي الأمل فيها من قبل. فماذا ستفعل لو قرر زين أيضًا أنه يأس من تالي يانج بلود؟

وبعد أسبوعين تقريبًا توقف الأشقياء على جرف يقع على ارتفاع كبير فوق البحر.

رفعت تالي بصرها إلى النجوم، فاكتشفت أنه لا يزال ثمة وقت طويل على بزوغ الفجر، وكان خط السكة الحديدية ممتدًا أمامهم بلا انقطاع، لكن الهاربين جميعهم قفزوا من على ألواحهم الطائرة وتجمعوا حول زين ناظرين إلى شيء في يده.

إلى شريحة تحديد المواقع.

راقبتهم تالي وظلت تنتظر وهي تحوم بلوحها الطائر أسفل حافة الجرف البحري مباشرةً ومراوح الرفع تساعدها على الارتفاع فوق الأمواج المتلاطمة. بعد دقائق قليلة مرت بطيئًا، رأت دخانًا يتصاعد من نار معسكر، وكان من الواضح أن الأشقياء لن يواصلوا المسير الليلة. اقتربت بلوحها الطائر وتعلقت بالجرف.

ثم اقتربت من المعسكر وهي تدور حوله في الحشائش الطويلة. ورأت ومضات من الأشعة تحت الحمراء تظهر فجأة والأشقياء يسخنون وجباتهم.

أخيرًا وصلت تالي إلى بقعة تحمل فيها الرياحُ أصوات وروائح طعام المدينة إليها.

كانت إحدى الفتيات تقول: «وماذا سنفعل إن لم يأت أحد؟».

أجابها صوت زين: «سيأتون».

– «متى؟».

– «لا أعرف، لكن ليس أمامنا خيار آخر».

بدأت الفتاة تتحدث عن إمدادات المياه لديهم، وأنهم لم يروا نهرًا طوال الليلتين الماضيتين.

غاصت تالي بين الحشائش مرة أخرى وقد شعرت بالارتياح، فجهاز تحديد المواقع أرشدهم إلى التوقف هناك، ومن الواضح أن هذا ليس الضباب الجديد، لكن ربما تنتهي هذه الرحلة المريعة قريبًا.

أخذت تتلفت حولها وهي تتشمم الهواء وتحاول اكتشاف الأمر الذي يميز هذا المكان. بين روائح الوجبات ذاتية التسخين، شمت تالي رائحةً أثارت اشمئزازها ... رائحة شيء نتن.

تسللت ببطء تجاه الرائحة عبر الحشائش الطويلة وهي تنعم النظر في الأرض، وأخذت الرائحة النتنة تزداد قوةً إلى أن اشتدت حتى كادت تجعلها تتقيأ. ووجدت مصدرها على بعد مائة متر من المعسكر: كانت كومة من الأسماك الميتة، رءوس وذيول وسلاسل ظهر بغير لحم تغطيها سحابة من الذباب واليرقات.

ابتلعت تالي ريقها وهي تحاول تهدئة نفسها وأخذت تفتش في المنطقة المحيطة بالكومة، وفي منطقة مكشوفة صغيرة اكتشفت بقايا نار معسكر قديمة. كان الخشب المحترق باردًا والرماد نثرته الرياح، لكن لا بد أنه يوجد من خيم هنا، وبالأحرى، من خيموا هنا.

كانت النار الخامدة في حفرة عميقة جوانبها عالية لحمايتها من نسيم البحر، وقد أشعلت على نحو يجعلها تبعث الحرارة بكفاءة. وعلى عادة جميع حسان المدينة كان الأشقياء دائمًا يستغلون النيران طلبًا للضوء لا للحرارة، وذلك بإشعال الأخشاب بشكل طائش، أما هذه النار فقد أشعلتها أيد متمرسة.

لمحت تالي شيئًا أبيض بين الرماد، ومدت يدها فيه حتى تشده برفق...

وجدت عظمة في طول يدها تقريبًا، لم تستطع تحديد نوع الكائن الذي جاءت منه العظمة، لكن كان بها أماكن غائرة واضحة حيث نهشتها أسنان بشرية للوصول إلى النخاع.

لم تستطع تالي أن تتخيل أن أطفال المدينة يأكلون اللحم بعد قضاء أسبوعين فقط في البرية، بل إن الضبابيين أنفسهم نادرًا ما يصطادون للحصول على الطعام، فهم يربون الأرانب والدواجن، لكنهم لا يربون أي حيوانات في ضخامة الكائن الذي جاءت هذه العظمة منه. أيًا كان، إضافة إلى هذا، تركت الأسنان علامات غير متناسقة أي أن ذلك الشخص — أيًا كان — لا يزور عيادات الأسنان. الأرجح أن واحدًا من جماعة أندرو هو من أشعل هذه النار.

سرت قشعريرة في جسدها، فمن قابلتهم من أهل القرية كانوا ينظرون إلى الغرباء باعتبارهم أعداء، وباعتبارهم حيوانات يمكن صيدها وقتلها، ولم يعودوا ينظرون إلى الحسان على أنهم «آلهة». ودت تالي لو عرفت شعور أهل القرية حيال اكتشافهم أنهم أمضوا حياتهم كلها خاضعين لتجربة، وأن آلهتهم الجميلة ليست سوى بشر.

وأخذت تفكر إن كان أي ممن جندهم الضبابيون قد فكر في الثأر من حسان المدينة.

هزت تالي رأسها نفيًا؛ فالضبابيون وثقوا في أندرو بما يكفي لكي يكلفوه بمهمة إرشاد الهاربين إلى هنا. المؤكد أن الآخرين الذين جندوهم ليسوا مهووسين بالقتل.

لكن ربما تعلم القرويون الآخرون الهروب من «الأقزام ضئيلي الحجم» المحيطين بهم؟

ظلت تالي مستيقظةً والفجر يقترب، دون أن تعبأ بأخذ إغفاءة كعادتها. وأخذت تراقب السماء بحثًا عن علامات تدل على مرور عربات طائرة كالعادة، لكنها ظلت تراقب الطريق الداخلي المؤدي إلى الجروف والأشعة تحت الحمراء تعمل بأقصى طاقتها. لم تتخلص تالي تمامًا من الاضطراب السيئ الذي أصاب معدتها إثر رؤية كومة الأسماك النتنة.

جاءوا بعد الشروق بثلاث ساعات.

الوافدون الجدد

أظهرت الأشعة تحت الحمراء أربعة عشر شبحًا يتسلقون ببطء التلال الداخلية الغافية، تكاد تخفيهم الحشائش الطويلة.

قامت تالي بتشغيل بذلة التخفي وشعرت بنسيجها يتصلب ويقف ليحاكي الحشائش، مثل شعر قطة خائفة. وكانت الهيئة الوحيدة التي استطاعت رؤيتها بوضوح هي الفتاة التي في مقدمة المجموعة، كانت من أهل القرية بالتأكيد، إذ كانت ملابسها مصنوعة من الجلد وتحمل رمحًا.

اندست تالي بين الحشائش وهي تتذكر أول مرة قابلت فيها أهل القرية، فقد انقضوا عليها في منتصف الليل وكانوا على وشك قتلها وكل جريمتها أنها غريبة عليهم. لا بد أن الأشقياء يغطون في نوم عميق الآن.

وإن وقع أي عنف، فسيقع فجأةً دون أن تتاح لتالي فرصة تُذكر لإنقاذ أحد. ربما يجب أن توقظ زينًا الآن وتخبره بالخطر القادم ...

لكن عندما خطر ببالها أنه قد يلمح في عينيها الازدراء الذي تكنه له، أصابها الدوار.

أخذت تالي نفسًا عميقًا وأخذت تحاول تهدئة نفسها، وأحست أنها تعاني من الشك الزائد في نوايا الآخرين بفعل ليالي السفر الطويلة التي قضتها وهي بمفردها متخفيةً وتحاول أن تحمي شخصًا غاليًا لا يريدها أن تكون معه. لن يكون بإمكانها أن تفترض أن الجماعة القادمة تمثل تهديدًا إلا إذا تمكنت من الرؤية من زاوية أفضل.

زحفت تالي على يديها وركبتيها بسرعة بين الحشائش الطويلة متجنبةً كومة الأسماك النتنة. عندما اقتربت تالي قليلًا سمعت صوتًا واضحًا يدوي في الحقول

يحمل رنة غير مألوفة باللغة الغريبة التي يتكلم بها أهل القرية. لم تكن الأغنية ذات طابع يوحي بالحرب، بل كان طابعها يوحي بالسعادة، كأغنية تغنيها عندما يفوز الفريق الذي تشجعه في مباراة كرة قدم.

هؤلاء بالطبع يعتبرون العنف العشوائي أشبه بمباراة كرة قدم.

وبينما اقتربوا منها رفعت تالي رأسها ...

وتنفست الصعداء؛ إذ كان اثنتان فقط من الجماعة التي تقترب ترتديان الجلود، أما الباقون فكانوا من حسان المدينة وكان يبدو عليهم التعب وتعوزهم النظافة والهندام، لكن من المؤكد أنهم ليسوا همجيين. كان أفراد الجماعة بأكملها يحملون قِرَب المياه على أكتافهم، وقد انحنى ظهر مشوشي العقول تحت وطأة ثقلها، بينما كان القرويتان تحملانها دون أدنى جهد. أخذت تالي تتطلع في المدى نحو الجهة التي جاءوا منها، ورأت وميض مياه يأتي من خليج صغير متفرع من المحيط، واتضح أنهم لم يخرجوا إلا للحصول على الإمدادات.

وحينما تذكرت تالي كيف اكتشف أندرو موقعها ظلت بعيدةً عن الجماعة بمسافة بعيدة، لكنها أتاحت لها رؤية ملابسهم. كان مظهر حسان المدينة سيئًا جدًا، وأبعد ما يكون عن مسايرة الموضة، بل ربما تخلف مظهرهم عن الموضة ببضع سنوات [illegible]. لكن هؤلاء الفتية لم يمضوا كل هذه المدة في البرية.

ثم سمعت تالي فتىً يسأل عن المسافة التي تفصلهم عن المعسكر الذي جاءوا منه، وسرت القشعريرة في جسدها حين لاحظت غرابة لكنته؛ إذ كانوا من مدينة أخرى، مدينة بعيدة جدًا حتى إن لهجة سكانها تختلف. بالطبع فهي في منتصف الطريق إلى خط الاستواء، وقد ظل الضبابيون ينشرون التمرد الضعيف في كل الأرجاء.

أخذت تفكر ترى ما الذي أتى بهم إلى هنا؟ طبعًا لا يمكن أن تكون هذه الرقعة من المنحدر الصخري هي الضباب الجديد. أخذت تالي تتسلل خلف الجماعة وهي لا تزال تراقبهم بحذر وهم يتقدمون نحو الأشقياء النائمين.

فجأة توقفت إذ انتابها شعور غريب، أحست بوجود شيء ما من حولها، وكأن الأرض تدمدم من تحتها.

جاءت ضجة غريبة من بعيد، كانت منخفضة وذات إيقاع منتظم، كأنه صوت أصابع ضخمة تدق على منضدة. أخذ الصوت يعلو ويخفت بضع لحظات ثم أصبح مستقرًا.

وبدأ الآخرون يسمعونها الآن، فأطلقت القروية التي تتقدم الجماعة صيحةً وهي تشير نحو الجنوب، فتطلع حسان المدينة جميعهم في ترقب، ورأت تالي آلة تنطلق بسرعة بين التلال نحوهم وهي تطلق صوتًا كقصف الرعد، ومحركاتها تلمع في الأشعة تحت الحمراء.

رفعت تالي جسدها بحيث صارت منحنيةً نصف انحناءة وبدأت تجري نحو لوحها، والصوت الرتيب يعلو من حولها. تذكرت تالي أول رحلة لها إلى البرية، عندما ذهبت إلى الضباب على متن مركَبة طائرة غريبة من عهد الأطلال القديمة. كان حراس الغابات — وهم من العلماء المتخصصين في التاريخ الطبيعي — يستخدمون آلات غريبة مثل هذه لمكافحة الأعشاب البيضاء الضارة.

ماذا كان اسم تلك الآلات؟

لم تتذكر تالي الاسم إلا بعد أن عادت إلى لوحها الطائر.

هبطت «الطائرة المروحية» على مقربة من حافة المنحدر الصخري.

كان حجمها يبلغ ضعف حجم الطائرة المروحية التي ركبتها تالي إلى الضباب، وهبطت بعنف بالغ، ومروحتها تثير دوامة تضرب الحشائش على مساحة دائرة واسعة. كانت «الطائرة المروحية» تطير بفضل ريشتين كبيرتين دوارتين تضربان الهواء بلا هوادة مثل مراوح الرفع الضخمة. ومع أن تالي كانت قابعة في مكمنها، فقد شعرت بالانزعاج من صوت هاتين الريشتان الذي أخذ ينفذ إلى عظامها الخزفية، وكان لوحها الطائر يتأرجح تحتها كحصان هائج في العاصفة.

لاحظت تالي أن الأشقياء مستيقظون الآن وقد أيقظهم بالطبع صوت الدقات المدوية. رآهم ذلك الذي يقود الطائرة المروحية من أعلى، وانتظر حتى يلتفوا بألواحهم الطائرة قبل أن يهبط، وعندما هبطت المروحية كانت المجموعة الأخرى قد عادت إلى المنحدرات الصخرية. أخذت كل جماعة من الهاربين تراقب الأخرى بحذر وأفراد طاقم المروحية يقفزون منها إلى الحشائش المنسحقة.

تذكرت تالي أن حراس الغابات كانوا من مدينة ذات توجهات مختلفة عن توجهات مدينتها، مدينة لا تكترث على الإطلاق بوجود الضباب من عدمه، فهمُّهم الأساسي هو الحفاظ على الطبيعة من الآفات المهندسة وراثيًا التي خلفها سكان الأطلال القديمة، وخاصةً الأعشاب البيضاء الضارة. كان حراس الغابات أحيانًا يتبادلون الخدمات مع الضباب القديم، فكانوا يوصلون الهاربين بآلاتهم الطائرة.

كانت تالي تطمئن إلى حراس الغابات الذين التقت بهم، كانوا من الحسان لكنهم — كرجال الإطفاء والمتميزين — لم يكونوا مصابين بالتشوش العقلي. فالقدرة على التفكير دون الاعتماد على أحد تعد من متطلبات وظيفتهم، وهم يتمتعون بالكفاءة نفسها التي يتمتع بها الضبابيون، لكن الفارق أن وجوههم ليست قبيحة.

ظلت ريشتا الطائرة المروحية تدوران وهي تستقر على الأرض، فأثارت الهواء من تحت لوح تالي حتى صار من المستحيل أن تسمع أي شيء، لكنها من موقعها المتميز أسفل حافة المنحدر الصخري المطل على البحر رأت زينًا وهو يقدم نفسه وباقي الأشقياء إلى الوافدين الجدد. فيما يبدو لم يعبأ حراس الغابات بذلك، فبينما كان أحدهم يستمع إليه أخذ الآخرون يتفحصون ألتهم القديمة المشاكسة. غير أن القرويتين أخذتا ترمقان الوافدين الجدد بارتياب إلى أن أخرج زين جهاز تحديد المواقع.

وما إن وقع بصر القرويتين عليه حتى أخرجت إحداهما عصا ماسحة وبدأت تلوح بها حول جسد زين. وقد لاحظت تالي أنها أبدت اهتمامًا ملحوظًا بفحص أسنانه. أما القروية الأخرى فكانت منشغلة بفحص فرد آخر من الأشقياء بالعصا الماسحة، وراحت الاثنتان تفتشان الوافدين الجدد تفتيشًا دقيقًا.

ثم بدأتا في توجيه الهاربين العشرين إلى الطائرة المروحية. كانت الآلة أكبر من العربات الطائرة التابعة لحراس المدينة، لكنها كانت بدائية الصنع وكثيرة الضجيج وعتيقة المظهر ... وودت تالي لو عرفت كيف ستحملهم جميعًا.

لم يبدُ القلق على حراس الغابات، إذ أخذوا يضعون ألواح فتية المدينة على الهيكل السفلي للطائرة ويحشرونها جنبًا إلى جنب مغناطيسيًا.

ولما كانت المروحية ستكتظ بالهاربين الذين صعدوا على متنها، فسيكون من الأفضل أن تكون الرحلة قصيرة ...

المشكلة أن تالي لم تكن تدري كيف ستتمكن من تتبعهم، فالطائرة المروحية التي سبق لها ركوبها كانت تفوق أي لوح طائر بكثير من حيث السرعة والقدرة على الطيران على ارتفاعات عالية، وإن غاب نظرها عنهم، فلن تتمكن من تعقب الأشقياء ما تبقى من الطريق إلى الضباب الجديد.

إن اقتفاء الأثر بالطرق القديمة له عيوبه.

وودت تالي لو عرفت ما فعلته شاي حين وصلت إلى هذه المرحلة. قامت تالي بزيادة مدى شبكة التواصل لكنها لم تجد أثرًا لغيرها من المتميزين بالقرب منها، ولم تجد أية إشارات صوتية تشير إلى وجود رسالة في انتظارها.

لكن لا بد أن جهاز تحديد المواقع الخاص بأندرو أرشد شاي إلى هنا أيضًا. هل تنكرت في هيئة أحد القبحاء وحاولت أن تخدع القرويتَين؟ أم أنها تمكنت على نحو ما من تتبع المروحية؟

نظرت تالي إلى هيكل الطائرة السفلي مرة أخرى، فوجدت أن به مساحة تكفي شخصًا واحدًا بين الألواح الطائرة العشرين المتراصة جنبًا إلى جنب مغناطيسيًّا.

ربما تكون شاي قد ركبت معهم خلسةً ...

ارتدت تالي قفازيها المقاوِمَين للانزلاق استعدادًا للخطوة القادمة. قررت أن تنتظر إلى أن تقلع الطائرة ثم تتبعها مسافة قصيرة فوق التلال، وبعدها ترتفع بسرعة وسط العاصفة التي تثيرها الريشات الدوارة.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها، بعد أسبوعين من تعقب الأشقياء خلسةً سيسعدها أن تواجه تحديًا حقيقيًا، تحديًا يجعلها تشعر أنها من المتميزين مرة أخرى.

ومن الأفضل أن يكون الضباب الجديد قريبًا، إذ كاد التعب يبلغ منها مبلغه.

الفصل العشرون

المطاردة

عاجلاً سيتم إدخال الحسان جميعهم المروحية وتتراجع القرويتان إلى الخلف وهما تلوحان وتبتسمان.

لم تنتظر تالي إلى أن تقلع المروحية، وإنما توجهت إلى جنوب الساحل نحو الاتجاه الذي أتت منه المروحية، وحرصت على التحليق على ارتفاع منخفض عن ارتفاع المنحدرات الصخرية حتى لا يراها أحد. تكمن خطتها الماكرة في أن تنتظر إلى أن تبتعد المركبة ما يكفي عن القرويتين، ثم ترتفع إلى السماء المكشوفة. فبعد أسابيع من الاختباء لم تكترث أن يراها أحد وهي على هذه المسافة القريبة من هدفها.

تغيرت درجة ارتفاع صوت ريشات مراوح المروحية، إذ تحول الطنين ببطء إلى صوت ضربات هادرة تدوي في الجو. قاومت تالي رغبتها الملحة في الالتفات خلفها، ولم ترفع عينيها عن سلسلة الجرف الصخرية الوعرة الملتوية. وأخذت تنطلق بلوحها بطول سلسلة هذه السلسلة دون أن تبتعد إلا بمسافة ذراع وهي تطير على ارتفاع منخفض بمنأى عن الأنظار.

أنبأتها حاسة السمع حين ارتفعت المروحية في الجو خلفها، فزادت من سرعة لوحها الطائر، وهي لا تدري أقصى سرعة تصل إليها الآلة الغريبة التي تعود إلى الأطلال القديمة.

لم يسبق لتالي قط محاولة زيادة سرعة أي لوح مصمم للسلطات الخاصة للوصول إلى أقصى سرعة، وعلى عكس الألواح الطائرة المصممة خصوصًا للعاديين، فإن ألواح الجارحين ليست مزودة بأي من نظم الأمان التي تمنع المرء من ارتكاب الأخطاء، فمن الممكن أن تواصل مراوح الرفع الدوران حتى تصبح مفرطة السخونة، أو تتعرض لما هو أسوأ. وقد علمت أثناء التدريب الذي يتلقاه الجارحون أن تعطل

المراوح لا تحمد عقباه، فمن الممكن أن يحثها الراكب على العمل إلى أن تتمزق إربًا، وتتحول إلى وابل من الشظايا المعدنية شديدة السخونة ...

فعّلت تالي الرؤية بالأشعة تحت الحمراء، ونظرت إلى أسفل حيث المروحة الموجودة أمام قدمها اليسرى فوجدت أنها تتوهج بوهج أحمر كجمرات نار المعسكر.

كانت المروحية تقترب من تالي واقترب منها صوتها المدوي وهي تضرب الهواء محيطًا بها من فوقها وخلفها، فانخفضت أكثر أسفل مستوى ارتفاع المنحدر الصخري، حيث الأمواج المتلاطمة التي تمر أسفلها في صورة ضبابية، والصخور الناتئة التي تكاد ترتطم بها فتفصل رأسها عن جسدها.

وحينما اقتربت المروحية أكثر فوقها مباشرةً، كانت تطير على ارتفاع مائة متر من الأرض، وكانت لا تزال تواصل الارتفاع. وأصبح عليها أن تتخذ الخطوة الآن.

استدارت تالي وارتفعت بسرعة فوق حافة الجرف وهي تطير على ارتفاع منخفض من الأرض بحثًا عن بقعة تقع تحت المروحية مباشرةً وتكون بعيدةً عن نوافذها البارزة. ومن خلفها كانت القرويتان قد تضاءلتا حتى صارتا نقطتين فقط. وكانت بذلة التخفي التي ترتديها قد اتخذت اللون الأزرق السماوي لشفق السماء، فحتى لو تطلعت القرويتان باتجاهها فلن تريا إلا لوحها الطائر من بعيد.

وأثناء صعود تالي شعرت بالآلة البارزة بينما لوحها يرتعد؛ إذ كانت دوامة الهواء التي تدور تحت الطائرة المروحية تضربها بأيد خفية. أخذ الهواء حولها ينبض، وكأنه نظام صوتي ضُبط مستوى الصوت فيه على أعلى درجة.

فجأة سقط لوحها الطائر من تحتها ووجدت نفسها تسقط للحظات، ثم ارتفع سطحه المقاوم للانزلاق تحت قدميها مرةً أخرى، فنظرت إلى أسفل لتكتشف إن كانت إحدى المروحتين قد تعطلت، لكنها وجدتهما تدوران، ثم سقط لوحها مرةً أخرى فأدركت تالي أنها كانت تصطدم بمطبات عشوائية من الضغط المنخفض في هذه الدوامة، ووجد اللوح نفسه فجأة بدون هواء يكفي لدفعه.

ثنت تالي ركبتيها وأخذت ترتفع بسرعة أكبر، دون أن تعبأ بسخونة مراوح الرفع، وبالضربات الشديدة التي توجهها لها العاصفة المحيطة. لم يكن لديها وقت لتوخي الحذر، فالمروحية كانت لا تزال ترتفع وتزيد من سرعتها، وسرعان ما سيكون من الصعب على تالي اللحاق بها.

فجأة، هدأت الرياح والضوضاء، لقد وصلت إلى منطقة من السكون، كقلب الإعصار. رفعت تالي بصرها فوجدت أنها تحت بطن المركبة مباشرةً محميةً

من الاضطراب الذي تثيره ريشات المروحة الدوارة، هذه هي فرصتها لتركب المروحية.

ارتفعت وهي تمد يدها المرتدية القفاز المقاوم للانزلاق، وشعرت بشيء يشد سواري الصدمات إلى أعلى بفعل الهيكل المعدني للمروحية. لم يبق أمامها إلا متر واحد وتصل إليها ...

فجأة بدا أن العالم حول تالي يتأرجح، ومالت بطن المروحية نحو أحد الجانبين ثم ابتعدت عنها. كانت المركبة تنعطف متجهةً فجأة بميل حاد، وبذلك حرمتها من الحماية التي يوفرها هيكلها الضخم، فصارت تالي كريشة في مهب الريح.

صدمت الرياحُ تالي بتيار هائج وعصفت بقدميها من تحتها وأخذت تهز لوحها. وأخذت أذناها تطنان بسبب تيارات دوامة الهواء التي أحدثتها حركة المروحية، وفي لحظة مرعبة رأت الريشات العملاقة تلوح بالقرب منها، وصوت ضرباتها المدوية يجتاح جسدها.

لكن بدلًا من أن تمزقها الريشات إربًا أطاح بها عنف العاصفة التي خلفتها، فدارت في الجو والأفق يدور من حولها. وللحظات فقدت حاسة الاتزان الفائقة التي تتمتع بها، وكأن العالم في دوامة تنطلق نحو الفوضى.

بعد ثوانٍ قليلة من السقوط شعرت بشيء يشد معصمها، فأصدرت الإيماءة اللازمة لاستدعاء لوحها الطائر. كان اللوح قد طار أفقيًا وكان يندفع نحوها بأقصى سرعة، وصارت مراوح الرفع الخاصة به شديدة السخونة حتى إنها صارت أشد توهجًا من الشمس.

أمسكت تالي باللوح فأحرق سطح الركوب مفرط السخونة يديها بالرغم من ارتدائها القفاز، وكانت رائحة البلاستيك المقاوم للانزلاق عند نقطة الانصهار تثير أنفها. بلغت الحرارة درجة جعلت بذلة التخفي التي ترتديها تالي تحول نفسها لتصبح في هيئة مدرعة لتحميها قليلًا.

كانت تالي لا تزال تدور وظلت معلقة باللوح للحظة إلى أن جعلتها هيئتُها التي تشبه الجناح تستقر، ثم تسلقت حتى صعدت عليه ونهضت متخذةً وضع الركوب.

حولت تالي بذلة التخفي فتحول لونها إلى اللون السماوي ونظرت أمامها فوجدت أن المروحية تبتعد في المدى.

ترددت تالي وأدركت أنها يجب أن تستسلم الآن، وأن تعود إلى نقطة الالتقاء وتنتظر المجموعة التالية من الهاربين، فمن المؤكد أن الطائرات المروحية تقوم بمثل هذه الرحلة بانتظام.

لكن زينًا كان هناك بداخل تلك الطائرة وهي لا تستطيع أن تتخلى عنه الآن، أيضًا فإن شاي وباقي أفراد السلطات الخاصة قد يكونون في طريقهم إلى الضباب الجديد.

حثت تالي لوحها مفرط السخونة على الإسراع بدرجة أكبر، فلقد فقدت الطائرة المروحية الارتفاع والسرعة وهي تنعطف، وسرعان ما تمكنت تالي من اللحاق بها.

بدأت حرارة سطح اللوح الطائر تحرق باطن قدميها، وشعرت تالي بذبذبته تتغير تحتها. كانت المراوح المعدنية تتمدد في الحرارة المفرطة مغيرةً صوت اللوح وملمسه. دفعته تالي إلى الأمام إلى أن بدأت العاصفة التي تدور حول الطائرة المروحية تضربها بقوة مرةً أخرى، وأخذ الهواء يصدر صفيرًا وهي تقترب مرةً أخرى.

لكن هذه المرة كانت تالي تعرف ما الذي ينتظرها، إذ كانت قد عرفت شكل الدوامة الخفية بفضل الرحلة الأولى التي قطعتها خلالها، وعن طريق حدسها استطاعت تالي أن تصل عبر تيارات الدوامة العكسية وغير العكسية إلى بؤرة حماية تحت المركبة.

حينئذ كان لوحها الطائر يصدر عواءً قويًا لكنها دفعته على الصعود نحو الجزء السفلي من المروحية وهي تبسط ذراعيها ...

وأخذت تقترب وتقترب.

شعرت تالي بلحظة الانهيار من خلال باطن قدميها، إذ تغير اهتزاز اللوح المقلقل فجأة وتحول إلى رجفة قوية، وتناهى إلى سمعها صوت صرخة معدنية ومراوح الرفع تتفكك، وأدركت أنه لم يعد أمامها إلا الانطلاق إلى أعلى، فثنت ركبتيها وقفزت ...

وعند أعلى نقطة وصلت إليها سارعت لتحاول التعلق بشيء فاحتكت يداها بالألواح الطائرة المتراصة، لكنها كانت مكتظة في طبقات سميكة ليس بينها أي موضع يد، وكانت دعائم الهبوط الخاصة بالطائرة المروحية بعيدة عن كلا الجانبين.

بدأت تالي تسقط ...

ضغطت تالي على أجهزة التحكم الخاصة بسواري الصدمات اللذين ترتديهما وضبطتهما بحيث تعمل البطاريتان بأقصى طاقتيهما كي تسحباها نحو كميات المعادن الوفيرة الموجودة في الأعلى بأقصى قوة ممكنة. أطبقت قوة مفاجئة ساحقة

على معصميها، وهي قوة المغناطيس المجتمعة للألواح العشرين التي بدأت تعمل وتبسط سيطرتها. سحبها السواران إلى أعلى مثبتين إياها على أقرب لوح وذراعاها تكادان تُنتزعان من تجويفيهما بسبب السحبة المفاجئة.

في الأسفل تحولت صرخة لوحها الطائر الحادة إلى حشرجة ثم سقط بعيدًا، فالتقطت أذنا تالي صرخة معادنه وهو يتحطم أثناء سقوطه إلى أن بددت مروحة الطائرة تلك الضجة.

وجدت تالي نفسها ملتصقةً بالجانب الأسفل من الطائرة المروحية واهتزازها يزلزل جسدها كالأمواج المتلاطمة.

أخذت تفكر للحظة إن كان الربان والركاب سمعوا صوت تحطم لوحها، لكن بعدها تذكرت تالي الرحلة التي قطعتها هي نفسها بالطائرة المروحية قبل عام إذ كانت هي وحراس الغابات يضطرون إلى رفع أصواتهم حتى تعلو على جلبة مروحة الطائرة ليسمع بعضهم بعضًا.

بعد دقائق قليلة قضتها متعلقةً بمعصميها أغلقت تالي المغناطيس في أحد سواريها وأرجحت قدميها ولفتهما حول إحدى دعائم الهبوط. أغلقت مغناطيس السوار الآخر ثم تعلقت من الدعامة ورأسها متجه إلى أسفل للحظة في الرياح الهائجة، ثم سحبت نفسها إلى أعلى حتى تستقر في فجوة صغيرة بين الألواح الطائرة المتراصة، ومن هنا راقبت والرحلة تكشف عن خباياها.

مضت المروحية في طريقها والمشهد يزداد خضرة والغابات تزداد كثافةً والبحر يبتعد عنهم. ارتفعت الطائرة ارتفاعًا أكبر ومضت بسرعة أشد إلى أن أصبحت الأشجار بلون أخضر غائم في الأسفل. لم يلمس العشب الأبيض الضار سوى مناطق قليلة في تلك المنطقة.

أحكمت تالي قبضتها وخلعت قفازيها وتفحصت يديها، فوجدت كفيها محروقَتين تلتصق بهما أجزاء قليلة من البلاستيك المنصهر، لكن الوشم المتحرك كان لا يزال ينبض كله بما في ذلك الوشم الذي تخترقه الندوب الناجمة عن جرحها لنفسها. كانت البخاخة الطبية قد ضاعت مع اللوح الطائر هي وكل متاعها، باستثناء سواري الصدمات والسكين التي تستخدمها في طقوسها وبذلة التخفي.

لكنها نجحت في مهمتها، وأخيرًا تنفست الصعداء. ملأتها نشوة القيام بمهمة من المهام الجريئة حقًا وهي تتأمل المناظر الطبيعية تمر أسفلها.

لامست أصابع تالي باطن المروحية المعدنية القديمة ... زين لا يبعد عنها سوى بأمتار قليلة. وقد أنجز مهمة مبهرة هو أيضًا، فبالرغم من الإصابات التي لحقت به والتلف المخي الذي أصابه، يكاد يصل إلى الضباب الجديد. أيًا كان رأي شاي في تالي الآن، فإنها لا تستطيع أن تنكر أن زينًا فاز عن استحقاق بالحق في الانضمام إلى السلطات الخاصة.

بعد كل هذا لن تقبل تالي أن تكون الإجابة «لا».

وفقًا للبرنامج الداخلي الخاص بتالي، لم تبدأ أولى العلامات على وجهتهم في الظهور إلا بعد ساعة.

مع أن الغابة كانت لا تزال كثيفة، بدأت تلوح مجموعة صغيرة من الحقول المستطيلة، فيها أشجار مقطوعة ومتراكمة لتفسح المجال لمشروع بناء ما، ثم بدأت تظهر المزيد من العلامات الدالة على وجود موقع إنشائي جديد: حفارات ضخمة تشق الأرض، ورافعات مغناطيسية تنقل روافع مدمجة إلى مكانها. قطبت تالي جبينها؛ إن كان أهل الضباب الجديد يظنون أنهم يستطيعون قطع الأشجار دون عقاب، لقد فقدوا صوابهم.

لكن [illegible] بدأت تمر بها مشاهد مألوفة، هي مباني المنطقة المخصصة للمصانع منخفضة الارتفاع، تبعتها صفوف مزدحمة من بيوت الضواحي ثم مجموعة من المباني الأكثر ارتفاعًا ترتفع في الأفق، وبدأت السماء تعج بالعربات الطائرة. مرت أسفلها حلقة تضم ملاعب لكرة القدم وعنابر للنوم، وكانت تشبه هذه المدينة تمامًا مدينة آجلي فيل في بنيتها.

هزت تالي رأسها في دهشة، فلا يمكن أن يكون الضبابيون هم من بنوا كل هذا ...

ثم تذكرت كلمات شاي ليلة أن تسللا إلى مدينة نيو برتي تاون لترّيا زينًا، إذ دارت حول حصول ديفيد ورفاقه على بذلات تخفٍ جديدة من حلفاء غامضين، وأدركت الحقيقة.

لم يكن الضباب الجديد معسكرًا منزويًا في البرية حيث يقضي الناس حاجتهم في حفر ويأكلون أرانب ميتة ويحرقون الأشجار للحصول على الوقود؛ بل الضباب الجديد هنا بالضبط أمامها، إذ انضمت مدينة كاملة إلى التمرد.

الفصل الحادي والعشرون

هبوط عسير

على تالي أن تنزل قبل أن تهبط الطائرة المروحية، فلم تكن تحب أن يجدها أحد متعلقة بالجانب الأسفل من المروحية عندما تهبط، فزين كان سيراها وسيعرف حراس الغابات على الأرجح أن جمالها القاسي يدل على أنها عميلة لمدينة أخرى، لكن بينما كانت الطائرة المروحية تطير في مسار دائري متجهةً نحو مهبط المروحية لاحظت تالي أنه لا يوجد مكان آمن تهبط فيه.

في مدينتها يوجد نهر يلتف حول جزيرة مدينة نيو برتي تاون، لكنها لم تر أية كتلة مائية تقفز إليها، وكانت على ارتفاع كبير لا يسمح باستخدام سواتر الصدمات استخدامًا آمنًا، ومع أن درع بذلة التخفي قد يحمي تالي، لكن مهبط المروحية موجود بين مبنيَين ضخمين تحيط بهما أرصفة مزدحمة تعج بالمشاة الضعاف.

وبينما كانت الطائرة المروحية تقوم بمناورتها الأخيرة، رأت أن السياجات الطويلة تحيط بالمهبط وأنها قوية بدرجة تكفي لأن تضعف الرياح الصادرة من مروحة الطائرة المروحية، وبدا لها أن بالسياجات أشواكًا، لكن بعض الأشواك لا تمثل خطورة على بذلة التخفي.

أبطأت المروحية من سرعتها عندما لاح المهبط في الأسفل، وأنزلت تالي القلنسوة حمايةً لوجهها. وبينما كانت المروحية تطير وأحد جانبيها أكثر ارتفاعًا من الآخر استعدادًا للتوقف، تركت نفسها تسقط وهي تلف جسدها على هيئة كرة وهي تسقط، وكأنها صغيرة تقفز في المسبح.

اصطدمت كتفها اليسرى بالسياج محدثةً صوت تحطم مفاجئ؛ إذ تحطمت الأغصان على سطح درع البذلة، وقفزت مبتعدةً عن السياج فتناثر وابل من أوراق الشجر في الهواء. نجحت في أن تهبط على قدميها لكنها وجدت نفسها تتعثر على

السطح غير الممهد ... على الرصيف المتحرك الذي رأته وهي تسقط والذي شهد حركة سريعة.

لوحت تالي بذراعيها حركةً دائريةً وكادت أن تستعيد توازنها لولا أن آخر خطوة قطعتها نقلتها إلى رصيف متحرك آخر متجه اتجاهًا معاكسًا، مما جعلها تدور وتقع فجأة على ظهرها وكل طرف من أطرافها في اتجاه مختلف وهي تحدق في السماء في دهشة.

تأوهت في خفوت. قد يكون صحيحًا أن المتميزين يتمتعون بعظام من الخزف غير قابلة للكسر، لكن لا يزال في أجسادهم كمية كبيرة من اللحم تصيبها الكدمات ونهايات عصبية تتألم.

رأت أمامها بنايتين شاهقتين تحجبان السماء عنها، وبدا أنهما يتحركان أمامها برشاقة ... كان الرصيف المتحرك لا يزال يحملها.

ظهر وجه شخص من الحسان الراشدين متوسطي العمر ينظر إليها متجهمًا، قال: «هل أنت بخير أيتها الشابة؟»

– «نعم، إلى حد كبير.»

– «حسنًا، أنا واعٍ بأن معايير السلوك قد تغيرت لكن لا يزال من المحتمل أن تُقدم تلك شكوى إلى الحراس جراء مثل هذه الفعلة المتهورة!»

قالت تالي وهي تنهض على قدميها متألمة: «أوه، أنا آسفة.»

«أظن أن الغرض من هذه البذلة وقايتك؟» وواصل الرجل حديثه متجهمًا: «لكن هل توقفت للحظة لتفكري فينا!» بإحدى يديها دلكت تالي ظهرها الذي على الأرجح تغطيه الكدمات ورفعت الأخرى دفاعًا عن نفسها، فمقارنةً بالحسان الراشدين متوسطي العمر الذين ينتمي إليهم هذا الرجل، لم يكن على درجة كبيرة من التفهم. «قلت إنني آسفة، كان علي أن أنزل من تلك المروحية.»

قال الرجل بتهكم: «إن لم تكوني تستطيعين الانتظار إلى أن تهبط فلتستخدمي سترة القفز في المرة القادمة!»

داهمت تالي موجة من الانزعاج فجأة، فهذا الرجل متواضع القدرات لن يكف عن الجعجعة. وجدت أنها قد ملت الحديث معه فخلعت قلنسوة بذلة التخفي كاشفة عن أسنانها وقالت: «ربما أتعمد السقوط عليك المرة القادمة!»

نظر الرجل مباشرةً إلى عينيها السوداويتين اللتين تشبهان عيون الذئاب، وإلى الوشم الذي يشبه الشبكة المرسوم على وجهها، وإلى ابتسامتها الحادة ولم يكن منه إلا أن أبدى ازدراءه مرةً أخرى، وقال: «أو قد تكسرين رقبتك المليحة!»

همهم الرجل في رضا ومشى إلى الممر الأسرع من الرصيف المتحرك فأخذه الممر بعيدًا بسرعة شديدة دون أن ينظر إلى تالي مرة أخرى.

أخذت تطرف بعينيها في دهشة، فهذا ليس رد الفعل الذي توقعته، ورأت في نوافذ المبنى الذي يمر بها انعكاس مشوه له، فهي لا تزال من المتميزين، ووجهها لا يزال يحمل أمارات الجمال القاسي الذي يهدف إلى استدعاء كل المخاوف البشرية القديمة، وبالرغم من ذلك، فإن الرجل لم يكد يلاحظ هذا.

هزت تالي رأسها في تعجب، من المحتمل أن عملاء السلطات الخاصة في هذه المدينة لا يحرصون على التخفي، لكن ما الهدف من أن يكون لهم مظهر مخيف طالما أن الجميع لديهم فرصة للتعود عليه؟

أخذت تستعيد الحوار مرة أخرى في عقلها وأدركت كم كانت لهجة الرجل قريبة مما تتذكره من لهجة حراس الغابات، فهي سريعة، دقيقة، وذات مقاطع قصيرة. لا شك أن هذه هي مدينتهم الأصلية.

لكن إذا لم تكن هذه المدينة بأكملها هي فعلًا الضباب الجديد، فأين شاي؟ وسّعت تالي مدى شبكة التواصل المغروسة في جسدها، لكنها لم تجد أي أثر يخصها. المدن كبيرة بالطبع، وقد تكون شاي في نطاق لا تلتقطه شبكة التواصل، أو قد تكون قد أطفأتها من أثر غضبها من خيانة تالي لها.

نظرت تالي إلى المهبط، فوجدت أن محركات الطائرة المروحية لا تزال تعمل بأقل طاقتها. ربما ليست هذه المدينة الضباب الجديد، وليست سوى محطة تزود بالوقود، توجهت تالي نحو الرصيف المعاكس عائدةً نحو المهبط.

مر بها بسرعة فتى وفتاة من الحسان الجدد، ولاحظت أنهما خضعا لجراحة تنكرية، وكانت بشرة الفتاة أكثر شحوبًا مما قد تسمح به أية لجنة من لجان شئون الجمال وكان شعرها أحمر، وغطى وجهها شيء من النمش كوجوه الصغار الذين تقلقهم دومًا آثار التعرض للشمس، وكانت بشرة الفتى داكنة جدًا، سوداء تقريبًا، وكانت عضلاته بارزة جدًا.

ربما يفسر هذا رد فعل ذلك الرجل الراشد، أو تبلده بمعنى أدق. لا بد أن حفلًا تنكريًا ما سيقام الليلة، حفل يستعد له الحسان الجدد بإجراء العمليات الجراحية. كانت الجراحات التنكرية أكثر تطرفًا مما قد يُسمح به على الإطلاق في مدينة تالي، لكن على الأقل كان هذا يعني أنها لن تكون لافتة جدًا للأنظار وهي تحاول اكتشاف ما يجري.

طبعًا سواد بذلة التخفي المدرعة ليس مواكبًا للموضة تمامًا، فحولتها بحركة يديها لتشبه الملابس التي كان الفتى والفتاة يرتديانها والتي كانت مخططة ذات ألوان زاهية، مثل ملابس الصغار في مدينتها. زادت الألوان المبهرجة من إحساسها بأنها لافتة للانتباه، لكن عندما مر المزيد من الحسان الجدد بجوارها بوجوه شاحبة، وأنوف كبيرة للغاية، وملابس فاقعة الألوان — بدأت تشعر أنها لا تختلف عن الآخرين.

المباني هنا لا تبدو شديدة الاختلاف عن تلك التي نشأت تالي بينها، فالمبنيان الواقعان على جانبي المهبط كانا يبدوان مثل الصروح الحكومية، في الواقع فإن الأقرب منهما حُفرت عليه أحرف حفرت على الحجر لتكون كلمة دار البلدية، وكانت معظم المباني التي تقع على جانبي الرصيف المتحرك عليها أسماء الأقسام الإدارية بالمدينة. رأت تالي أمامها الأبراج الشاهقة المخصصة للحفلات، وقصورًا مترامية الأطراف لا بد أنها قصور مدينة نيو برتي تاون، ورأت في الأفق عنابر النوم الخاصة بالقبحاء وملاعب لكرة القدم.

لكن بدا من الغريب عدم وجود نهر يفصل بين مدينة نيو برتي تاون ومدينة آجلي فيل، إذ إن هذا يجعل التسلل بين المدينتين سهلًا جدًا، ولا يكاد يمثل أي تحدٍ، كيف يمكنهم منع المتطفلين على الحفلات من الدخول إليها؟

لم تر أيًا من الحراس حتى الآن، هل سيدرك أحد هنا رداءة جمالها القاسي؟ خطت إحدى الحسان الجدد على الرصيف المتحرك بجوارها، وقررت تالي أن تكتشف إن كان من الممكن أن يصدق الناس أنها من السكان المحليين أم لا.

سألتها تالي عن الحفل محاولةً أن تقلد اللهجة المحلية آملةً ألا تبدو من الفطريين بسبب جهلها.

ولكي تتيقن الشابة من مقصدها تساءلت: «تقصدين الحفلة؟» هزت تالي كتفيها وقالت: «آه، طبعًا».ضحكت الشابة وقالت: «الخيار لك، توجد عشرات الحفلات».

«صحيح أنه توجد عشرات الحفلات، لكن لأي منها خضع الناس لكل هذه الجراحات التنكرية؟» «جراحات تنكرية؟» نظرت المرأة إلى تالي وكأنها قالت شيئًا غريبًا تمامًا. «هل نزلت من المروحية لتوك؟»

ارتفع حاجبا تالي وقالت: «مم، الطائرة المروحية؟ آه، توءًا ماء».

قالت الشابة: «بوجه مثل هذا؟» وقطبت الشابة جبينها، كانت بشرتها بنية داكنة وأظافرها مزينة بشاشات فيديو صغيرة كل منها يعرض صورة متحركة مختلفة.

هزت تالي كتفيها مرة أخرى دون أن تتكلم.

ضحكت الشابة مرة أخرى وقالت: «حسنًا، فهمت، ألا تطيقين صبرًا على أن تبدي كواحدة منا؟ اسمعي أيتها الفتاة، عليك أن تمضي بعض الوقت بالفعل مع الوافدين الجدد، على الأقل حتى تصبحي ملمة بما يحدث هنا». ضيقت الشابة عينيها وأصابعها تومئ بحركة للاتصال بشبكة التواصل وهي تقول: «تقول دييجو إنهم جميعًا على المنحدر المطل على المدينة الليلة».

- «دييجو؟»

«المدينة.» ضحكت الشابة مرة أخرى وأظافرها تلمع بالتزامن مع الصوت، قالت: «مرحى يا فتاة لقد خرجت من المروحية لتوك حقًّا».

قالت تالي وقد راودها فجأة شعور بأنها عادية جدًا وقليلة الحيلة، وأنها ليست من المتميزين على الإطلاق: «صحيح، شكرًا». إن حاولت التجول في هذه المدينة الجديدة فلا قيمة لقوتها وسرعتها، بل إن جمالها القاسي لا يبهر أحدًا، فيما يبدو. كان الأمر وكأنها عادت قبيحة مرةً أخرى، إذ كانت أمور مثل معرفة أفضل الحفلات وكيفية الاستعداد لها بارتداء الملابس القاسية أكثر أهمية من أن يكون المرء فاتنًا.

صاحت الحسناء الشابة: «حسنًا مرحبًا بك في دييجو»، وانتقلت إلى أحد الممرات عالية السرعة وهي تلوح بيديها وداعًا بإحراج غريب كإحراج من يتخلى عن شخص ساذج في حفل ما.

أخذت تالي تقترب من المهبط وهي تتلفت حولها بحثًا عن الأشقياء الهاربين. نزلت عن الرصيف المتحرك عند الجزء المتضرر من السياج بسبب اصطدامها به، واختلست النظر عبر إحدى الفتحات الناتجة عن ذلك.

كان الهاربون قد نزلوا من المروحية لكنهم لا يزالون يرتبون أمورهم، فمثل كل مشوشي العقل، كانوا يواجهون مشكلة في توصل كل واحد إلى لوحه الطائر. تجمعوا حول قائد المروحية الذي كان يحاول تنظيم الأشياء كما يتجمع الصغار حول بائع المثلجات.

كان زين ينتظر بصبر وهو يبدو في أسعد حالة تراه تالي عليها منذ أن هربوا من المدينة، وتجمهر عدد قليل من الأشقياء الآخرين حوله، وأخذوا يضربونه على ظهره ويهنئ بعضهم بعضًا.

أحضر أحد الأشقياء لزين لوحه، وانطلق الثمانية نحو المبنى الضخم الواقع على الجهة المقابلة لمبنى دار البلدية.

رأت تالي أن المبنى عبارة عن مستشفى، وهذا منطقي: فأي شخص يأتي من الخارج يجب فحصه لاكتشاف ما قد يصاب به أثناء الرحلة من أمراض وجراح وتسمم غذاء. ولما كانت هذه المدينة هي بالفعل الضباب الجديد، فإنه يجب معالجة الإصابة التي تؤدي إلى تشوش عقل الوافدين الجدد أيضًا.

قالت تالي لنفسها: «طبعًا لم يعد من الضروري أن يكون مفعول الأقراص التي تصنعها مادي رائعًا. فالهاربون جميعًا سينتهي بهم المطاف إلى هنا حيث يمكن علاجهم في مستشفى المدينة التي يعمل بها أطباء مؤهلون».

تراجعت تالي خطوة للوراء وأطلقت زفيرًا بطيئًا، وأخيرًا اعترفت بهذا لنفسها: إن الضباب الجديد أكبر وأقوى ألف مرة مما توقعت هي وشاي.

فالسلطات في تلك المدينة تؤوي الهاربين من المدن الأخرى وتعالجهم من تشوش العقل. الآن وقد فكرت في الأمر اكتشفت أنه لا أحد ممن التقت بهم حتى الآن يعاني من المرض، فجميعهم عبروا عن آرائهم بصراحة، على خلاف طريقة مشوشي العقل تمامًا.

هذا يفسر لماذا ضربت هذه المدينة — التي أطلقت عليها المرأة «ديجو» — بمعايير لجنة شئون الجمال عرض الحائط، وسمحت للجميع بالظهور بالمظهر الذي يريدونه. بل وتم إنشاء مبان جميلة في الغابات المحيطة متوسعين في البرية.

إن كان كل هذا حقيقيًا فلا عجب من أن شاي رحلت من هنا، فغالبًا عادت إلى مدينتها الأم لتطلع دكتورة كابل والسلطات الخاصة على الأمر كله.

لكن ما الذي يمكنهم فعله حيال هذا؟ فلا يمكن أن تملي بعض المدن بعضها كيف تدير شئونها.

الضباب الجديد هذا قد يبقى إلى الأبد.

الفصل الثاني والعشرون

مدينة الفطريين

أمضت تالي اليوم وهي تتجول في أنحاء المدينة وهي منبهرة من مدى اختلافها عن مدينتها.

رأت حسانًا جدًا وقبحاء يتسكعون معًا بوصفهم أصدقاء لم تفرقهم العملية الجراحية. وكان الصغار يمسكون بأيدي إخوانهم وأخواتهم القبحاء الأكبر منهم بدلًا من أن يبقوا في كراسي نقل مع آبائهم. هذه التغيرات الصغيرة أدهشتها مثلما أدهشها — تقريبًا — تكوين وجوههم، وملمس بشرتهم، وما صادفته من تعديلات أدخلت على أجسامهم، ذلك حيث قد يستغرق الأمر منها بعض الوقت حتى تعتاد على المعاطف المصنوعة من الريش الناعم، والثعابين الصغيرة التي حلت محل أصابع الخنصر في أياديهم، وبشرة الجلد التي تأتي بجميع درجات الألوان من الأسود الفاحم إلى العاجي، والشعر المتموج الذي يشبه الكائنات الملتوية التي تعيش في البحر.

كان لمجموعات كاملة لون الجلد نفسه أو الوجوه نفسها مثلما كان الحال مع العائلات قبل الخضوع لعملية التجميل. وذكر هذا تالي بما كان عليه الناس في أيام ما قبل الأطلال القديمة، إذ كانوا يجتمعون في قبائل وعشائر وأجناس تبدو متماثلة تقريبًا، ويحرصون على كراهية من لا يشبهونهم، وقد أثارت هذه الذكرى انزعاجها، لكن حتى الآن بدا أن الجميع يتعاملون معًا وديًا، ولكل مجموعة متشابهة من الناس بدا تباين شديد آخر يميزها.

فالحسان الراشدون من أهل دييجو بدوا أقل ولعًا بشأن أمر الجراحة برمته، ومعظمهم بدا مثل والدي تالي تقريبًا، وتناهى إلى مسامعها ما أبدوه من تبرم ليس بالقليل بشأن «المعايير الجديدة»، وكيف أن مسايرات الموضة الحالية مشينة وجارحة للعين، لكنهم فعلوا هذا بأسلوب صريح إلى حد أزال من نفس تالي أي شك في أنهم قد شُفوا من إصاباتهم بالتلف في المخ.

ومن الأمور المحيرة أن كبار السن من الحسان بدوا أكثر اهتمامًا بالجراحات من الآخرين جميعهم. كان لعدد قليل منهم الوجوه الهادئة الحكيمة الجديرة بالثقة التي تفرضها اللجنة المختصة بشئون الجمال في المدينة، لكن الآخرين كانوا يبدون شبابًا على نحو غريب. في معظم الوقت لم تكن تالي واثقة تمامًا من السن التي يفترض أن الناس قد بلغوها وكأن جراحي المدينة قد قرروا أن يجعلوا جميع مراحل الحياة تتداخل.

بل بدا لها من نبرة الحوار الدائر بين عدد قليل من الناس أنهم لا يزالون مشوشي العقل. لسبب ما — سواء أكان موقفًا فلسفيًا أو صيحة من صيحات الموضة — فإنهم قد تخيروا أن يتركوا التلف في عقولهم.

الواضح أن المرء يستطيع أن يفعل أي شيء يريده هنا تقريبًا. يبدو الأمر وكأنها هبطت في مدينة الفطريين، فالجميع مختلفون تمامًا حتى إن وجهها المميز صار ... لا شيء بمعنى الكلمة.

كيف حدث كل هذا؟

لا يمكن أن يكون هذا قد حدث منذ عهد بعيد، فالتغير لا يزال مستمرًا في كل مكان حولها مثلما يستمر تموج المياه بعد مدة من إلقاء الحجارة بها.

وفور أن نجحت تالي في ضبط شبكة التواصل المغروسة في جسدها بحيث تلتقط آخر أنباء المدينة، وجدت الأنباء مليئة بالجدل. إذ تدور نقاشات حول حكمة إيواء الهاربين، ومعايير الجمال، بيد أن الموضوع المهيمن كان يتعلق بالإنشاءات الجديدة التي تتم على حافة المدينة، ولم يكن جميع المتحاورين يعبئون بالالتزام بتحضر أسلوب الحوار ورفعته حسبما هو سائد في المدينة. لم تسمع تالي قط مثل هذه النقاشات التافهة تدور بين الكبار من قبل، ولا في السر. كان الأمر وكأن مجموعة من القبحاء قد سيطرت على موجات الراديو. فبدون تلف المخ الذي يضفي الانسجام بين الجميع، أصبح المجتمع يتخبط في صراع محتدم بين الكلمات والصور والأفكار ولا يبدو له نهاية.

كان الأمر مريبًا شبيهًا بالحال الذي عاش عليه سكان الأطلال القديمة، إذ كانوا يتجادلون حول كافة المواضيع على الملأ بدلًا من أن يدعوا الحكومة تقوم بدورها.

والتغييرات التي طرأت من قبل على دييجو كانت بداية فقط، هذا ما أدركته تالي. في كل مكان حول تالي، كانت تشعر أن المدينة تفور بالحيوية، وكل العقول الطليقة تتبادل الآراء كقنبلة على وشك الانفجار.

في تلك الليلة ذهبت إلى مكان تستطيع منه إلقاء نظرة على المدينة كلها.

وأرشدتها شبكة المدينة إلى أعلى منطقة في دييجو وهي مساحة خضراء تمتد أعلى منحدر صخري طباشيريّ يطل على وسط المدينة. لقد كانت أول شابة حسناء التقت بها محقة؛ فالحديقة كانت تعج بالهاربين، نصفهم تقريبًا من القبحاء ونصفهم من الحسان الجدد. كان معظمهم يظهرون بالوجوه التي جاءوا بها وهم ليسوا على استعداد للانغماس في صيحات التجميل المبالغ فيها. تمكنت تالي من أن تستوعب سبب وجود الوافدين الجدد معًا طيلة الوقت، فبعد يوم أمضوه في شوارع دييجو، يخفف عنهم ذلك رؤية الوجوه القديمة التي صممتها اللجنة المختصة بشئون الجمال.

أخذت تالي ترجو أن يكون زين هنا، فاليوم هو أطول مدة قضاها بعيدًا عنها منذ هروبه، وودت لو عرفت ما فعلوه له في مستشفى المدينة بالتحديد، وهل القضاء على تلف المخ الذي أصابه سيحد من ارتعاشه، وكيف سيقرر أن يعيد صنع نفسه هنا في هذا المكان الذي يستطيع فيه كل إنسان أن يبدو كيفما يشاء، والذي اختفى فيه احتمال أن يكون المرء عاديًّا.

ربما يستطيعون علاجه على نحو أفضل مما كان أطباء مستشفى المدينة سيعالجونه، ونظرًا لما يتمتع به جراحو دييجو من خبرة في الجراحات المتطرفة فقد يكونون في نفس مهارة دكتورة كابل.

ربما تختلف الأمور عندما يتبادلان القبلات المرة القادمة.

بل إن زينًا لو بقي على حاله نفسه، فإن تالي ستستطيع على الأقل أن تثبت له كيف تغيرت هي. فرحلتها عبر البرية وما رأته في دييجو ساعداها على التغير، ربما هذه المرة تستطيع أن تريه ما يعتمل بداخلها، في عمق أبعد مما تستطيع أن تصل إليه أية عملية.

أخذت تالي تجوب المنطقة التي لا تصل إليها أنوار المصابيح الطائرة فصارت مغلفة بالظلام، وأخذت تسترق السمع إلى الوافدين الجدد. الموسيقى ليست صاخبة — فالهدف من الحفل هو التعارف، لا احتساء الخمر والرقص — وسمعت مختلف اللهجات، بل سمعت لغات مختلفة يتحدث بها من يسكنون أقصى الجنوب. الهاربون جميعهم كان يروون قصص وصولهم إلى هنا، ويحكون عن الرحلات المضحكة أو الشاقة أو المرعبة التي قطعوها في البرية حتى يصلوا إلى مناطق التجمع من جميع أنحاء القارة. كان بعضهم قد جاءوا عبر الألواح الطائرة، وبعضهم جاءوا

سيرًا على الأقدام، بل إن عددًا قليلًا منهم ادعى سرقة العربات الطائرة ذات مراوح الرفع التي يستقلها الحراس وحلق بها في ارتياح عبر البرية.

ازداد عدد الحاضرين في الحفل وهي تراقب، مثلما هو حال دييجو نفسها، وعدد أكبر من الهاربين كان يصل طوال الوقت. سرعان ما التقطت عينا تالي بيريس وبضعة أفراد من الأشقياء الآخرين قرب حافة الجرف، ولم يكن زين معهم.

تراجعت أكثر نحو الأركان المظلمة وعيناها تبحثان عنه بين الحشد، وتتمنى أن تعرف أين يكون. ربما كان عليها أن تبقى بالقرب منه فهذه المدينة شديدة الغرابة. طبعًا هو ظن على الأرجح أنها فقدت المروحية وما زالت متخلفةً عنهم في البرية، وعلى الأرجح قد سره التخلص منها.

جاءها صوت من الخلف: «مرحبًا، أنا جون».

التفتت تالي ووجدت نفسها وجهًا لوجه أمام شخص هو مثال للحسان الجدد. ارتفع حاجباه فور رؤية جمالها ذي الملامح القاسية والوشم، لكن رد فعله هذا لم يكن قويًا. كان معتادًا على رؤية الجراحات المجنونة هنا في دييجو.

قالت: «تالي».

«اسم مضحك.»

[illegible] تالي [illegible]، لقد ظنت أن اسم «جون» يبدو من أسماء [illegible] إلى حد ما بالرغم من أن لهجته كانت غير مألوفة إلى أقصى حد. سألها: «أنت من الهاربين، أليس كذلك؟ أعني أهذه جراحة جديدة تجربينها؟»

«هذه؟» تحسست تالي وجهها بأصابعها، منذ أن استيقظت في مقر السلطات الخاصة والجمال القاسي يبدو كسمة تميزها، سمة تضفي عليها هويتها، وهذا الفتى متواضع القدرات يسأل إن كانت تجرب هذا، وكأنه طريقة جديدة لتصفيف الشعر؟ لكن لا معنى لأن تكشف نفسها. «نعم، أظن هذا. هل أعجبتك؟» هز كتفيه وقال: «أصدقائي يقولون إنه من الأفضل أن ننتظر إلى أن نعرف صيحات الموضة الجديدة، فلا أحد يحب أن يبدو أضحوكة العصر». أطلقت تالي زفيرًا ببطء محاولةً أن تحافظ على هدوئها وقالت: «أتظن أنني أبدو أضحوكة؟»

ضحك قائلًا: «وما أدراني؟ لقد أتيت إلى هنا لتوي، لست واثقًا من المظهر الذي سأختاره، لكنه على الأرجح سيكون مظهرًا أقل ... ماذا أقول، فلنقل أقل إرعابًا».

تساءلت تالي بينها وبين نفسها: «إرعابًا؟» وازداد غضبها. تستطيع أن تري هذا الفتى الحسن المغرور معنى الرعب الحقيقي.

أضاف قائلًا: «لو كنت مكانك لما تركت هذه الندوب، إنها كئيبة نوعًا ما». اندفعت يدا تالي لتمسك الفتى من تلابيب سترته الجديدة زاهية الألوان. شقت أظافرها نسيج السترة وهي ترفعه من على الأرض وهي تبتسم بشراسة بأقصى ما تستطيع.

وقالت: «اسمع يا هذا الذي كان مشوش العقل حتى خمس دقائق مضت، هذا ليس له علاقة بالرغبة في جذب الانتباه، فهذه الندوب هي أمر لن تستطيع أبدًا ...».

تردد في عقلها أزيز خفيف.

وتناهى إلى سمعها صوت مألوف يقول: «دعي هذا الفتى يا تالي-واء. طرفت بعينيها ووضعت الفتى على الأرض.

لقد التقطت شبكة التواصل المغروسة فيها صوت شخص آخر من الجارحين.

كان الفتى يضحك ويقول: «حسنًا، خدعة جيدة! لم أر هذه الأسنان من قبل».

قالت له تالي: «اصمت!» وخففت تالي قبضتها على الأجزاء الممزقة من سترته والتفتت وهي تتطلع إلى الحشد.

أخذ الفتى يواصل الثرثرة قائلًا: «هل تنتمين إلى جماعة ما؟ فذلك الفتى الذي يقف هناك يشبهك تمامًا!»

نظرت باتجاه إشارته ورأت وجهًا مألوفًا قادمًا نحوها بين الحشد ووشمه يتراقص طربًا.

كان هذا فاوستو، مبتسمًا وتبدو عليه أمارات المتميزين.

الفصل الثالث والعشرون

لَمّ الشمل

صاحت قائلةً: «فاوستو»، ثم أدركت أنها ليست مضطرة إلى رفع صوتها إذ إن شبكتي التواصل المغروستين فيهما قد اتصلتا وتكونت شبكة بينهما.

مزح قائلًا: «إذن لا تزالين تذكرينني؟» سمعت صوته كالهمس.

سرت رعشة في جسدها بفعل مشاعر الألفة التي افتقدتها طوال الأسابيع الماضية، إذ كانت تفتقد شعورها بأنها من الخارجين، والشعور بالانتماء، وأسرعت نحوه وقد نسيت أمر الفتى الذي أهانها.

همست إليها قائلة: «أنت بخير؟»

قال: «أنا بخير».

ابتعدت تالي عنه، وكانت مضطربة جدًّا، وتعاني من إرهاق ذهني بفعل كل ما مرت به في ذلك اليوم، والآن إذا بها تجد فاوستو أمامها سليمًا معافى.

– «ما الذي حدث لك؟ كيف هربت؟»

– «هذه حكاية طويلة».

أومأت تالي برأسها تفهمًا، ثم هزت رأسها وقالت: «أنا مرتبكة جدًّا يا فاوستو، فهذا المكان غير مفهوم على الإطلاق، ما الذي يجري؟»

– «هنا في دييجو؟»

– «نعم، الأمور لا تبدو حقيقية».

– «بل حقيقية».

– «كيف حدث كل هذا؟ من سمح بحدوثه؟»

تطلع فاوستو نحو المنحدر الصخري، وأخذ يرمق أنوار المدينة متأملاً، وقال: «على حد علمي ظل هذا يحدث منذ مدة طويلة، فهذه المدينة لم تكن قط

كمدينتنا، ولم تكن لديهم حواجز تفصل بين الحسان والقبحاء كما كان الحال عندنا».

أومأت تالي برأسها متفهمةً وقالت: «لا يوجد نهر».

ضحك قائلًا: «ربما يكون لذلك علاقة بالأمر، لكن عدد مشوشي العقل لديهم ظل دائمًا أقل من مشوشي العقل لدينا».

– «مثل حراس الغابات الذين التقيت بهم العام الماضي. لم يكونوا مصابين بإصابات تلف المخ».

– «وحتى المعلمون أنفسهم غير مصابين بتلك الإصابات يا تالي، فالجميع هنا نشئوا وتعلموا على أيدي معلمين غير مصابين بالتشوش العقلي».

أخذت تالي تطرف بعينيها، لا عجب إذن أن حكومة دييجو كانت متعاطفة مع الضباب، فما كان لها أن تخشى من جماعة ضئيلة من المتحررين فكريًا.

مال فاوستو نحوها وقال: «أتعلمين ما الغريب في الأمر يا تالي؟ ليس لديهم أي شبيه بالسلطات الخاصة هنا، لذا عندما بدأ وصول الأقراص إلى دييجو، لم تستطع منع تلك، إذ عجزت عن احتواء الموقف».

– «أتقصد أن الضبابيين استولوا على السلطة؟»

ضحك فاوستو مرة أخرى وقال: «ليس بالضبط، فما زالت السلطات تسيطر على زمام الأمور، لكن التغيير اجتاح هذه المدينة بوتيرة أسرع بكثير مما قد يجتاح مدينتنا، إذ لم يستغرق الأمر سوى نحو شهر بعد وصول أول دفعة من الأقراص وبدأ معظم الناس يفيقون، وبدأ النظام بأكمله ينهار، ولا يزال يواصل انهياره حاليًا على ما أظن».

أومأت تالي برأسها، وهي تتذكر كل ما رأته في الاثنتي عشرة ساعة الأخيرة، وقالت: «معك حق، فهذا المكان بأكمله قد فقد صوابه».

اتسعت ابتسامته وهو يقول: «ستعتادين على الأمر».

ضيقت تالي عينيها وقالت: «ألا يزعجك شيء من هذا كله؟ ألم تلاحظ أنهم يجتثون الأشجار عند أطراف المدينة؟»

– «بالطبع يا تالي-وا، إنهم مضطرون للتوسع، فعدد السكان يتزايد بسرعة.»

وقعت كلماته عليها كالصفعة، قالت: «فاوستو ... عدد السكان لا يتزايد، فذلك غير مسموح به».

«لا أقصد أنهم يتكاثرون يا تالي، فالزيادة تأتي بفعل الهاربين الذين يأتون إلى هنا.» وهز فاوستو كتفيه وكأن الأمر ليس مهمًا. حينئذ انتاب تالي شعور ما: فلا

مبرر لما يقوله فاوستو، سواء أكانت وسامته المشوبة بمسحة من القسوة، أو مشاعر الألفة التي يتركها صوته في أذنيها، أو حتى وشومه المتحركة وأسنانه الحادة، لقد كان يتحدث عن البرية، البرية التي تتعرض للتدمير والإبادة لإفساح الطريق لثلة من الحسان الطامعين.

قالت وقد انتابت صوتها رنة تهكم فجأة: «ما الذي فعله الضبابيون بك؟»

– «لم يفعلوا شيئًا لم أطلبه منهم.»

هزت رأسها في غضب، غير قادرة على التصديق.

تنهد فاوستو وقال: «تعالي معي، لا أريد أن يسمعنا أحد من فتيان المدينة، فهم يطبقون قواعد غريبة تتعلق بالمتميزين». ووضع يده على كتف تالي وهو يصطحبها نحو أبعد ركن في قاعة الحفل قائلًا: «أتذكرين الهروب الكبير الذي قمنا به العام الماضي؟»

– «بالطبع أتذكر، أتظنني مشوشة العقل؟»

قال مبتسمًا: «لا، على الإطلاق». وأضاف: «في الواقع، حدث أمر ما بعد انفصال أداة التعقب التي كانت مزروعة في ضرس زين، وصممت أنت على اللقاء معه، وبينما كنا جميعًا نهرب، عقدنا نحن الأشقياء اتفاقًا مع الضبابيين». وصمت وهما يمران على جماعة من الحسان الجدد يقارنون بين الجراحات الجديدة التي أجريت لهم، وبالتحديد ما يخص بشرتهم التي تومض بين الأبيض الناصع والأسود الفاحم مع إيقاع الموسيقى.

قالت تالي بغضب عبر شبكتي التواصل: «ما الذي تعنيه باتفاق؟»

– «علم الضبابيون أن السلطات الخاصة كانت تضم مستجدين، وكان عدد المتميزين يزداد يوميًا ومعظمهم من القبحاء الذين هربوا إلى الضباب القديم.»

أومأت تالي برأسها، وقالت: «تعرف القواعد، المشاغبون الماهرون فقط يصبحون من المتميزين».

«بالطبع، لكن الضبابيين لم يدركوا ذلك إلا في الآونة الأخيرة.» في هذه اللحظة اقتربا من الركن المظلم عند الطرف الآخر لقاعة الحفل، حيث تُلقي مجموعة من الأشجار بظلال كثيفة على الأرض، أردف قائلًا: «وكانت مادي لا تزال تحتفظ بالبيانات التي جمعتها دكتورة كابل ولذا ظنت أنها تستطيع أن تصنع دواءً يعالج حالة المتميزين».

تسمرت تالي في مكانها وقالت: «ماذا؟»

– «دواءٌ يا تالي، لكنهم كانوا يحتاجون شخصًا يجربونه عليه، على أن يعطيهم موافقة مستنيرة، مثلما أعطيتِ أنتِ موافقتك على العلاج قبل التحول إلى حسناء».

أخذت تالي تتطلع إلى عينيه محاولةً أن تسبر أغوار سوادهما. ولاحظت أن فيهما شيئًا مختلفًا ... أحست أنهما أقل حيوية كشمبانيا بلا فقاقيع.

أحست أن فاوستو قد فقد شيئًا ما بالضبط مثل زين.

قالت في خفوت: «فاوستو، لم تعد من المتميزين».

رد عليها: «منحتهم موافقتي أثناء هروبنا، لقد اتفقنا جميعًا على السماح لمادي بأن تحاول علاجنا في حالة إلقاء القبض علينا وتحويلنا إلى متميزين».

ازدردت تالي ريقها، إذن لهذا احتفظوا بفاوستو وتركوا شاي تهرب. موافقة مستنيرة، هذه هي الذريعة التي تتخذها مادي للعبث بعقول الناس، وقالت: «تركتها تُجري التجارب عليك؟ ألا تتذكر ما حل بزين؟».

«كان ينبغي أن يفعل أحد هذا يا تالي» ورفع محقنًا وأضاف: «إنها تأتي بالنتيجة المرجوة، وهي آمنة تمامًا».

انفرجت شفتاها عن أسنانها واقشعر جسدها عندما تخيلت الجزيئات متناهية الصغر تنهش مخها. قالت: «لا تلمسني يا فاوستو، سأؤذيك إن اضطررت إلى هذا».

قال في خضوع: «كلا، لن تؤذيني» ثم اندفعت يده نحو رقبتها.

اندفعت أصابع تالي لتمسك بالمحقن على بعد سنتيمترات قليلة من رقبتها، وأخذت تلوي يده بشدة وهي تحاول أن تسقط المحقن من يده، وسمعت صوت طقطقة يصدر من أصابعه، ثم تحركت يده الأخرى وأدركت أنه يحمل محقنًا آخر بيده الأخرى. انحنت تالي على الأرض فأخطأت تسديدته وجهها بسنتيمترات معدودة.

لم يكف فاوستو عن محاولة دس الإبرة فيها بكلتا يديه، فأخذت تتقهقر على الحشائش دون أن تتمكن من الابتعاد عنه إلا بخطوات. طوح يده نحوها باستماتة لكنها صدته بركلة في صدره وأخرى ارتطمت بذقنه، فتراجع إلى الخلف وهو يترنح. لاحظت أنه لم يعد كما كان، ربما يكون لا يزال أسرع من الفطريين، لكنه لم يعد يتمتع بالسرعة التي تتميز بها تالي. أحست أن شيئًا ما قد انتُزع منه حتمًا.

مر الوقت بطيئًا، إلى أن لاحظت تالي ثغرة في أسلوب هجومه المتوقع، فهاجمته بركلة موجهة جيدًا أطاحت بأحد المحقنين من يديه.

وفي هذه اللحظة كانت بذلة التخفي قد التقطت اندفاع الأدرينالين في جسد تالي، فتجعد نسيجها وتصلب حتى صار مدرعًا. هبت واقفة وألقت بنفسها مباشرة

على فاوستو. سدد إليها لكمة أخرى اصطدمت بمرفقها فتحطم المحقن تحت قوة درع البذلة، وصفعته تالي على وجنته، فتراجع مترنحًا والوشوم المرسومة عليه تدور بجنون.

التقطت أذنا تالي صوتًا متذبذبًا يأتي من الظلام، صوت شيء يتجه نحوها طائرًا في الهواء. بدأ الجهاز المزود بالأشعة تحت الحمراء تزويدها بالبيانات، وحواسها تزداد رهافة وحساسية، وهي تنحني مرة أخرى نحو الأرض. ظهرت بين الأشجار عشرة أشباح متوهجة، يتخذ نصفها وضعيات رماة السهام.

مرت فوق رأسها السهام ذات الرءوس الإبرية اللامعة، لكن تالي في هذه اللحظة بدأت تسرع نحو مركز قاعة الحفل، واندفعت بين الحاضرين وأخذت توقع الهاربين من حولها أرضًا حتى أصبح يحميها حاجز من المتفرجين الذين أوقعتهم أرضًا. انسكبت الجعة عليها، وملأت صيحات الذعر الأجواء حتى طغت على صوت الموسيقى.

هبت تالي واقفةً وراحت تشق طريقها بين الحاضرين حتى صارت وسطهم. كان الضبابيون منتشرين في جميع الاتجاهات، فبدوا كأشباح تتحرك بثقة بين الهاربين المرتبكين، وكانوا من الكثرة بحيث يمكنهم التغلب عليها. بالطبع لا بد أن عشرات الضبابيين موجودون على المنحدر المطل على المدينة، إذ إنهم قد اتخذوا من دييجو مقرًا لهم. ولا يتطلب الأمر إلا حقن أحد المستضعفين بالحقن وتنتهي المطاردة.

كان من الحماقة أن تتخلى عن حذرها هكذا وتجوب هذه المدينة وهي تحدق فيما حولها كالسياح. والآن وقعت في مأزق ... وصارت بين سندان أعدائها ومطرقة المنحدر الصخري الذي سمي الجزء المطل على المدينة باسمه.

أخذت تالي تركض نحو الظلام الذي يغلف أطرافه.

مرت بمنطقة مكشوفة وأخذ عدد السهام التي تنطلق نحوها في الازدياد، لكنها انحنت وتدحرجت، وجميع حواسها وردود أفعالها المنعكسة متحفزة تمامًا. وكلما أدت تالي حركة مرنة جديدة، كانت تزداد يقينًا بأنها لا تريد أن تصبح مثل فاوستو، من أشباه المتميزين، حيث يسيطر عليها الفتور والخواء بعد تلقي العلاج.

كادت أن تصل إلى وجهتها.

فجاءها صوت فاوستو عبر الشبكة قائلًا: «انتظري يا تالي». كان صوته لاهثًا، وأضاف: «ليس معك سترة القفز!»

ابتسمت وقالت: «لست في حاجة إليها».

– «تالي!»

– انطلق نحوها وابل آخر من السهام، لكنها انحنت وتفادتها، وتدحرجت مرة أخرى حتى كانت تتحرك نحو حافة الجرف. قفزت واندفعت بين اثنين من الهاربين يرمقان وضعهما الجديد، وقفزت إلى الفضاء الفسيح ...

صاح بها فاوستو: «أجننت؟»

هوت وهي تحلق في أنوار دييجو، ومرت بجوار واجهة المنحدر الباهتة المزودة بشبكة من المعادن لمساعدة المتسلقين على الارتفاع وتفادي السقوط. لم يكن تحت تالي وهي تهوي إلا الظلام الذي يكتنف المزيد من المساحات الخضراء التي لا ينيرها إلا بضعة أعمدة إنارة، وغالبًا تتناثر فيها أشجار وغيرها من الأشياء التي يمكن أن تخترقها إن سقطت عليها.

راحت تالي تحرك يديها في وجه الرياح وتستدير حتى تلقي نظرة خاطفة على مطارديها. فرأت صفًّا من الأشباح يظهرون واحدًا تلو الآخر عند حافة المنحدر، ولم يقفز أي منهم خلفها، إذ كانوا واثقين جدًّا وهم ينصبون كمينهم حتى إنهم لم يعبئوا بإحضار سترات القفز، لا بد أنهم يحتفظون بالألواح الطائرة في مكان ما بالقرب من هذا الموقع، لكن سيكون قد فات الأوان حين يعودون ومعهم الألواح الطائرة.

استدارت تالي مرة أخرى، وولت وجهها شطر الأرض في الثواني الأخيرة من رحلة السقوط وأخذت تنتظر ...

في اللحظة الأخيرة همست: «ما رأيك في هذا الجنون يا فاوستو؟ سواري الصدمات».

شعرت بآلام مبرحة.

تستطيع الأساور أن تحول دون السقوط فوق الشبكة المعدنية للمدينة، لكنها صُممت للاستعمال في حالات السقوط من الارتفاعات المتوسطة وليس للقفز من على المنحدرات الصخرية، إذ إنها لا تُوزع القوة في كل أنحاء الجسم مثلما تفعل سترة القفز محكمة الربط، بل تسحب المرء من معصميه وتؤرجحه في دوائر ضيقة إلى أن تنفد قوة الدفع.

وكان قد سبق لتالي السقوط عدة سقطات مؤلمة عندما كانت من القبحاء، سقطات مريعة تسببت في خلع كتفها والتواء معصمها مما جعلها تتمنى لو لم يُقدر

لها ركوب أي لوح طائر، سقطات جعلتها تشعر وكأن عملاقًا شرسًا ينزع ذراعيها من جسدها.

ولكن لم يسبق لها الشعور بمثل هذا الألم قط.

بدأ سوارا الصدمات يعملان وهي على بعد خمسة أمتار من الأرض، بلا تحذير أو تمهيد رفيق من الروافع المغناطيسية. شعرت تالي وكأنها ربطت سلكين بمعصميها يكفي طول كل منهما لإيقافها فجأة في اللحظة الأخيرة.

أخذ معصماها وكتفاها يصرخان ألمًا، وكان هذا الإحساس مفاجئًا وقويًا حتى إن الظلام اكتنف عقلها للحظات، لكن كيمياء مخها الفائقة أعادتها إلى وعيها وأرغمتها على مواجهة صرخات جسدها المصاب.

راحت تالي تدور وهي معلقة من معصميها والمناظر الطبيعية الرائعة تدور وتدور، وبدت لها المدينة كلها تدور بفعل قوة الدفع الهائلة التي اكتسبتها. مع كل لفة كانت تلفها، كان عذاب تالي يزداد إلى أن بدأت سرعتها تقل أخيرًا حتى توقفت، بعد أن نفدت قوة سقوطها، وأخذ السواران يهبطان بها ببطء إلى الأرض على نحو آلمها.

شعرت تالي أن قدميها تترنحان تحتها، وأن الحشائش طرية الملمس وكأنها تستهزئ بها. وكان يوجد بضع أشجار بالقرب منها وسمعت أصوات غدير. تهاوى ذراعاها بجوارها وتدليا في ضعف وهما تشتعلان ألمًا.

جاءها صوت فاوستو في أذنيها: «تالي؟ هل أنت بخير؟»

همست في غضب: «ماذا ترى؟»، ثم أطفأت شبكة التواصل. فلا شك أن تلك هي الطريقة التي عرف بها الضبابيون مكانها. فنظرًا لوجود فاوستو في صفهم، يحتمل أنهم كانوا يتتبعونها فور وصولها إلى المدينة ...

وهو ما يعني أيضًا أنه من المحتمل أنهم التقطوا موقع شاي. ترى، هل أمسكوا بها من الآن؟ لم ترها تالي من بين مطارديها ...

قطعت تالي خطوات قليلة وكل حركة تسبب لها ألمًا في كتفيها المصابتين. أخذت تالي تفكر هل انكسرت عظامها الخزفية، وتحطمت العضلات ذات الألياف الأحادية على نحو يصعب علاجه.

ضغطت تالي على أسنانها وهي تحاول رفع إحدى يديها بجهد جهيد، فآلمتها الحركة البسيطة حتى جعلتها تشهق بصوت مرتفع، وعندما قبضت أصابعها شعرت بضعف قبضتها الشديد، ولكن على الأقل جسدها لا يزال يستجيب لإرادتها.

ومع هذا فليس هذا الوقت المناسب لتهنئ نفسها على تمكنها من ضم قبضتها، فالضبابيون قد يصلون إلى موقعها بعد قليل، وإن تجرأ أحدهم وقفز من على المنحدر راكبًا لوحه الطائر فلن يتوفر لها قدر كافٍ من الوقت.

أسرعت تالي نحو الأشجار القريبة، وكلما خطت خطوة شعرت بآلام مبرحة تسري في جسدها، وحين اختبأت بين أوراق الشجر القريبة منها ضبطت بذلة التخفي على وضع التمويه، فانتابها ألم مبرح من تموج نسيج البذلة على رسغيها وذراعيها.

كان طنين جزيئات النانو المخصصة للعلاج قد بدأ أزيزه في أذنيها، وشعرت بوخز في ذراعيها، لكن إصاباتها الجسيمة ستستغرق ساعات حتى تُشفَى، مدت تالي يديها كي تسحب قلنسوة البذلة على رأسها فصرخت ذراعاها ألمًا، وكادت تفقد وعيها، لكن مرةً أخرى تمكنت من الاحتفاظ بوعيها بفضل مخها الفائق.

اتجهت لاهثة بخطوات مترنحة نحو شجرة فروعها قريبة من الأرض، فقفزت إليها وهبطت على إحدى قدميها في وضع غير مستقر، واستندت على الجذع لاهثةً. بعد لحظة مرت بطيئة، بدأت تتسلق الشجرة بمشقة دون استخدام يديها منتقلةً من غصن إلى آخر، وحذاؤها المزود بنعل مقاوم للانزلاق يساعدها للبقاء فوق الأغصان.

ظلت تالي تتقدم بوتيرة بطيئة ومؤلمة، وهي تضغط أسنانها ودقات قلبها تتسارع، لكنها تمكنت من التسلق ببطء، إذ أخذت ترتفع مترًا ثم مترًا آخر.

لمحت ومضة أشعة تحت حمراء بين أوراق الشجر فتجمدت في مكانها.

رأت لوحًا طائرًا يمر أمامها في سكون، في مستوى نظرها بالضبط، ورأت رأس الراكب المتألقة تدور من جانب إلى آخر، إذ كان يحاول أن يرهف السمع لأي صوت بين قمم الأشجار.

أبطأت تالي تنفسها وابتسمت ابتسامة متجهمة؛ فلقد توقع الضبابيون من فاوستو — ذلك الفتى المدجن من المتميزين — أن يقبض عليها لحسابهم، ولم يعبئوا بأمر بذلات التخفي، أما هذه المرة فكانت هي الطرف المتخفي.

لا شك أن عدم قدرة هذا الطرف المتخفي على رفع ذراعيه ساهمت في المساواة بين الطرفين.

وأخيرًا تراجع الألم أمام جزيئات النانو التي أخذت تتجمع في كتفيها، وبدأت الجزيئات في أداء المهام العلاجية ونشر المخدر، وأخذت آلية تلك الجزيئات الصغيرة تخفف الألم المبرح حتى لم يعد يؤرقها سوى ألم خفيف، ما دامت تتجنب كثرة الحركة.

وفي المدى سمعت تالي أفرادًا آخرين يفتشون ويضربون أوراق الشجر وهم يظنون أنهم يستطيعون إجبارها على الخروج من مكمنها وكأنهم يطاردون سرب طيور، لكن أقرب الضبابيات منها كانت تبحث عن صيدها بهدوء، وهي ترهف السمع وتنعم النظر. ورأتها تالي وهي على لوحها الطائر من زاوية جانبية، وكان رأسها لا يزال يتحرك ببطء من جانب إلى آخر باحثًا بين الأشجار. وحين نظرت إلى خيالها، اكتشفت أنها ترتدي نظارة تعمل بالأشعة تحت الحمراء.

ابتسمت تالي لنفسها، فالرؤية الليلية التي أتيحت لهذه الفتاة لن تجدي نفعًا أكثر من ضرب الأشجار، لكن في تلك اللحظة، تجمد الشبح في مكانه وأخذت تحدق فيها مباشرة، وتوقف لوحها الطائر ببطء.

نظرت تالي إلى نفسها بالكاد دون أن تحرك رأسها. ما الذي يظهر منها؟

ثم رأت ما يظهر منها، فبعد كل الأيام التي قضتها في بذلة التخفي وكل ما مرت به معها من تجارب مثيرة، فإن تلك القفزة الأخيرة من على المنحدر المطل على المدينة لتتسبب في هذا الأمر.

على كتفها اليمنى كانت الخياطة قد انشقت، وظهر مكانها توهج شديد يكاد يبدو بلون أبيض في الأشعة تحت الحمراء، إذ كانت تنبثق الحرارة الناجمة عن عملية التمثيل الغذائي من جسدها كضوء الشمس.

اقتربت الفتاة منها ببطء وحذر على متن لوحها الطائر.

صاحت بتوتر: «يا رفاق، أظن أنني وجدت شيئًا هنا».

جاءها الرد: «ما هو؟»

تعرفت تالي على الصوت الذي أجابها، إنه ديفيد، وسرت رجفة ضئيلة في جسدها. كانت قريبة جدًا منه، لكنها كادت تعجز عن ضم قبضتها.

توقفت الفتاة الضبابية وهي لا تزال تحدق في تالي مباشرةً وقالت: «يوجد بقعة ساخنة في هذه الشجرة في حجم كرة البيسبول».

صدرت ضحكة من جهة ديفيد وصاح شخص آخر: «ربما يكون هذا سنجابًا ليس إلا».

– «البقعة حرارتها شديدة للغاية، لا يمكن أن يكون سنجابًا، إلا إن كان يحترق.»

انتظرت تالي مغمضةً عينيها بقوة وهي تتمنى أن يبطئ جسدها من تمثيله الغذائي ويكف عن إصدار هذا الكم الكبير من الطاقة، لكن الفتاة الضبابية أصابت

فيما قالت، ففيما بين قلبها الذي يخفق بسرعة شديدة وجزيئات النانو التي تعكف على علاج كتفيها، شعرت تالي وكأنها تحترق.

حاولت تالي أن ترفع يدها اليسرى حتى تغطي الشق الذي اخترق بذلة التخفي لكن عضلاتها لم تطاوعها، ولم يكن بوسعها إلا أن تقف في مكانها وتحاول ألا تتحرك.

أسرعت الأشباح المتوهجة نحوها.

نادى شخص آخر من بعيد قائلًا: «ديفيد، إنهم قادمون!»

أطلق قسمًا، ودار بلوحه الطائر في الجو قائلًا: «سيغضبون إذا رأونا، هيا بنا، لنخرج من هنا».

همهمت الفتاة التي كشفت وجود تالي بإحباط ثم مالت بلوحها وانطلقت خلفه، وانطلق باقي الضبابيين خلفهما ومروا بين قمم الأشجار المورقة، ومضوا بعيدًا.

أخذت تالي تتساءل من هم القادمون؟ ولماذا تركوها هنا؟ ممن يخاف الضبابيون في دييجو؟

ثم سمعت تالي أصوات أقدام تجري عبر الغابة، ورأت ومضات من اللون الأصفر اللامع على الأرض. لقد عرفت ذلك اللون بالضبط في أرياء مستوى الأمن والحراس صباح اليوم، لون أصفر تقطعه خطوط سوداء عريضة، فبدوا كالصفار المتنكرين في زي النحل الطنان.

تذكرت ما قاله فاوستو بشأن سلطات دييجو وأنها لا تزال تسيطر على زمام الأمور، وابتسمت. ربما يتساهلون مع وجود الضبابيين هناك، لكن الحراس على الأرجح لا يسمحون بمحاولات اختطاف في الحفلات.

ألصقت تالي جسدها بجذع الشجرة أكثر وهي تشعر بالتمزق الذي حل ببذلة التخفي وكأنه جرح ينزف. إن كانت معهم أجهزة رؤية ليلية فسيرونها مثلما رآها الضبابيون. مرة أخرى حاولت تالي أن ترفع يدها اليسرى لتغطي الفرزة المفتوحة ...

شعرت تالي بالألم للحظة مروعة فانتابتها نوبة من الدوار، وشهقت من الألم. أغمضت عينيها بشدة وهي تحاول ألا تصرخ مرة أخرى.

فجأة وجدت العالم يميل إلى أحد جانبيها، وفتحت تالي عينيها وأدركت بعد فوات الأوان أن إحدى قدميها قد انزلقت من على الغصن. أخذت يداها تبحثان عشوائيًا عن شيء تتشبث به، لكن لم تثمر المحاولة إلا عن شعور جديد بالألم، وبعدها أخذت تسقط، بلا حول ولا قوة، وارتطمت بعنف بالأشجار وجراحها تئن وهي تصطدم بكل الأغصان في طريقها إلى الأرض.

هبطت على الأرض وهي تئن وأطرافها ممددة في اتجاهات مختلفة وكأنها دمية ألقيت على الأرض.

وبسرعة تشكلت حولها مجموعة من الحراس الذين يرتدون بذلات صفراء.

قال أحدهم بغلظة: «لا تتحركي!»

رفعت تالي بصرها إليه وهمهمت بإحباط. كان الحراس غير مزودين بالسلاح، وهم من الحسان الراشدين العاديين وكانوا خائفين وكأنهم جماعة من القطط تحيط بكلب دوبرمان مسعور. لو لم تكن مصابة، لسخرت منهم وتحركت بينهم بخطوات رشيقة ودفعتهم كما تدفع قطع الدومينو.

لكن نظرًا لما آل إليه حالها، فسر الحراس سكون حركتها على أنه استسلام.

الفصل الرابع والعشرون

انتهاكات نموذج تشكيل الملامح المورفولوجي

أفاقت تالي في مقصورة ذات حوائط مبطنة.

كانت رائحة المكان تشبه تمامًا رائحة المستشفى الكبير في مدينتها الأصلية: الرائحة الكيميائية النفاذة التي تميز المطهرات، والرائحة البغيضة المنبعثة من أعداد كبيرة من البشر الذين غمرهم الأيون بالمياه بدلًا من أن يستحموا. وفي مكان بعيد عن مرمى البصر، التقطت حواس تالي وجود بأجهزة تدفئة للأسرة تقوم بعملها في هدوء.

لكن معظم حجرات المستشفى لم تكن لها جدران مبطنة ولم تكن بلا أبواب. الأرجح أن الباب مخبأ في مكان ما تحت البطانة وأنه وضع في مكانه بلا خياطة تكشفه وبلا لحام يكشفه. وكان ينبعث من أسلاك مبعثرة على السقف المرتفع ضوءٌ هادئٌ بألوان فاتحة متنوعة تهدف على الأرجح إلى تهدئة الأعصاب.

جلست تالي وثنت ذراعيها وأخذت تدلك كتفيها. كانت عضلاتها متخشبةً وتؤلمها، لكنها استعادت قوتها المعتادة. وأيًا كانت المادة التي استخدمها الحراس لتخديرها فقد أفقدتها وعيها بعض الوقت. وكانت شاي قد كسرت يد تالي ذات مرة أثناء أحد التدريبات لتشرح لها عمليًا كيفية العلاج الذاتي، وقد استغرق الأمر منها ساعات حتى تشعر أنها على ما يرام مرةً أخرى.

رفست تالي الغطاء بقدميها، ثم نظرت إلى نفسها وتمتمت: «لا بد أن هذه مزحة».

لقد اكتشفت أنهم ألبسوها قميص نوم رقيقًا مخصصًا للاستعمال مرة واحدة، مزين بزهور وردية اللون، بدلًا من بذلة التخفي التي كانت ترتديها.

نهضت تالي وخلعته بسرعة وكورته ثم ألقته على الأرض وركلته تحت السرير، فمن الأفضل أن تكون عارية بدلًا من أن تبدو سخيفة.

في الواقع شعرت بالارتياح لخلعها أخيرًا بذلة التخفي، قد يكون صحيحًا أن نسيجها ينقل العرق وخلايا الجلد الميتة إلى سطح البذلة لكن لا يوجد شيء أفضل من الاستحمام بالمياه من حين إلى آخر. حكت تالي جلدها وهي تفكر فيما إذا كانت تستطيع الاستحمام في هذا المكان.

خاطبت الحجرة قائلةً: «هل يوجد من يسمعني؟»

عندما لم تتلق أي رد راحت تدقق النظر أكثر في الحائط، فرأت نسيج البطانة يلمع بعدسات صغيرة سداسية الشكل، فهناك آلاف الكاميرات متناهية الصغر التي يستطيع الأطباء عن طريقها رؤية كل ما تفعله من أية زاوية.

قالت تالي بصوت مرتفع: «هيا يا رفاق، أعلم أنكم تستطيعون سماعي»، ثم ضمت قبضتها ولكمت الحائط بأقصى ما أوتيت من قوة.

تأوهت وأخذت تسب عدة مرات وهي تلوح بيدها في الهواء. خففت البطانة من الألم قليلًا لكن الجدار من خلفها كان مبنيًا من مادة أكثر صلابة من الخشب والحجر، فهي على الأرجح مشتقة من الخزف الصلب المستخدم في الإنشاءات. لن تتمكن تالي من الهرب من هنا بيديها العاريتين.

عادت تالي إلى سريرها وجلست وهي تحرك أصابعها وتتنهد.

قال صوت: «من فضلك أيتها الشابة خذي حذرك، فقد تؤذي نفسك».

نظرت تالي إلى يديها فرأت أن المفاصل لم يصبها أذى، بل لم يصبها احمرار. قالت: «كل ما في الأمر أنني أردت أن ألفت انتباهكم».

– «انتباهنا؟ هل هذا كل ما في الأمر؟»

همهمت تالي في استياء. من المزعج أن يُحبس المرء في حجرة مخصصة لحبس المجانين، ولكن من المزعج أكثر أن يتحدث الناس معه مثلما يتحدثون مع طفل ضبطوه يلقي قنبلة روائح كريهة. بدا الصوت عميقًا، ومهدئًا، ولا ينتمي لجنس معين، وكأنه لحن علاجي رتيب. تخيلت تالي أن ثمة لجنةً من الأطباء خلف الحائط تكتب الإجابات حتى ينطق بها الصوت الحاسوبي المهدئ.

قالت: «في الواقع حجرتي ليس لها باب، هل انتهكت القانون أو شيئًا من هذا القبيل؟»

– «أنت خاضعة للمراقبة الموجهة بصفتك تمثلين خطرًا محتملًا على نفسك وعلى الآخرين».

بدا الضيق على تالي، فعندما تخرج من هنا ستكون أكثر من خطر محتمل، لكنها لم تزد عن قولها: «من، أنا؟»

– «بدايةً لقد قفزت من على المنحدر الذي يطل على المدينة دون معدات مناسبة لهذا.»

فغرت تالي فاها وقالت: «أهذا هو خطئي؟ كنت أتحدث إلى صديق قديم لي فحسب، وفجأة بدأ كل هؤلاء المجانين القطريين الذين يحملون أقواسا وسهامًا يرمونني بالسهام. ما الذي كان يُفترض أن أفعله؟ أقف في مكاني حتى يخطفونني؟»

صمت الصوت ثم قال: «إننا ندرس تسجيل فيديو للواقعة، ونعترف بأنه توجد بعض العناصر المهاجرة هنا في دييجو التي قد تكون مثيرة للشغب، ونعتذر عن هذا، فهم لم يتصرفوا بهذا السوء من قبل، وتأكدي من أننا ننهض بمهمة التوسط في هذا الأمر.»

– «تتوسطون؟ كأنكم تتحدثون معهم في هذا الأمر؟ لماذا لا تحبسون أحدًا منهم بدلًا مني؟ لا تنسوا أنني أنا المجني عليها في هذا الموقف.»

مرت فترة صمت أخرى ثم قال الصوت: «سنبت في هذا الأمر. هل لي أن أسأل عن اسمك والمدينة التي جئت منها وكيف تعرفت بالضبط على «صديقك القديم» هذا؟»

تحسست تالي الغطاء بين أصابعها فوجدت أن نسيجه مثل بطانة الخاتم، يحتوي على أجهزة استشعار صغيرة عبارة عن آلات ضئيلة تقيس معدل نبضات القلب، والعرق، والمقاومة الكهربائية للجلد. أخذت تالي نفسًا بطيئًا بضع مرات، محاولةً أن تسيطر على غضبها. إن حافظت على رباطة جأشها، فسيصبح من الممكن أن يخضعوها لاختبارات كشف الكذب طوال اليوم دون أن يكتشفوا أدنى كذبة.

قالت بحذر: «اسمي تالي وقد هربت من الشمال وسمعت أنكم تحسنون معاملة الهاربين.»

– «إننا نرحب بالمهاجرين، في ظل النظام الجديد نسمح لأي شخص بالتقدم بطلب الحصول على جنسية دييجو.»

– ««النظام الجديد»؟ أهكذا تسمونه؟» وبدا الانزعاج عليها وأضافت: «آه، حسنًا النظام الجديد يعد نظامًا سيئًا إن كان يحبس الناس لا لشيء إلا لهروبهم من مجموعة من المجانين، هل ذكرت لكم أمر الأقواس والسهام؟»

– «اطمئني فأنت لست تحت المراقبة بسبب أي من أفعالك يا تالي، فنحن مهتمون أكثر ببعض الانتهاكات التي حلت بتكوينك المورفولوجي.»

بالرغم من التركيز الذي أبدته تالي، سرت رجفة توتر في جسدها، قالت: «ماذا؟»

– «تالي لقد أُعيد بناء جسدك حول هيكل عظمي من الخزف القوي، وتحولت أظافرك وأسنانك إلى أسلحة، وزادت عضلاتك ومراكز الاستجابة في جسدك زيادةً كبيرةً.»

أدركت تالي ما فعله الحراس وقد انتابها شعور بشع. لقد ظنوا أنها أُصيبَت إصابة خطيرة فأحضروها إلى المستشفى حتى تخضع لفحص دقيق، وما اكتشفه الأطباء أثار خوف السلطات.

قالت وهي تحاول أن تبدو بريئة: «لست أدري ما الذي تتحدث عنه».

– «توجد أيضًا أجسام ما في الطبقة العليا من قشرة المخ، يبدو أنها أجسام صناعية صُمِمَت لتغير من سلوكك. تالي هل تعانين من نوبات مفاجئة من الغضب أو السعادة، أو نزعات غير اجتماعية أو إحساس بالاستعلاء؟»

أخذت تالي نفسًا عميقًا آخر، وجاهدت حتى تحافظ على هدوئها وقالت بلهجة بطيئة ومدروسة: «ما أعاني منه هو أنني محبوسة».

– «لماذا توجد ندوب على ذراعيك يا تالي؟ هل فعل بك شخص ما هذا؟»

ضحكت وهي تتحسس بأصابعها صفًا من الندوب الناجمة عن جرحها لنفسها، وقالت: «ماذا عنه؟ تعد هذه موضة تلفت الأنظار في المكان الذي جئت منه».

– «تالي قد تكونين غير واعية بما حل بعقلك، وعلى هذا قد يبدو لك أنه من العادي أن تجرحي نفسك.»

همهمت وهي تهز رأسها، ثم ردت: «لكنها ليست إلا ... فبعد كل أنواع الجراحات الجنونية التي رأيتها حولي هنا هل تقلقون بشأن بعض الندوب؟»

– «ما يقلقنا هو دلالتها بشأن سلامة عقلك.»

ردت بغضب بعد أن قررت أن تكف عن التظاهر بالهدوء: «لا تحدثني عن سلامة عقلي فلست أنا من يحبس الناس!»

– «هل تدركين الخلافات السياسية بين مدينتك ومدينتنا يا تالي؟»

سألته: «خلافات سياسية؟ وما علاقة هذا بي؟»

– «لمدينتك تاريخ طويل من الممارسات الجراحية الخطرة يا تالي، وكثيرًا ما كان هذا التاريخ والسياسة التي تنتهجها دييجو بشأن الهاربين مصدرًا للنزاع الدبلوماسي، وقدوم النظام الجديد زاد الأمر سوءًا.»

زفرت تالي قائلة: «إذن فأنتم تحبسونني بسبب المكان الذي جئت منه! هل أصبحتم أيها القوم صورة طبق الأصل من سكان الأطلال القديمة؟»

مرت فترة صمت طويلة بعد هذا. تخيلت تالي الأطباء وهم يتناقشون حول ما سيكتبونه لبرنامج الصوت، صاحت وهي تحاول أن تبدو حسناء مسالمة باكية: «لماذا تعذبونني، دعوني أرى وجوهكم!»

تكورت على السرير وراحت تصدر أصواتًا كالنحيب لكنها تهيأت للقفز في أي اتجاه. لم يدرك هؤلاء الأغبياء على الأرجح أن ذراعيها شفيا تمامًا وهي نائمة. كل ما كانت تحتاجه هو أن يفتح باب واحد مسافة نصف سنتيمتر وتخرج من هذا المستشفى في لمح البصر بصرف النظر عن أنها عارية. بعد لحظة أخرى من الصمت عاد الصوت يقول: «أخشى يا تالي أنه لن يُسمح بإطلاق سراحك، فبسبب التعديلات التي أدخلت على جسدك فإن المعايير التي وضعناها للأسلحة الخطيرة تنطبق عليك، والأسلحة الخطيرة محظورة قانونًا في دييجو».

توقفت تالي عن اصطناع البكاء وفغرت فمها، ثم صاحت: «أتعني أنني محظورة قانونًا! كيف يمكن لشخص أن يكون محظورًا قانونًا؟»

– «لسنا نوجه لك أية تهمة يا تالي، فنحن نعتقد أن مسئولية هذا تقع على سلطات مدينتك، لكن قبل أن تتركي المستشفى يجب إصلاح الانتهاكات التكوينية التي حلت بجسدك.»

– «كلا! فأنتم لن تمسوني!» لم يصدر من الصوت رد فعل لغضبها وإنما استمر بالنبرة الرتيبة محاولًا تهدئتها: «تالي، مدينتك كثيرًا ما تتدخل في شئون المدن الأخرى وخاصةً فيما يتعلق بالهاربين، ونحن نعتقد أنك، دون أن تعلمي، قد أُدخِل عليك تعديلات وأُرسلت إلى هنا لتزعزعي استقرار السكان المهاجرين إلينا.»

ظنوا أنها مغفلة ولم يدركوا حتى أنها عميلة للسلطات الخاصة بعلمها. من المؤكد أنهم لا يدركون مدى تعقد الحقيقة.

بصوت خافت قالت تالي محاولةً أن تحول إحباطها إلى دموع: «إذن دعوني أعود إلى مدينتي، أعدكم أنني سأرحل، فقط اتركوني لحال سبيلي». عضت تالي على شفتها السفلى بشدة أكبر وشعرت بحرقة في عينيها لكنهما كالعادة لم تذرفا أية دموع.

– «لا يمكننا أن نسمح بإطلاق سراحك وأنت في هيئتك التكوينية الحالية، فأنت في غاية الخطورة يا تالي.»

قالت بينها وبين نفسها: «لا تدركون مدى خطورتي».

واصل الصوت حديثه قائلًا: «لك حرية الرحيل عن دييجو إن أردت لكن ليس قبل أن نجري بعض التعديلات على جسدك».

– «كلا،» وانتابتها قشعريرة. لا يمكن أن يحدث هذا.

– «لا يمكنني إطلاق سراحك من الناحية القانونية قبل نزع سلاحك».

– «لكن لا يمكنكم إجراء جراحة لي إذا لم أرغب في ذلك.» تخيلت نفسها ضعيفة مرة أخرى، بائسة، وتافهة، وعادية. وأضافت قائلة: «ماذا عن ... الموافقة المستنيرة؟»

– «لن نجري أية محاولات تجريبية لتغيير كيمياء مخك المعدلة إن كنت تفضلين هذا، فقد تتعلمين السيطرة على أفعالك بمساعدة المشورة، لكن سنصلح التعديلات الخطيرة التي أدخلت على جسدك باستخدام تقنيات جراحية معروفة، والموافقة المستنيرة لن تكون مطلوبة».

فتحت تالي فمها مرةً أخرى، لكنها لم تنبس ببنت شفة. هم يريدون أن يجعلوها عاديةً مرة أخرى دون حتى أن يصلحوا عقلها؛ أي منطق كابوسي هذا؟

فجأة بدت الجدران المصمتة الأربعة المحيطة بها خانقة، وعيونها اللامعة شرهة ساخرة. تخيلت تالي أدوات معدنية باردة تمتد نحوها وتنتزع كل السمات الفائقة بداخلها.

في تلك اللحظات المعدودة التي مرت وهي تقبل زينًا تخيلت أنها تريد أن تعود عادية، لكن الآن — مع وجود من يهدد بالحط من منزلتها لتكون في عداد متواضعي القدرات — فإنها لا تطيق تلك الفكرة.

كانت تريد أن تتمكن من النظر إلى زين دون اشمئزاز، أن تلمسه وتقبله، لكن ليس إن كان هذا يتطلب أن تتغير بغير إرادتها ...

همست قائلةً: «أطلقوا سراحي».

– «يؤسفني أنه لا يمكننا ذلك يا تالي، لكن عندما ننتهي ستكونين جميلة معافاة كالآخرين، فكري في الأمر، هنا في دييجو تستطيعين الحصول على المظهر الذي تريدينه».

هبت تالي واقفة وأسرعت إلى أقرب حائط وقالت: «الأمر لا علاقة له بمظهري». طوحت بقبضتها إلى الخلف ولكمت الحائط بكل قوتها، فداهمها الألم مرة أخرى.

– «تالي، من فضلك توقفي».

ردت وهي تضغط على أسنانها: «محال!» ولكمت الحائط بشراسة مرة أخرى. إن بدأت تؤذي نفسها فسيضطرون إلى فتح الباب.

وعندها سيدركون مدى خطورتها حقًا.

– «تالي، من فضلك.»

مرةً أخرى طوحت يدها إلى الوراء وضربت الحائط، فشعرت بمفاصل أصابعها تكاد تتهشم بفعل صلابة الحديد الكامن خلف البطانة. وندت من بين شفتيها شهقة ألم، وتلطخت البطانة ببقع الدماء، لكن تالي لم تستطع أن تكبح جماح نفسها. إنهم يعلمون كم هي قوية، ولا بد أن يبدو الأمر حقيقيًا.

– «إنك لا تتركين لنا خيارًا.»

قالت لنفسها: «رائع، فقط ادخلوا وحاولوا إيقافي».

ضربت الحائط مرةً أخرى، وندت شفتاها بصيحة أخرى ... ومزيد من الدماء يسيل.

ثم شعرت تالي بشيء ينتابها من الألم شعرت بدوار يداهمها.

قالت: «كلا، هذا ليس عدلًا».

تسللت إلى أنفها رائحة خفيفة يعجز عن التقاطها أي شخص عادي، تمكنت من التقاطها بالرغم من جميع روائح المطهرات وأجهزة تدفئة الأسرة التي يعج بها المستشفى. عادة ما يتمتع المتميزون بمناعة ضد الغاز المسبب للإغماء، لكن دييجو أصبحت تعرف أسرارها الآن، ومن المحتمل أنهم صمموا هذا الغاز خصوصًا لها ...

جثت تالي على ركبتيها وأبطأت من سرعة تنفسها إلى أقصى حد ممكن وهي تحاول باستماتة أن تهدئ من روعها وتستنشق أقل كمية ممكنة من الهواء. ربما عجزوا عن تخمين مدى قدرتها على مواجهة كل أشكال الهجوم بدقة ومدى قدرة جسدها على استيعاب السموم بسرعة في عملية التمثيل الغذائي.

استندت تالي على الحائط وهي تشعر بضعفها يزداد كل ثانية. فجأة صارت البطانة مريحة جدًا، وكأن شخصًا ما قد وضع وسادات في كل مكان. تمكنت من إجراء بعض حركات التواصل بيدها اليسرى ضابطةً برنامجها بحيث يصدر أزيزًا كل عشر دقائق. يجب أن تستيقظ تالي قبل أن يجروا لها العملية الجراحية.

حاولت تالي أن تبدي التركيز، وتخطط، لكن لمعان العدسات الضئيلة الموجودة في البطانة كان جميلًا جدًا، فأغمضت عينيها ببطء، عليها أن تهرب، لكنها تريد أن تنام أولًا.

في الواقع لم يكن النوم سيئًا للغاية، فهو يشبه العودة إلى تشوش العقل، بلا شيء يقلقها وبلا غضب في أعماقها ...

الفصل الخامس والعشرون

أصوات

شعرت بأن المكان لطيف، لطيف وهادئ.

لأول مرة منذ وقت طويل لم تعد تالي تشعر بالسخط أو الإحباط. لقد تلاشى التحفز الذي كانت تشعر به في عضلاتها، وذهب معه الإحساس بأن عليها أن تذهب إلى مكان ما، أن تفعل شيئًا ما، أن تثبت قدرتها مرة أخرى. هنا في هذا المكان أحست أنها تالي فقط، وسرت تلك العذوبة البسيطة في جلدها كالنسيم العليل، وشعرت بأن ملمس يدها اليمنى رائع للغاية، وكأنه يوجد من يرش عليها شمبانيا دافئة.

فتحت تالي عينيها فوجدت كل شيء بعيدًا عن بؤرة تركيزها على نحو يبعث على الراحة، لم يكن أي شيء جليًا ومحدد المعالم كالعادة. في الواقع المكان هنا يعج بالسحاب، سحاب أبيض وشبيه بالزغب، وأخذت تالي تحدق في السماء كفتاة صغيرة، فبدأت ترى أي شكل تريد رؤيته. حاولت أن تتخيل تنينًا، لكن عقلها لم يستطع أن يتصور جناحيه على حقيقتهما ... وكان شكل الأسنان معقدًا إلى حد ما.

إضافةً إلى هذا فإن التنانين كائنات مرعبة جدًا، وقد مرت تالي أو ربما أحد معارفها بتجربة سيئة مع تنين.

أحست أنه من الأفضل أن تتخيل أصدقاءها: شاي-لا وزين-لا وكل من أحبوها. كل ما تريده حقًّا هو أن تذهب وتراهم فور أن تحصل على قسط من النوم. أغمضت عينيها مرة أخرى.

دوى أزيز.

جاء ذلك الصوت مرةً أخرى، كان يصدر من حين إلى آخر، وكأنه صديق قديم يطمئن عليها.

قالت: «مرحبًا يا أزيز-لا».

لم يرد عليها الأزيز قط، لكنها ودت أن تتصرف بشكل لائق.

سمعت صوتًا يسأل: «هل قالت شيئًا لتوها أيها الطبيب؟»

- «لا يمكن، يصعب هذا بعد ما أعطيناها إياه».

قال صوت آخر: «هل راجعت الرسم البياني للتمثيل الغذائي في جسدها؟ لا نريد أن نخاطر، تفحص تلك الأربطة».

سمعت شخصًا يدمدم، ثم بدأ يعبث بيدي تالي وقدميها واحدة تلو الأخرى في مسار دائري بدأ بيدها اليمنى المفعمة بالحيوية وتحرك باتجاه عقارب الساعة. تخيلت تالي أنها ساعة، ترقد وتدق بهدوء.

- «لا تقلق أيها الطبيب، فهي لن تذهب إلى أي مكان».

كان الصوت مخطئًا في ذلك، لأنه بعد هذا بلحظة شعرت تالي أنها تذهب إلى أماكن كثيرة وأنها تطفو على ظهرها. لم تستطع أن تفتح عينيها لكنها شعرت وكأنها راقدة فوق نقالة طائرة ما. كانت الأنوار تتوهج فوقها وكانت ساطعة سطوعًا يسمح لها بالرؤية بالرغم من أنها مغمضة العينين. شعرت أذنها الداخلية بالنقالة الطائرة تنعطف يسارًا وتبطئ ثم تنحدر قليلًا وهي تمر فوق مطب في الشبكة المغناطيسية. ثم شعرت أنها ترتفع وسرعتها تزداد حتى إن الضغط بدأ يتقوى في أذنيها.

قال أحد الأصوات: «حسنًا، انتظري فريق الإعداد هنا، ولا تتركيها بمفردها، واستدعيني إن تحركت».

- «حسنًا أيها الطبيب، لكنها لن تتحرك».

ابتسمت تالي، وقررت أن تحتال عليهم ولا تتحرك. في مكان ما في أعماق عقلها فكرت أن خداع الصوت أمر مسلٍ جدًا.

أزيز.

ردت قائلةً: «مرحبًا»، ثم تذكرت أمر تجنب الحركة.

ظلت تالي راقدة بلا حراك للحظات، ثم بدأت تتساءل عن مصدر الأزيز، فقد بدأ صوته يزعجها.

حركت تالي أصابعها إلى أن سقطت صفحة اتصال بداخل جفنيها. لم يكن برنامجها الداخلي ضبابيًا ككل ما عداه، ولم يكن عليها إلا أن تحرك أصابعها لتشغيله.

لاحظت تالي أن الأزيز عبارة عن رسائل تذكير بمواعيد الاستيقاظ. كان من المفترض أن تستيقظ لتفعل أمرًا ما.

تنهدت ببطء، لقد أحست أن الرقود هنا مريح جدًا. إضافةً إلى هذا فهي لا تستطيع أن تتذكر الأمر الذي ضبطت الأزيز من أجله، مما جعل أمر الأزيز كله بلا أهمية. في الواقع كان الأزيز سخيفًا، وكانت تالي لتضحك بصوت عالٍ لو لم يكن الضحك صعبًا عليها. فجأة أحست أن كل صوت أزيز سخيف.

حركت إصبعها لتوقف تشغيل دورة الإيقاظ حتى لا تزعجها مرةً أخرى.

لكن السؤال ظل يلح عليها: ما الذي كان يُفترض أن تفعله؟ ربما يدري به أحد الجارحين الآخرين. ضغطت زر تشغيل بث معلومات شبكة التواصل المغروسة في جلدها.

سمعت صوتًا يسأل قائلًا: «تالي؟ أخيرًا!»

ابتسمت تالي، إنها شاي-لا وهي تعرف دومًا ما ينبغي فعله.

قالت شاي: «هل أنت بخير؟ أين كنت؟»

حاولت تالي أن تجيب لكنها أحست أن الكلام صعب عليها.

قالت شاي بعد بضع لحظات وقد بدا القلق في صوتها: «هل أنت بخير يا تالي؟»

تذكرت تالي أن شاي كانت غاضبة منها، فانقطعت ابتسامتها. فلم تعد شاي-لا غاضبة منها فيما يبدو، بل بدا عليها القلق فحسب.

حاولت تالي جاهدةً أن تتكلم وقالت وهي تمط حروف الكلمات: «أحس بالنعاس».

– «آه، تبًا.»

شعرت تالي بالدهشة، فقد قال صوتان: «آه، تبًا»، في الوقت نفسه بالضبط، وبالأسلوب المذعور نفسه بالضبط. أحد الصوتين كان صوت شاي بداخل رأسها والصوت الآخر كان ذلك الصوت الذي ظلت تسمعه.

بدأ الأمر يزداد تعقيدًا كأسنان التنين التي حاولت أن تتخيلها.

قالت تالي: «أريد أن أستيقظ».

قال الصوت الآخر: «آه، تبًا!»

في الوقت نفسه كانت شاي تقول: «ابق في مكانك يا تالي، أظن أنني حددت المكان الذي تبثين إشارتك منه. أنت في المستشفى، أليس كذلك؟»

تمتمت تالي: «آه ه ه ه...». ميزت تالي رائحة المستشفى مع أن الصوت الآخر كان يعيق قدرتها على التركيز. كان يصيح بأشياء على نحو يسبب الصداع لتالي، إذ أخذ

يردد: «أظن أنها تستيقظ! فليحضر أحدكم شيئًا يفقدها الوعي مرة أخرى!» ... إلخ، إلخ، إلخ.

قالت شاي: «نحن قريبون منك، لقد خمنا أنك في مكان ما داخل المستشفى، فلديك موعد لإجراء عملية جراحية تنزع عنك صفات المتميزين في غضون ساعة».

قالت تالي «آه، صحيح.» وقد تذكرت الآن ما كان من المفترض أن تفعله: أن تهرب من هذا المكان، وهي مهمة ستكون غاية في الصعوبة، أصعب كثيرًا من تحريك أناملها. وأردفت قائلة: «ساعديني يا شاي-لا».

– «اصمدي يا تالي وحاولي أن تستيقظي، أنا قادمة لإنقاذك.»

همست تالي: «حسنًا يا شاي-لا».

– «لكن أطفئي شبكة التواصل الآن، فإن كانوا قد فحصوك فربما يسترقون السمع ...»

– قالت تالي: «حسنًا». كانت أصابعها تتحرك، وتلاشى الصوت الذي كان يدوي في رأسها، وأخذ الصوت الآخر يصيح، ويشكو بالأسلوب المفعم بالقلق، وبدأ يصيب تالي بالصداع.

– «أيها الطبيب، لقد قالت شيئًا لتوها، بالرغم من أنها تناولت الجرعة الأخيرة، ما هذه بالله عليك؟»

قال شخص آخر: «أيًا كانت هويتها، لا بد أن هذا سيفقدها الوعي»، وداهمها النعاس مرةً أخرى.

وهكذا عادت تالي إلى حالة عدم التفكير.

الفصل السادس والعشرون

النور

عاد إليها الوعي مع دفقة من النور.

اندفع الأدرينالين في عروق تالي، وكأنها تستيقظ من كابوس وهي تصرخ. فجأة صار العالم واضحًا كالماس: حادًا مثل الأسنان التي في فمها، ساطعًا مثل ضوء موضعي مسلط على عينيها.

جلست تالي منتصبة الظهر، وراحت تتنفس بقوة وهي تضم قبضتيها بشدة. وكانت شاي تقف عند طرف سرير المستشفى وهي تعبث بالأربطة الملفوفة حول كاحليها.

صاحت قائلة: «شاي!» شعرت تالي بكل شيء يملأ حواسها حتى إنها اضطرت إلى الصياح.

– «لقد أيقظك ذلك، أليس كذلك؟»

«شاي!» شعرت بوخزة في ذراعها؛ إذ كان شخص ما قد أعطاها حقنةً لتوه، وبدأت الطاقة تفور بداخلها، وقد عادت إليها كل قوتها وعنفوانها. حركت إحدى قدميها المربوطة برباط يلتف حول كاحلها، لكن القيد المعدني ظل قابضًا عليها.

قالت شاي: «اهدئي يا تالي-وا، سأكسره أنا».

تمتمت تالي قائلة: «أهدأ؟» وهي تتأمل الحجرة. فالآلات تصطف أمام الجدران، وجميعها في وضع التشغيل. في منتصف الحجرة يوجد حوض من الأحواض المستخدمة في العمليات الجراحية والسائل المستخدم للإمداد بأسباب الحياة يسري بداخله ببطء وهو يصدر خريرًا، وأنبوب التنفس يتدلى منه على نحو غير محكم في انتظار الاستخدام. كانت المشارط والمناشير الكهربائية تقبع على منضدة قريبة.

كان رجلان غائبان عن الوعي يرقدان على الأرض يرتديان زي طاقم العمليات، أحدهما من الحسان الراشدين، والآخر صغير بما يكفي لأن يرتدي رداءً من الفرو

تغطيه بقع على شكل جلد نمر. وفور أن وقعت عينا تالي عليهما، سرت ذكريات الأربع والعشرين ساعة الماضية أمام عينيها: مدينة القطريين، الأسر، التهديد بإجراء عملية تعيدها فتاة عادية.

حركت تالي القيود التي تلتف حول كاحليها وهي تشعر برغبة في الهروب من هذه الحجرة على الفور.

قالت شاي محاولةً تهدئتها: «لقد قاربت على الانتهاء».

شعرت تالي بحكة في ذراعها، ووجدت ضفيرةً من الأسلاك والأنابيب مغروسة فيها، هي أدوات إنعاش لازمة لجراحة كبرى. صاحت باستياء ونزعتها بعنف، فلطخت الدماء الأرض البيضاء النظيفة، لكنها لم تشعر بألم؛ فاتحاد المخدر مع المادة التي استخدمتها شاي لتوقظها قد ملأها بغضب يطغى على أي ألم.

عندما انتهت شاي أخيرًا من فك القيد الثاني الذي كان يكبل كاحلها الثاني هبت تالي واقفةً وهي تضم قبضتيها.

قالت: «حسنًا، ربما يكون من الأفضل أن ترتدي هذه»، وألقت إليها بذلة تخفٍ. نظرت تالي إلى نفسها فوجدت أنها كانت ترتدي قميص نوم آخر مخصصًا للاستخدام مرة واحدة، وكان لونه ورديًا مرسومًا عليه ديناصورات زرقاء.

فصاحت وهي تنزع قميص النوم عنها وتضع إحدى قدميها في البذلة قائلة: «ماذا أصاب هذه المستشفيات؟»

همست شاي في غضب: «اصمتي حالًا يا تالي-وا، لقد نزعت أجهزة الاستشعار، لكن القطريين أنفسهم يستطيعون سماعك وأنت تصيحين هكذا، أتفهمين؟ ولا تُشغلي شبكة التواصل المغروسة في جسدك الآن، وإلا ستكشفنا».

فقالت تالي: «آسفة أيتها القائدة». واجتاحتها موجة دوار مفاجئة، وذلك لأنها وقفت بأسرع من اللازم، لكنها تمكنت من أن تضع قدميها في بذلة التخفي وترفعها حول كتفيها. عندما اكتشفت البذلة معدل نبضات قلبها السريع، ضبطت نفسها مباشرة على الهيئة المدرعة وتحرك نسيجها حركةً متموجةً، ثم استقر في هيئة مستوية صلبة.

وبينما وضعت شاي إحدى يديها على الباب همست وهي تشير إلى بذلتها: «كلا، اضبطيها على هذا النحو». كانت بذلتها هي مضبوطة على اللون الأزرق السماوي وهو لون الزي الذي يرتديه طاقم العمليات.

وبينما كانت تالي تضبط بذلتها لتتماشى مع لون بذلة شاي كانت لا تزال مصابة بالدوار بفعل ما يعتمل بداخلها من طاقة جامحة، قالت وهي تحاول التحدث بصوت منخفض: «لقد أتيت من أجلي».

– «لم أكن لأتركهم يفعلوا بك هذا».

– «لكنني ظننت أنك تكرهينني».

قالت شاي بتهكم: «أحيانًا أكرهك يا تالي، مثلما لم أكره أحدًا من قبل»، وأضافت: «ربما لهذا أظل أعود لأنقذك».

ابتلعت تالي ريقها وتلفتت حولها مرةً أخرى وتطلعت إلى حوض العمليات والمنضدة التي تعج بالأدوات الجراحية وكل الأدوات التي كانت ستعيدها فتاة عادية مرة أخرى وتنزع عنها صفات المتميزين حسبما قالت شاي. وقالت: «أشكرك يا شاي-لا».

– «لا عليك، هل أنت مستعدة للخروج من هنا؟»

– «انتظري أيتها القائدة»، ابتلعت تالي ريقها وأضافت: «لقد رأيت فاوستو».

– «أنا أيضًا»، لم يحمل صوت شاي أية نبرة، كانت تسرد حقيقة فحسب.

– «لكنه ...»

– «أعرف».

– «تعرفين ...» قطعت تالي خطوة إلى الأمام وعقلها لا يزال مصابًا بدوار بفعل الإفاقة وكل ما مرت به. «لكن كيف سنتصرف بشأنه يا شاي؟»

– «علينا أن نرحل يا تالي، فباقي الجارحين ينتظروننا على السطح، ففي انتظارنا أمر جلل، أجل من الضبابيين كثيرًا».

قطبت تالي جبينها وقالت: «لكن ماذا ...؟»

شقت صيحةُ إنذار حادة الهواء.

فهتفت شاي قائلةً: «لا بد أنهم يقتربون، علينا أن نرحل!»، وأمسكت بيد تالي وشدتها عبر الباب.

تبعتها تالي وعقلها يلف ولا تزال قدماها لا تقويان على حملها. خارج الحجرة كان يمتد أمامهما في الاتجاهين ممرٌّ طويل مستقيم، وكان صدى الإنذار يتردد فيه. كان الناس الذين يرتدون زي طاقم العمليات يندفعون من الأبواب من كلا الجانبين، فعج الممر بأصواتهم المختلطة.

انطلقت شاي بسرعة من بين الأطباء والعاملين الذاهلين الذين ظلوا واقفين كأنهم تماثيل. كانت رشيقة الخطى وسريعة حتى إنه ما من أحد في الحشد المرتبك لاحظ تالي وهي تنطلق كالسهم ذي اللون الأزرق السماوي الشبيه بألوان ملابسهم.

أجلت تالي استفساراتها وتبعت شاي، لكن الدوار الذي انتابها إثر إفاقتها بدأ يتلاشى ببطء شديد. أخذت تراوغ الناس بقدر استطاعتها، وأطاحت بأي شخص يقف في طريقها. كان جسدها يتحرك حركة ارتدادية بعد اصطدامها بالأجساد والجدران، لكنها تمكنت من مواصلة الحركة، وجعلت طاقتها الجامحة تحملها.

صاح صوت: «توقفا!»

أمام شاي كانت مجموعة من الحارسات يقفن مرتدين زيهم ذي اللونين الأسود والأصفر والعصي الكهربائية التي تحملها أيديهن تلمع في النور الخافت.

لم تتردد شاي، وتحولت بذلتها إلى اللون الأسود وهي تندفع داخلها وانطلقت قدماها ويداها بسرعة. امتلأ الهواء برائحة تشبه الرائحة التي تنبعث فور حدوث البرق، والعصي الكهربائية تضرب نسيجها المدرع مطلقةً حسيسًا كحسيس احتراق البعوض على المصابيح. دارت بسرعة بين الخصوم جاعلة الحارسات اللاتي يرتدين ملابس صفراء يترنحن في جميع الاتجاهات.

حين وصلت تالي إلى موقع الصراع، لم يبق من الحارسات الواقفات سوى اثنتين تتقهقران في الردهة وتحاولان أن تصدا شاي، وعصيهما الكهربائية تلوحان في الهواء. خطت تالي بسرعة خلف واحدة من الحارسات وسحبتها من معصمها ولوته حتى أصدر صوت طقطقةً، ثم دفعتها نحو الأخرى فسقطت الاثنتان أرضًا.

– «لا داعي لأن تهشمي عظامهما يا تالي-وا.»

نظرت تالي إلى المرأة فوجدتها تمسك بمعصمها وهي تطلق صرخة ألم.

– «آه، آسفة أيتها القائدة.»

– «هذا ليس خطئك يا تالي، هيا بنا.» اقتحمت شاي الباب المؤدي إلى بئر السلم وتوجهت إلى أعلى، مجتازةً كل مجموعة من درج السلم بقفزتين كبيرتين. تبعتها تالي وقد شفيت تقريبًا من الدوار الذي أصابها، لكن الطاقة الجامحة الناجمة عن حقنة الإفاقة كانت تتلاشى قليلًا وهي تجري. انغلقت الأبواب التي تؤدي إلى بئر السلم خلفهما، فخمدت صرخة جهاز الإنذار التي تصم الآذان.

تساءلت: ما الذي حدث لشاي؟ وأين كانت طوال هذا الوقت. منذ متى والجارحون الآخرون موجودون هنا في دييجو؟

لكن يمكن للأسئلة أن تنتظر. فقد كانت تالي سعيدة باسترداد حريتها وقتالها بجوار شاي وكونها من المتميزين. لا شيء يمكنه أن يوقفهما وهما معًا.

بعد ارتقاء مجموعات قليلة من درج السلم وصلتا إلى نهاية السلم. اندفعتا عبر الباب الأخير إلى السطح. كانت سماء الليل من فوقهما تلمع بآلاف النجوم، التي بدت رائعة وواضحة.

بعد المكوث في المقصورة المبطنة، كان من الرائع أن تكون في العراء تحت السماء المكشوفة. حاولت تالي أن تستنشق الهواء النقي، لكن رائحة المستشفى كانت لا تزال تنبعث من صفوف المداخن المحيطة بهما.

قالت شاي: «هذا جيد، لم يصلوا بعد».

سألتها تالي: «من تقصدين؟»

قادتها شاي عبر السطح نحو مبنى ضخم مظلم بجوار المستشفى، تذكرت تالي أنه دار البلدية. وتطلعت شاي من فوق الحافة.

كان الناس يندفعون خارج المستشفى والعاملون متشحون باللونين الأبيض والأزرق السماوي، والمرضى يرتدون ثيابًا رقيقة، بعضهم يمشي والبعض الآخر يرقد على نقالات طائرة يدفعها العاملون. سمعت تالي صدى الإنذار يتردد خارج النوافذ في الأسفل وأدركت أن الصوت قد تغير إلى إشارة إخلاء ذات نغمتين.

– «ما الذي يحدث يا شاي؟ إنهم لا يخلون المكان بسببنا نحن أليس كذلك؟»

– «بل، ليس بسببنا». التفتت شاي إليها ووضعت إحدى يديها على كتفها وأضافت: «أريدك أن تصغي إلي يا تالي، فما سأقوله مهم».

– «كلي آذان صاغية يا شاي، فقط أخبريني ما الذي يحدث!»

– «حسنًا، أعرف كل ما حل بفاوستو، فقد تتبعت الإشارة الصادرة من شبكة التواصل المغروسة في جسده منذ أن وصلت إلى هنا منذ أكثر من أسبوع مضى، وقد اتضح الأمر كله».

– «إذن فأنت تعلمين ... أنه لم يعد من المتميزين».

– صمتت شاي ثم قالت: «لست واثقة إن كنتِ على صواب في ذلك يا تالي».

– «لكنه مختلف يا شاي، إنه ضعيف، لقد رأيت هذا في ...» خبا صوت تالي وهي تمعن النظر وشهقت وقد غمرها الشعور بالإنكار وعدم التصديق: فقد رأت في عيني شاي رقة لم ترها من قبل قط، لكن هذه هي شاي، كما عهدتها دومًا، بكل سرعتها وعنفوانها، فقد مرت من بين الحراس كالمنجل.

قالت شاي: «ليس ضعيفًا، ولست أنا كذلك».

هزت تالي رأسها استنكارًا وتراجعت في خطوات متعثرة وقالت: «لقد أوقعوا بك أنت أيضًا».

أومأت شاي برأسها وقالت: «لا بأس يا تالي-وا، فهم لم يحولوني إلى أحد مشوشي العقل». قطعت شاي خطوةً إلى الأمام وقالت: «لكن عليك أن تصغي إليّ».

همست تالي باستياء وهي تضم قبضتها: «لا تقتربي مني!»

– «انتظري يا تالي، يحدث أمر جلل».

هزت تالي رأسها رفضًا، كانت تستطيع أن تسمع نبرة الضعف في صوت شاي الآن، ولو لم تكن ذاهلة العقل إلى ذلك الحد لكانت قد رأت هذا من البداية. فشاي الحقيقية لم تكن لتقلق إلى هذا الحد بشأن معصم حارسة ما من القطريين، وشاي الحقيقية – شاي التي من المتميزين – لم تكن قط لتسامح تالي بهذه السهولة.

– «أنت تريدين أن تجعليني مثلك، مثلما حاول فاوستو والضبابيون هذا الأمر».

قالت شاي: «كلا، لا أحاول، فأنا أحتاج إليك كما أنت ...»

قبل أن تتمكن شاي من أن تنبس بكلمة أخرى استدارت تالي وبدأت تجري نحو الحافة الأخرى للسطح بأقصى سرعة ممكنة. لم يكن لديها سواران للصدمات بعد الآن، لكنها كانت لا تزال تستطيع أن تتسلق الجدران كالمتميزين. إن كانت شاي تماثل فاوستو في ضعفه فإنها لن تستطع بعد هذا أن تصبح في مثل هذا التيبور. تستطيع تالي أن تهرب من هذه المدينة المجنونة وتحصل على مساعدة من مدينتها الأم ...

صاحت شاي: «أوقفوها».

ظهرت أمامها أشباح بشرية كثيرة من بين أجسام المداخن والأجهزة الهوائية. انقضوا من الظلام على تالي محاولين الإمساك بذراعيها وساقيها.

كان هذا كله فخًا؟ كانت شاي قد قالت: «لا تقتحمي شبكة التواصل المغروسة في جسدك»، إذن فالباقون يستطيعون التواصل معًا في صمت والتخطيط ضدها.

وجهت تالي لكمةً، فاصطدمت قبضتها المجروحة ببذلة مدرعة فتألمت. أمسك أحد الجارحين بذراعها لكنها حولت بذلتها على نحو يجعل سطحها زلقًا وتراجعت إلى الخلف. تركت قوة الدفع تدحرج جسدها إلى الخلف، ثم هبت واقفةً على قدميها وقفزت نحو قمة ماسورة عوادم.

جاهدت لتسحب قلنسوة بذلتها على وجهها حتى تصبح غير مرئية قبل أن يصلوا إليها، لكن يدين ترتديان قفازين قبضتا على كاحلي تالي وشدتا قدميها حتى سقطت، وأثناء سقوطها من على الماسورة إذ بشبح آخر يمسكها. زاد عدد الأيدي التي أمسكت بذراعيها وكبحت سيل اللكمات التي تسددها، وسحبتها بقوة ورفق إلى السطح.

قاومت تالي مقاومة مستميتة، لكن عددهم كان أكبر مما يمكنها التغلب عليه، وإن كانت من المتميزين.

خلع كل منهم قلنسوته، فرأت هوو وتاكس وكل الجارحين الآخرين. لقد أوقعت شاي بهم جميعًا.

ابتسموا لها برقة وبدت في عيونهم طيبة عادية بغيضة. أخذت تالي تقاوم، وهي تنتظر أن تشعر بوخزة حقنة في رقبتها العارية.

وقفت شاي أمامها وهي تهز رأسها استهجانًا، وقالت: «تالي، أيمكنك أن تهدئي؟»

صاحت تالي بحدة: «لقد قلت إنك كنت تنقذينني».

– «إنني أنقذك فعلًا إن هدأت وأصغيت إلي». تنهدت شاي بغضب ثم قالت: «بعد أن أعطاني فاوستو الدواء استدعيت الجارحين وطلبت منهم أن يقابلوني في منتصف الطريق إلى هنا، وفي طريق العودة إلى سيجو عالجتهم واحدًا تلو الآخر».

أخذت تالي تتطلع إلى وجوههم، كان بعضهم يبتسمون لها وكأنها طفلة لم تفهم دعابة ما، ولم تر ما يدل على ريبتهم في كلمات شاي أو ما يدل على التمرد عليها. صاروا قطيعًا من الغنم الآن، ولم يعودوا أفضل حالًا من مشوشي العقل.

تحول غضبها إلى يأس. عقولهم جميعًا أُصيبَت بجزيئات النانو وصارت ضعيفة بائسة. كانت تالي وحيدة تمامًا.

مدت شاي يديها وقالت: «اسمعي، لقد عدنا إلى هنا اليوم، أنا آسفة لأن الضبابيين حاولوا أن يهاجموك على حين غرة، لم أكن لأسمح لهم بهذا. فهذا الدواء ليس ما تحتاجينه يا تالي».

زمجرت تالي قائلةً: «إذن اتركيني لحال سبيلي!»

صمتت شاي لحظةً ثم أومأت برأسها إيجابًا وقالت: «حسنًا، دعوها تذهب».

قال تاكس: «لكن أيتها القائدة، إنهم يخترقون الدفاعات من الآن، ولم يعد يبقى أمامنا سوى أقل من دقيقة».

– «أعلم، لكن تالي ستساعدنا، أعلم أنها ستساعدنا».

أرخى الآخرون قبضاتهم عنها بحذر واحدًا تلو الآخر. وجدت تالي نفسها حرةً، وهي لا تزال تحدق في شاي بغضب، دون أن تدري ما خطوتها التالية. كانت لا تزال تقف بينهم وهم يحيطون بها ويفوقونها عددًا.

– «لا داعي للهرب يا تالي؛ فدكتورة كابل في طريقها إلى هنا.» رفعت تالي أحد حاجبيها وقالت: «إلى دييجو؟ لتستعيدكم؟»

قالت شاي: «كلا». تهدج صوتها تقريبًا كما يتهدج صوت طفل على وشك البكاء وأضافت: «هذا خطئنا يا تالي، أنت وأنا».

– «ماذا تقصدين؟»

– «بعد ما فعلناه بترسانة الأسلحة لم يصدق أحد أن هذا فعل الأشقياء أو الضبابيين، إذ كنا شديدي القسوة وفائقي التميز. وقد أصبنا المدينة كلها بالفزع.»

قال تاكس: «منذ تلك الليلة وكل من في المدينة يزورون المكان حتى يروا الحفرة التي ينبعث منها الدخان التي خلفتماها خلفكما، ويحضرون الصغار ليشاهدوها في رحلات جماعية».

قطبت تالي حاجبيها وقالت: «دكتورة كابل قادمة إلى هنا؟ مهلًا، هل تقصدون أنهم خمنوا أننا الفاعلون؟»

– «كلا، إنهم يؤمنون باعتقاد آخر.» أشارت إلى الأفق وقالت: «انظري».

أدارت تالي رأسها. وفي المدى خلف دار البلدية كانت السماء تعج بكوكبة من الأنوار الساطعة. وبينما هي تشاهد أخذت الأنوار تقترب وتزداد توهجًا، وراحت تتألق كما تتألق النجوم في ليلة دافئة.

تمامًا مثلما كانت الأنوار تتألق أثناء المطاردة التي تعرضت لها تالي وشاي حتى خرجتا من الترسانة.

قالت تالي: «عربات طائرة».

أومأ تاكس برأسه إيجابًا وقال: «لقد سمحوا لدكتورة كابل بالسيطرة على جيش المدينة، أو بمعنى أدق، على كل ما تبقى منه».

قالت شاي: «أحضروا ألواحكم الطائرة». انتشر الآخرون في جميع الاتجاهات عبر السطح.

دفعت شاي بسوارين للصدمات إلى تالي وقالت: «عليك أن تكفي عن محاولة الهرب وأن تواجهي ما بدأناه».

لم تجفل تالي إثر لمسة شاي، إذ فجأةً بلغ قلقها حدًا جعلها لا تأبه بشأن العلاج. كان بوسعها أن تسمع العربات الطائرة المقتربة الآن، سرب من مراوح الرفع يطن كطنين المحركات الضخمة حين تستعد للعمل. «ما زلت لا أفهم.»

عدلت شاي سواري الصدمات اللذين ترتديهما، وظهر لوحان طائران من الظلام. قالت: «لطالما ظلت مدينتنا تكره دييجو، وقد علمت السلطات الخاصة بأمر مساعدتها للهاربين وأمر الطائرات المروحية التي تحمل الناس إلى الضباب القديم، لذا فبعد تدمير الترسانة، ظنت دكتورة كابل أن هذا هجوم عسكري، وحمّلت دييجو المسئولية».

تمتمت تالي قائلةً: «إذن فتلك العربات الطائرة ... قادمة لتهاجم المدينة؟» أخذت الأنوار تزداد اقترابًا إلى أن أخذت تدور من فوقهم، كان يوجد عشرات من العربات الطائرة، وأخذ سرب هائل منها يدور حول دار البلدية. وأضافت قائلة: «حتى دكتورة كابل نفسها لن تقدم على فعل مثل هذا».

– «لا، بل هي على استعداد للقتال، والمدن الأخرى ستقف متفرجة دون أن تحرك ساكنًا، على الأقل في الوقت الحالي، فقد أصابهم النظام الجديد جميعًا بذعر شديد».

سحبت شاي قلنسوة البذلة على رأسها وقالت: «الليلة علينا أن نساعدهم هنا يا تالي، علينا أن نبذل كل ما بوسعنا، وبعدها علينا أنا وأنت أن نعود إلى مدينتنا لنطفئ نار الحرب التي أشعلناها».

قالت تالي: «حرب؟ لكن المدن لا ...»، وخبا صوتها. أحست أن السطح الذي يقفون عليه يدمدم، ومن بين طنين العشرات من مراوح الرفع، سمعت صوتًا واهنًا خافتًا صادرًا من الشوارع تحتهم.

كان الناس يصرخون.

بعد ثوانٍ قليلة، أطلق أسطول المركبات الطائرة من فوقهم النار، فأضاءت السماء.

الجزء الثالث

وقف الحرب

«يواجهُ المرءُ المستقبلَ بماضيه.»

بيرل إس باك

الفصل السابع والعشرون

الانتقام

اندفع وابلٌ من نيران المدفعية في الهواء وأخذت خطوطها تشتعل أمام عيني تالي. وأخذت الانفجارات تدوي في أذنيها وموجات الهزات العنيفة ترتطم بصدرها فشعرت وكأن شيئًا سيمزقها.

انهمرت نيران أسطول العربات الطائرة على دار البلدية، وأخذت شلالات القذائف تتوهج بشدة حتى إن المبنى اختفى للحظة، لكن ظلت تالي تسمع صوت تحطم الزجاج وصوت تحطم المعادن من خلال المشهد المتوهج.

بعد ثوانٍ معدودة توقف الهجوم الضاري، ولمحت تالي دار البلدية من خلال الدخان، فإذا بها قد ظهرت فيها ثغرات هائلة، وبدت والنيران المشتعلة بداخلها كمصباح خيالي مكون من ثمرة يقطين حفرت فيها عشرات العيون المتوهجة.

تعالت الصرخات من أسفل مرة أخرى، لكنها صارت الآن مفعمة بالرعب. تذكرت تالي في لحظة مربكة ما قالته شاي: «هذا خطؤنا يا تالي، أنا وأنت».

هزت تالي رأسها ببطء غير مصدقةً، لا يمكن أن يكون ما تراه حقيقيًا.

لم تعد الحروب تندلع.

صاحت شاي: «هيا بنا». وقفزت على لوحها وارتفعت في الجو وهي تقول: «دار البلدية تكون خالية ليلًا، لكن علينا أن نخرج الجميع من المستشفى ...».

أفاقت تالي من ذهولها، وقفزت على لوحها الطائر في اللحظة التي عاد فيها القصف مرةً أخرى. انطلقت شاي على حافة السطح وبدت للحظة كصورة ظلية ومن خلفها النيران المحتدمة، ولم تلبث أن اختفت عن الأنظار. تبعتها تالي وقفزت فوق السور وحلقت لثوانٍ معدودة وراحت تنظر إلى الفوضى أسفلها.

لم يكن المستشفى قد ضُرب، على الأقل حتى ذلك الحين، لكن ظل عشرات المذعورين يتدفقون من أبوابه. لم يكن الأسطول مضطرًا إلى إطلاق النيران على أحد

حتى يلقى الناس حتفهم الليلة؛ إذ إن الذعر والفوضى كفيلان بقتلهم. وسترى المدن الأخرى في هذا رد فعل متكافئ للهجوم الذي شُن على الترسانة: تدمير مبنى شبه فارغ مقابل آخر.

غيرت تالي اتجاه مراوح الرفع وخفضت من ارتفاعها، وهي جاثية حتى تحكم قبضتها على لوحها. فالانفجارات الشديدة الناجمة عن الهجوم كانت قد حولت الهواء إلى كيان ملموس يرتعد وكأنه بحر هائج.

ولأن الجارحين الآخرين كانوا قد وصلوا من قبل، كانت بذلات التخفي التي يرتدونها مضبوطة لتضاهي زي حراس دييجو ذي اللونين الأصفر والأسود. كان تاكس وهوو يوجهان الناس إلى الجانب الآخر من المستشفى بعيدًا عن الحطام المتهمر من دار البلدية، والآخرون ينقذون المشاة الذين وقعوا بين المبنيين، إذ كانت الأرصفة المتحركة كلها قد تعطلت، مما اضطر الركاب القادمين في وقت متأخر من الليل إلى المشي على الأرض.

دارت تالي للحظة في الجو وهي لا تدري كيف تتصرف، ثم رأت سربًا كبيرًا من الصغار يتدفقون من المستشفى، كانوا يصطفون بمحاذاة سياج الشجيرات الذي يحيط بمهبط الطائرات المروحية، والمشرفون عليهم يتوقفون ليعدوهم جميعًا قبل الانتقال إلى بقعة آمنة.

انعطفت تالي بلوحها نحو المهبط وانخفضت بأقصى سرعة تسمح بها الجاذبية. تلك الطائرات المروحية كانت تنقل الهاربين من المدن الأخرى إلى الضباب القديم، وها هي الآن تنقلهم إلى هنا حيث النظام الجديد، ولسبب ما شعرت تالي أن الهجوم الذي تشنه دكتورة كابل لن يصيبهم بسوء.

أوقفت رحلة الهبوط فوق رءوس الصغار مباشرة ومراوح الرفع تصرخ، فحدقوا إلى أعلى في رعب وقد فغروا أفواههم.

صاحت في المشرفين، وهما اثنان من الحسان الراشدين علت وجهيهما التقليديين أمارات الهدوء والحكمة، وقالت: «اخرجا من هنا!»

رفعا بصريهما إليها غير مصدقين، عندها تذكرت تالي أن تُحول بذلة التخفي إلى لون قريب إلى حد ما من اللون الأصفر الذي يميز ملابس الحراس، وصاحت قائلةً: «من المحتمل أن تكون الطائرات المروحية مستهدفة!»

لم تتغير تعبيرات الدهشة المرتسمة على وجهي المشرفَين، فأطلقت تالي بعض ألفاظ السباب، إذ لم يدركا بعد سبب هذه الحرب — الهاربون والنظام الجديد

والضباب القديم — فكل ما يعرفانه هو أن السماء اشتعلت فوق رأسيهما وأن عليهما أن يتأكدا من اكتمال عدد الصغار الذين يشرفون عليهم قبل الانتقال إلى مكان آخر.

رفعت تالي عينيها ورأت عربة طائرة لامعة تنفصل عن أسطول العربات الطائرة. اندفعت برشاقة وراحت تدور دورةً واسعة متأنية وراحت تهبط نحو المهبط كطير جارح كسول.

صرخت قائلةً: «اذهبا بهم إلى الجانب الآخر من المستشفى، الآن!»، ثم غيرت مسارها وأخذت ترتفع نحو العربة الطائرة المقتربة وهي تفكر كيف يمكنها أن تواجهها؟ هذه المرة ليس معها قنابل يدوية ولا جزيئات النانو اللزجة الشرهة، فهي وحيدة وغير مسلحة في وجه آلة حربية.

لكن إن كانت هذه الحرب اندلعت بسببها حقًا، فإن عليها أن تحاول.

أنزلت تالي القلنسوة على وجهها وحولت البذلة إلى وضع التمويه المقاوم للأشعة تحت الحمراء ثم انطلقت نحو دار البلدية وهي ترجو ألا تراها العربة الطائرة وهي قادمة عبر الحرارة المنبعثة من نيران المدفعية والانفجارات.

حين أخذت تالي تقترب من المبنى المتهدم، أحست أن الهواء يرتجف من حولها وأن الارتجاجات المصاحبة للانفجارات تصطدم بجسدها. أحست الآن بحرارة النيران اللافحة، وسمعت الصوت المدوي لانهيار الطوابق بعضها فوق بعض، وراحت دار البلدية تبدأ في الانهيار. كان الأسطول يحطم المبنى بأكمله ويسويه بالأرض كما فعلت هي وشاي بالترسانة تمامًا.

كان الجحيم يستعر خلف تالي، واقتربت من مستوى طيران العربة الطائرة وراحت تتبعها وهي تهبط باحثةً عن نقطة ضعف ما. كانت تشبه العربة الأولى التي رأتها ترتفع من الترسانة: أربع مراوح رفع تحمل جسمًا منتفخ يعج بالأسلحة وله أجنحة وكلابات، ودرعه الأسود القاتم لا يعكس شيئًا من النيران المحتدمة خلفها.

كان عليها خدوش ناجمة عن تلف حديث العهد، وأدركت تالي أن دييجو قد أبدت شيئًا من المقاومة للأسطول، في مواجهة لم تستمر طويلًا.

مع أن جميع المدن كفت عن الحروب، ربما تكون بعض المدن قد ذهبت في ذلك الصدد إلى مدى أبعد من غيرها.

نظرت تالي إلى أسفل، فوجدت أن المهبط لا يبعد عنها كثيرًا، وطابور الصغار يبتعد عنه ببطء شديد. فأطلقت عبارة سباب واندفعت نحو العربة الطائرة على أمل أن تشتت انتباهها.

التقطت الآلة اقترابها في اللحظة الأخيرة، فامتدت كلاباتها المعدنية التي تشبه كلابات الحشرات نحو اللوح شديد السخونة. مالت تالي بلوحها وارتفعت به ارتفاعًا حادًا، لكنها غيرت مسارها بعد فوات الأوان، إذ انحشرت كلابات العربة الطائرة في مراوح الرفع الأمامية فتوقف اللوح الطائر وهو يصدر ضجيجًا، ووقعت من على سطح الركوب. وأخذت الكلابات الأخرى تلوح في الهواء بتهور، لكن تالي أخذت ترتفع فوقها مستعينة ببذلة التخفي.

هبطت على ظهر الآلة، فمالت إلى أحد جانبيها بعنف وكاد وزنها وقوى تأثير اللوح الطائر يتسببان في انقلاب العربة الطائرة على ظهرها. أخذت تالي تلوح بذراعيها وهي تنزلق على السطح المعدني الخارجي للعربة الطائرة والسطح المانع للانزلاق لنعلي بذلة التخفي يحول دون سقوطها بصعوبة. ثنت تالي ركبتيها وأمسكت بأول موضع يد وجدته، وكان عبارة عن نتوء معدني رفيع في جسم العربة الطائرة.

انطلق لوحها المحطم أمامها، وإحدى مراوح الرفع تعمل والأخرى تالفة، فأخذ يدور في الهواء كالسكين المستخدمة في الرماية.

وحين حاولت العربة الطائرة أن تستعيد توازنها، إذ بالنتوء الذي تفقد تالي يدور فجأة في يدها، فقفزت مبتعدة. ولمعت عدسة صغيرة على حافته، بدت كسويقة عين سرطان البحر. انكمشت تالي تجاه وسط ظهر الآلة وهي ترجو ألا تكون العدسة قد التقطتها.

أخذت سويقات الكاميرات الثلاث الأخرى تدور على محورها بجنون من حول تالي وتنظر في جميع الاتجاهات وراحت تبحث في السماء عن أي تهديدات أخرى، لكن لم تلتفت أي منها نحوها، إذ كانت جميعها موجهةً للخارج وليس نحو العربة الطائرة نفسها.

أدركت تالي أنها كانت تجلس في البقعة العمياء للعربة الطائرة، إذ لا تستطيع سويقات أعين العربة الطائرة أن تستدير لتراها، وليس لسطحها المدرع أعصاب تتيح لها أن تحس بقدميها. كان من الواضح أن مصممي العربة الطائرة لم يخطر ببالهم قط احتمال أن يقف فوقها عدو.

لكن الآلة أدركت أن ثمة أمرًا غير طبيعي، إذ أصبحت ثقيلة جدًا. أخذت مراوح الرفع الأربع تميل بعنف وتالي تتنقل من جانب إلى آخر وهي تجاهد حتى لا تسقط. وتأرجحت الكلابات المعدنية الأربعة التي لم يحطمها اللوح الطائر في الهواء باحثةً عن خصم كحشرة عمياء.

بدأت العربة الطائرة تهبط تحت وطأة وزنها الزائد، فمالت تالي بشدة نحو دار البلدية، وبدأت الآلة تنساق في ذلك الاتجاه وهي تهبط، وشعرت تالي أنه لم يسبق لها ركوب لوح طائر متذبذب ولا ينصاع لأوامرها كهذا، لكنها نجحت تدريجيًا في توجيهه بعيدًا عن المهبط وطابور الصغار الذي يتقدم ببطء.

وبينما كانت تالي تقترب من دار البلدية، راحت الهزات العنيفة الناجمة عن الهجوم تدمدم خلال الآلة. بدأت الحرارة الصادرة عن المبنى المحترق تخترق بذلة التخفي، وشعرت بطبقة رقيقة من العرق تغلف جسدها كله. ومن خلفها، اتضح أن الصغار ابتعدوا أخيرًا عن المهبط، وصار كل ما عليها فعله هو أن تهبط من على العربة الطائرة دون أن تراها وتفتح عليها النيران.

عندما أصبح لا يفصل تالي عن الأرض سوى عشرة أمتار، قفزت من على ظهر الآلة وهي تمسك بإحدى الكلابات المحطمة وتمر بجوارها، وشدت ذلك الجانب من الآلة إلى أسفل بقوة سقوطها. أخذت العربة الطائرة تدور في الجو فوق رأسها، ومراوح الرفع تصرخ وهي تجاهد للاحتفاظ بالآلة في وضع معتدل، لكنها كانت قد انقلبت تجاه جانبها بشدة، وبعد مقاومة لم تدم طويلًا، تسبب ثقلها الواقع على الكلابة المحطمة في انقلاب الآلة رأسًا على عقب.

سقطت تالي مسافة قصيرة حتى تمكن سوارا الصدمات من إيقاف سقوطها ووضعها برفق على الأرض.

في الأعلى، كانت العربة الطائرة تدور بزاوية جانبية نحو دار البلدية وهي لا تزال تميل إلى جانبها بلا حول ولا قوة، وكلاباتها تتأرجح ببلاهة. وارتطمت العربة بأدنى طوابق المبنى واختفت في خضم لسان من اللهب اندفع أمام تالي، فأصيبت بذلة التخفي التي ترتديها بمواضع خلل في جميع أنحاء جلدها. تموجت الأنسجة التي امتصت الانفجار ثم تعطلت وشمت تالي رائحة شعرها وهو يحترق داخل القلنسوة.

راحت تالي تركض نحو المستشفى، وعندئذٍ زلزلت الأرض ارتجاجات عنيفة، فأسقطتها أرضًا. وحين نظرت إلى الخلف رأت دار البلدية وهي تنهار. فبعد دقائق طويلة من القصف، بدأ هيكلها المشيد من خليط معدني ينصهر، وراح يتقوس بفعل ثقل المبنى المحترق.

كان المبنى فوقها تقريبًا.

هبت واقفةً مرة أخرى، وشغلت شبكة التواصل المغروسة في جلدها، وسمعت أصواتًا مختلطة للجارحين وهم ينظمون الأفراد الذين انتهوا من إجلائهم من المستشفى.

قالت وهي تجري: «دار البلدية تنهار، أحتاج إلى مساعدة!»

رد عليها صوت شاي: «ما الذي تفعلينه عندك يا تالي-وا؟ أتشوين الكستناء؟»

– «سأخبرك فيما بعد!»

– «نحن في طريقنا إليك.»

زاد ارتفاع الضوضاء، وتضاعفت الحرارة المحتدمة خلفها مع انهيار المبنى المحترق وتساقط أطنان من الأتربة. طارت أمامها كتلة من الأنقاض المتوهجة أشعلت النيران في السطح المقاوم للتزحلق الذي يغطي الأرصفة المتحركة التي صارت ساكنة ثم توقفت فجأة. توهج النور خلف تالي، فامتد ظل تالي المرتعش أمامها كظل عملاق.

وظهر فجأة من جهة المستشفى شبحان، فلوحت تالي بذراعها قائلةً: «أنا هنا!»

دارا حولها ثم عادا أدراجهما، وقد بدا الاثنان ظلين متشحين بالسواد ومن خلفهما المبنى المنهار.

قالت شاي: «ارفعي يديك يا تالي-وا.»

فطفت تالي في الهواء وهي تمد يديها فأمسك اثنان من جماعة الجارحين بمعصميها وأبعداها عن مبنى دار البلدية إلى مكان آمن.

صاح صوت تاكس: «هل أنت بخير؟»

«نعم، لكن ...» وخبا صوتها. عندما حملاها ووجهها تجاه المبنى وجدت نفسها تشاهد المرحلة الأخيرة من انهياره في صمت ورهبة. كان المبنى ينطبق على نفسه كبالون يفرغ منه الهواء، ثم انبعثت منه سحابة من الدخان والحطام كموجة مد سوداء عارمة تبتلع الأنقاض المشتعلة.

اندفعت الموجة نحوهم وأخذت تقترب وتقترب ...

قالت تالي: «أ ... أيمكنكما أن تسرعا؟»

انقضت الهزة العنيفة فوق الجارحين وهي محملة بدوامات من الحطام والرياح العاتية، فأطاحت بشاي وتاكس من على لوحيهما وألقت بالثلاثة إلى الأرض. وبينما كانت تتدحرج أخذ نسيج بذلة التخفي المحترق يوكزها مثل المرافق الحادة، إلى أن توقفت في آخر الأمر.

رقدت على الأرض عاجزةً عن التقاط أنفاسها، واكتنفهم الظلام.

سألتهما تالي: «هل أنتما بخير؟»

قال تاكس: «نعم، نحن بخير».

حاولت تالي أن تتكلم لكن ذلك جعلها تسعل، إذ إن قناع بذلة التخفي كان قد توقف عن تنقية الهواء، فنزعته عنها وهي تشعر بالدخان يلسع عينيها، وبصقت لتتخلص من طعم البلاستيك المحروق. وقالت بصعوبة: «ليس معي لوحي، وبذلتي معطلة، لكنني بخير».

قالت شاي: «لا شكر على واجب!»

– «آه، صحيح، شكرًا يا رفاق».

قال تاكس: «لحظة، أتسمعان ذلك الصوت؟»

كانت تالي لا تزال تسمع طنينًا في أذنيها، لكن بعد لحظة أدركت أن وابل نيران المدفعية توقف. كان الهدوء غريبًا ومخيفًا إلى حد ما. نقرت بإصبعها صفحة بيانات من الأشعة تحت الحمراء ورفعت عينيها، فرأت دوامة مضيئة من العربات الطائرة تتشكل فوقهم كصخرة تتجمع في شكل حلزوني.

سألت تالي: «ما الذي سيفعلونه الآن؟ هل سيدمرون شيئًا آخر؟»

قالت شاي بخفوت: «لا، ليس بعد».

قال تاكس: «قبل أن تأتي إلى هنا كنا نحن الخارجين على علم بمخطط الدكتورة كابل، إنها لا تريد أن تدمر دييجو، بل تريد إعادة بنائها وتحويلها إلى مدينة مختلفة تشبه مدينتنا تمامًا: متشددة، خاضعة للسيطرة، وكل من فيها مشوشو العقل».

قالت شاي: «وعندما يبدأ كل شيء في الانهيار، ستأتي كي تستولي على السلطة».

قالت تالي: «لكن المدن لا تستولي على سلطات المدن الأخرى».

قالت شاي: «هذا في الأحوال العادية يا تالي، لكن ألا ترين؟» استدارت تالي نحو حطام دار البلدية الذي لا يزال يحترق. وأردفت قائلة: «الهاربون مطلقو السراح، والنظام الجديد خرج عن السيطرة، والآن انهارت حكومة المدينة ... هذا ظرف غير عادي».

الفصل الثامن والعشرون

تحمل مسئولية الخطأ

غمر الزجاج المكسور المستشفى.

أطاح انهيار دار البلدية بجميع نوافذ الجانب المواجه لها، فسقطت إلى الداخل، وأخذت الشظايا تتحطم تحت الأقدام بصوت مسموع، وتالي وباقي الجارحين يتفقدون كل حجرة بحثًا عن أي شخص ما زال في المكان.

قال هوو من فوقهما بطابقين: «وجدت كهلاً هنا».

سأل صوت شاي: «هل يحتاج إلى طبيب».

– «جراح طفيفة فقط. يجب أن تكون المحطة الطبية وافية بالغرض».

– «استدعِ طبيبًا ليفحصه يا هوو».

تجاهلت تالي الأصوات المختلطة الصادرة عن شبكة التواصل وأخذت تنعم النظر في الحجرة الأخرى الخاوية، وهي تطل مرةً أخرى من أُطُر النوافذ الخالية من الزجاج وتتطلع إلى الحطام المشتعل. حامت مروحيتان فوق الحطام وراحتا ترشان رغوةً على النيران.

يمكنها الهروب الآن، وإيقاف تشغيل شبكة التواصل والاختفاء في الفوضى، فالجارحون مشغولون بما يعيقهم عن مطاردتها، وباقي المدينة تكاد تكون في حالة شلل. وهي تعلم أين تنتظر الألواح الطائرة الخاصة بالجارحين، وتعلم أن سواري الصدمات اللذين أخذتهما من شاي مضبوطان بحيث يشغلان الألواح.

لكن بعد ما حدث هذا الليلة، لم يعد أمامها مكان آخر تذهب إليه. إذا كانت السلطات الخاصة هي المتسببة في هذا الهجوم، فتصبح العودة إلى دكتورة كابل أمرًا غير مطروح.

كان من الممكن أن تتفهم تالي الأمر إلى حد ما إن كان الأسطول قد استهدف المباني الجديدة ليلقن دييجو درسًا بشأن التوسع في البرية. أما ما عدا ذلك مما يحدث في مدينة الفطريين فيجب وضع حد له. لا يمكن السماح للمدن بالاستيلاء على الأراضي متى شاءت.

ولا يمكن أيضا أن تهاجم المدن بعضها كما حدث، وتنسف المباني في وسط المدينة، فهكذا كان سكان الأطلال القديمة المعتوهون يحلون نزاعاتهم. ولم تدرِ تالي كيف نسيت مدينتُها دروسَ التاريخ بهذه السهولة.

من ناحية أخرى لا تستطيع تالي الشك فيما قاله تاكس، أو في أن غرض دكتورة كابل من تدمير دار البلدية هو إذلال النظام الجديد. فمن بين جميع المدن، لم تهتم أية مدينة بمطاردة الضباب القديم سوى مدينتها، ولم تهتم أية مدينة بالانشغال بحفنة من الهاربين سوى مدينتها.

بدأت تتساءل: هل كل المدن لها سلطات خاصة؟ أم أن معظم المدن مثل دييجو عن استعداد لمنح الناس حرية دخولها والخروج منها. ربما تكون العملية الخاصة التي تحولت تالي بفضلها إلى ما هي عليه من ابتكارات دكتورة كابل، مما يعني أن تالي تعد حقًا حالة شاذة، وسلاحًا خطيرًا، وأنها تحتاج إلى العلاج.

لقد تسببت هي وكابل في إشعال هذه الحرب السخيفة، والأصحاء الطبيعيون لا يمكن أن يقدموا على فعل كهذا، أليس كذلك؟

الحجرة التالية كانت خاوية هي أيضًا، وتتناثر فيها بقايا وجبة قطعتها عملية إخلاء المبنى. كانت النوافذ مزدانة بستائر تتحرك بفعل الرياح التي تثيرها المروحية البعيدة. وقد أصبحت ممزقة بفعل الزجاج المتطاير، وصارت تشبه الرايات البيضاء الممزقة التي يلوح بها من يعلن استسلامه. وفي ركن الحجرة قبعت كومة من أجهزة الإنعاش وهي لا تزال تدق بإيقاع رتيب مع أنها غير متصلة بالكهرباء. تمنت تالي أن الشخص الذي كانوا ينوون توصيله بكل تلك الأنابيب والأسلاك لا يزال بخير.

كان من الغريب أن تعبأ بكهل مجهول فانٍ، لكن آثار الهجوم تسببت في إرباكها، فلم يعد الناس يبدون لها متقدمين في السن أو فطريين، ولأول مرة منذ أن صارت تالي من الجارحين لم تعد تعتقد أن كون المرء عاديًا أمر حقير، فحين رأت ما فعلته مدينتها، تضاءل شعورها بالزهو لكونها تتميز بقدرات فائقة، مؤقتًا على الأقل.

تذكرت حين كانت مع القبحاء، وكيف أن الإقامة في الضباب بضعة أسابيع غيرت من نظرتها إلى العالم، ربما بدأت تتغير بسبب حضورها إلى دييجو بكل ما

فيها من خلافات ونزاعات (وخلوها من مشوشي العقل). إن كان زين محقًا فإنها تعيد برمجة نفسها هكذا.

ربما عندما تراه في المرة المقبلة ستكون الأمور قد تغيرت.

نقرت تالي شبكة التواصل وضبطتها على قناة خاصة وقالت: «شاي-لا؟ أريد أن أطرح عليك سؤالًا».

– «تفضلي يا تالي.»

– «ما التغيير الذي يظهر على المرء بعد العلاج؟»

توقفت شاي، وسمعت تالي عبر شبكة التواصل صوت تنفسها البطيء وصوت تحطم الزجاج تحت قدميها، وأجابت قائلة: «عندما حقنني فاوستو في البداية لم ألحظ الأمر، واستغرق الأمر يومين حتى أدركت ما كان يحدث وهو أن نظرتي إلى الأمور بدأت تتغير. الطريف في الأمر هو أنه عندما شرح لي ما فعله بي، انتابني شعور يغلب عليه الارتياح، فكل شيء صار أقل حدةً الآن، أقل تطرفًا، ولم أعد مضطرة لجرح نفسي حتى أتمكن من فهم كل شيء، لا أحد منا يفعل هذا، ومع أن الأمور ليست رائعة كما كانت، فإنني على الأقل لم أعد أستشيط غضبًا بلا داعٍ».

أومأت تالي برأسها وقالت: «عندما حبسوني في الزنزانة المبطنة وصفوا شعوري بأنه يتموج بين الغضب والشعور بالخفة والنشاط. لكن الآن أشعر بأنني عديمة الإحساس».

– «أنا أيضًا يا تالي-وا.»

أضافت تالي: «ويوجد أمر آخر ذكره الأطباء متعلق بـ«الشعور بالاستعلاء»».

– «نعم هذا هو جوهر السلطات الخاصة يا تالي-وا، ويذكرني بما كانوا يعلموننا إياه في المدرسة فيما أنه إبان حضارة سكان الأطلال القديمة كان بعض الناس «أغنياء»! كانوا يحصلون على الأفضل في كل شيء، ويعيشون أطول، ولم يكونوا مضطرين لاتباع القواعد المعتادة، وكان الجميع لا يرون غبارًا على ذلك مطلقًا، وإن لم يكن هؤلاء قد فعلوا أي شيء يجعلهم يستحقون هذا سوى أنهم أبناء آباء معينين. فالتفكير على طريقة المتميزين يعد من الطبيعة البشرية، وإقناع شخص ما بأنهم أفضل من الآخرين ليس أمرًا يستدعي براعة فائقة.»

بدأت تالي توافقها الرأي، ثم تذكرت ما قالته لها شاي وهي تصيح عندما افترقتا عند النهر، فقالت: «لكنك قلت إنني كنت هكذا بالفعل، أليس كذلك؟ وحتى وإن كان هذا حينما كنت من القبحاء».

ضحكت شاي وقالت: «كلا يا تالي-وا، إنك لا تعتقدين أنك أفضل من الآخرين، وإنما ترين أنك مركز الكون، وهو أمرٌ مختلف تمامًا».

ضحكت تالي ضحكة مصطنعة وقالت: «إذن لماذا لم تعالجيني؟ كانت أمامك فرصة وأنا غائبة عن الوعي».

مرت فترة صمت أخرى تخلل فيها أزيز المروحية البعيدة خط الاتصال بشبكة التواصل الخاصة بشاي. ثم قالت: «لأنني شعرت بالأسف على ما فعلته».

- «متى؟».

- «حين جعلتك من المتميزين.» وأخذ صوت شاي يتهدج: «أنا السبب فيما أنت عليه، ولم أرد أن أجبرك على التغير مرةً أخرى، أظن أنك تستطيعين شفاء نفسك هذه المرة».

ابتلعت تالي ريقها وهي تقول: «آه، أشكرك يا شاي».

- «ويوجد أمر آخر: فحين تظلين من المتميزين سيفيدنا ذلك على وضع حد لهذه الحرب عند عودتنا إلى مدينتنا».

قطبت تالي جبينها، فلم تشرح شاي لها بعد تفاصيل تلك الخطة، وقالت: «كيف بالضبط سيفيدنا أن أكون مختلة عقليًا؟»

قالت شاي: «دكتورة كابل ستجري لنا اختبارًا للتأكد من مدى صدقنا، وسيكون من الأفضل أن يظل واحد منا من المتميزين حقًا».

توقفت تالي عند المدخل التالي، وقالت: «من مدى صدقنا؟ لم أكن أدري أننا سنتناقش هذا معها، كنت أتخيل سيناريو يتضمن جزيئات النانو الشرهة أو القنابل اليدوية على الأقل».

تنهدت شاي وقالت: «إنك تفكرين بطريقة المتميزين يا تالي-وا، لن يجدي العنف. إن مهاجمينا سيظنون أن دييجو تقاوم، وستزداد هذه الحرب سوءًا، لذا علينا أن نعترف».

«نعترف؟» وجدت تالي نفسها أمام حجرة فارغة أخرى لا يضيئها إلا ألسنة اللهب المتراقصة المشتعلة في دار البلدية. الزهور متناثرة في كل مكان، والمزهريات التي كانت تضمها مهشمة على الأرض، واختلطت الشظايا ذات الألوان الزاهية والزهور الميتة بزجاج النوافذ المكسور.

قالت شاي: «أجل يا تالي-وا، علينا أن نخبر الجميع أن مَن هاجم الترسانة هم أنا وأنت، وأن دييجو ليس لها علاقة بالأمر».

قالت تالي: «آه، رائع»، وراحت تحدق من النافذة.

كانت النيران المشتعلة داخل دار البلدية لا تزال متوهجة مع أن المروحيات ظلت ترشها بكميات وفيرة من الرغوة السوداء. قالت شاي ذات مرة إن الحطام سيظل مشتعلًا لأيام، إذ إن الضغط الناتج عن المبنى المنهار كان يسبب حرارةً في حد ذاته، وكأن الهجوم قد نتج عنه شمس صغيرة.

تقع مسئولية هذا المشهد المريع على عاتقهما، ظلت هذه الفكرة تطارد تالي وكأنها لن تعتاد عليها أبدًا. لقد تسببت هي وشاي في حدوث هذا، ولا أحد غيرهما يستطيع وضع حد له.

لكن حين تفكر تالي في الاعتراف لدكتورة كابل يصبح عليها أن تحارب الرغبة في الهروب، في الجري نحو النوافذ المفتوحة والقفز منها تاركةً سواري الصدمات يمسكان بها. يمكنها أن تختفي في البرية دون أن يقبض عليها أحد، لا شاي أو دكتورة كابل، يمكنها أن تصبح خفية مرةً أخرى.

لكن هذا يعني أن تترك زينًا خلفها في هذه المدينة المهددة التي تتعرض للهجوم.

واصلت شاي حديثها قائلةً: «حتى يصدقوك يجب ألا يبدو أن أحدًا قد عبث بعقلك، يجب أن نبقيك من المتميزين».

فجأة شعرت تالي بأنها بحاجة إلى هواء نقي، لكن أثناء توجهها نحو النافذة، اخترقت الرائحة الزكية للزهور الميتة المحتضرة أنفها وكأنها عطر أحد كبار السن. اغرورقت عيناها بالدموع فأغمضتهما واجتازت الحجرة مهتديةً بصدى خطواتها.

سألت في خفوت: «لكن ما الذي سيفعلونه بنا يا شاي-لا؟»

– «لا أعلم يا تالي، فلم يعترف أحدٌ من قبل بإشعال حرب زائفة، على حد علمي، لكن هل من خيار آخر أمامنا؟»

فتحت تالي عينيها ومالت بجسدها خارج النافذة المهشمة واستنشقت الهواء النقي، مع أنه كان مشبعًا برائحة الحريق، وهمست قائلةً: «لم نقصد أن يتدهور الوضع إلى هذا الحد».

– «أعلم يا تالي-وا، وكل ما حدث كان فكرتي أنا، وخطئي أنا أنك صرت من المتميزين أصلًا، إن كان من الممكن أن أذهب وحدي فسأذهب، لكنهم لن يصدقوني، فما إن يجروا اختبارًا على مخي، سوف يكتشفون أنني تغيرت وعُولجت، وأغلب الظن أن دكتورة كابل ستفضل الاعتقاد بأن دييجو عبثت بعقلي عن الاعتراف بأنها أشعلت حربًا بلا سبب.»

لم تستطع تالي أن تجادل بشأن تلك النقطة، فهي نفسها لا تصدق أن الاقتحام المحدود الذي قاما به تسبب في كل هذا الدمار. ودكتورة كابل لن تصدق ما يقوله أحد ما لم تجرِ فحصًا شاملًا لمخه.

نظرت تالي إلى دار البلدية المشتعلة مرة أخرى وتنهدت، فات أوان الهروب، وفات أوان قول أي شيء سوى الحقيقة.

– «حسنًا يا شاي، سأذهب معك، لكن بعد أن أعثر على زين، فأنا أريد أن أوضح له أمرًا.»

قالت تالي لنفسها: «وربما أحاول مرةً أخرى؛ فقد تغيرت الآن». راحت تالي تحدق من إطار الزجاج المُهَشَّم متخيلةً وجه زين.

قالت: «ما أسوأ شيء يمكن أن يفعلوه يا شاي-لا؟ أن يعيدونا نحن الاثنتين إلى حالة التشوش العقلي مرةً أخرى؟ ربما لا يكون هذا أمرًا بالغ السوء ...»

لم تسمع تالي إجابة على تساؤلاتها، لكنها سمعت صفيرًا منخفضًا متواصلًا صادرًا من خط شبكة التواصل التابع لشاي.

– «شاي؟ ما هذا الصوت؟»

جاءها الرد بلهجة متوترة: «تالي، أرجو أن تنزلي إلى هنا، حجرة ٣٤٠».

استدارت تالي مبتعدة عن النافذة، وراحت تخطو بسرعة فوق الزهريات المكسورة والزهور الميتة متوجهةً نحو الباب. أخذ الصفير يرتفع وشاي تقترب من شيء ما، وبدأ الخوف يتصاعد داخل تالي، فقالت: «ما الذي يحدث يا شاي؟»

سارعت شاي بفتح قناة تواصل مع الجارحين الآخرين وقالت في ذعر: «فليحضر أحدكم طبيبًا إلى هنا».

كررت رقم الحجرة.

صاحت تالي: «ما الأمر يا شاي؟»

– «تالي، كم يؤسفني ...»

– «ماذا؟»

– «إنه زين.»

الصبر

جرت تالي وقلبها يدق بسرعة كبيرة، وصوت الإنذار الحاد يملأ رأسها.

قفزت من على سور سلم الحريق، وراحت تهوي وسط بئر السلم. عندما ظهرت فجأة في رواق الدور الثالث رأت شاي وتاكس وهوو يقفون أمام حجرة مكتوب عليها حجرة الإفاقة، وهم يحدقون من الباب مثلما يحدق الناس بذهول في مواقع الحوادث.

اندفعت تالي بينهم حتى توقفت فوق شظايا زجاج النوافذ المهشمة.

كان زين يرقد على سرير المستشفى ووجهه شاحب وقد أوصلت مجموعة من الأجهزة بذراعيه ورأسه. وكان كل جهاز يطلق صوت صفير حادًا خاصًا به، ويرافق كل صوت ضوء أحمر ساطع. كان أحد الحسان الراشدين يرتدي ملابس الأطباء البيضاء ويفحص زينًا ويرفع جفنيه لينظر في عينيه.

صاحت تالي: «ماذا حدث؟» لكن الطبيب لم يرفع بصره إليها.

اقتربت شاي منها من الخلف وأمسكت بكتفيها بقوة قائلةً: «حافظي على هدوئك يا تالي».

«هدوء؟» انتزعت تالي نفسها من قبضة شاي، والأدرينالين والغضب يتصاعدان في عروقها، فلقد قضى ذلك على الخدر الذي أصابها بعد الهجوم، قالت: «ماذا به؟ ما سبب وجوده هنا؟»

قال الطبيب بحدة: «هل لكم أن تلتزموا الهدوء يا مشوشي العقول!»

دارت تالي لتواجهه وقد كشرت عن أسنانها: «مشوشي العقول؟»

لفت شاي ذراعيها حول تالي ورفعت قدميها عن الأرض. وبحركة واحدة سريعة حملتها إلى الوراء خارج الحجرة، وأنزلتها وأبعدتها عن الباب بغلظة.

عادت تالي تقف على قدميها، وانحنت وهي تضم قبضتيها. وأخذ الجارحون يتطلعون إليها حتى كفت عن التطلع إليهم، وأغلق تاكس الباب برفق.

قالت شاي بصوت صارم لا ينم عن مشاعرها: «ظننت أنك تعيدين برمجة نفسك يا تالي».

قالت تالي: «سأعيد برمجتك أنتِ يا شاي! ما الذي يحدث هنا؟».

ضمت شاي راحتيها وقالت: «لا نعرف يا تالي، لقد وصل الطبيب إلى هنا الآن، تمالكي نفسك».

شعرت تالي بالدوار، ولم تعد ترى سوى زوايا الهجوم والاستراتيجيات التي تمكنها من شق طريقها بينهم والعودة إلى حجرة الإفاقة، لكنهم كانوا يفوقونها عددًا، ومع بقاء الوضع على ما هو عليه بدأت موجة الغضب تتحول إلى ذُعر.

همست قائلةً وأنفاسها تتسارع: «لقد أجروا له عمليةً جراحية». بدأت تشعر بأن الرواق يدور بها وهي تتذكر أن الأشقياء جميعًا توجهوا نحو المستشفى بعد أن نزلوا من الطائرة المروحية مباشرةً.

قالت شاي بصوتها المحايد: «يبدو ذلك يا تالي».

قالت تالي: «لكنه وصل إلى دييجو منذ يومين اثنين فقط والأشقياء الآخرون كانوا في [illegible] أن وصلوا إلى هنا. لقد رأيتهم».

– «الأشقياء الآخرون ليسوا مصابين بتلف في المخ يا تالي، بل فقط إصابات ناتجة عن التشوش العقلي، وأنت تعلمين أن وضع زين مختلف».

– «لكن هذا مستشفى من مستشفيات المدن، فأي مكروه يمكن أن يقع فيه؟».

– «اصمتي يا تالي-وا». قطعت شاي خطوةً إلى الأمام ووضعت يدها برفق على كتف تالي وقالت: «تحلي بالصبر، وسيطلعوننا على الأمر».

في موجة غضب، انصب تركيز تالي على حجرة غرفة الإفاقة، وكانت شاي قريبة منها بما يكفي لتلكمها في وجهها، وانصرف انتباه هوو وتاكس مؤقتًا بسبب وصول طبيب ثان، تستطيع تالي أن تتغلب عليهم جميعًا إن هاجمتهم الآن ...

لكن الذعر والغضب تصارعا فأبطل كل منهما مفعول الآخر فيما يبدو، وتسببا في شلِّ عضلاتها وانقباض معدتها من فرط اليأس.

قالت تالي: «هذا بسبب الهجوم، أليس كذلك؟ لهذا لم تسر الجراحة على ما يرام».

– «لا ندري».

– «نحن السبب.»

هزت شاي رأسها وأخذت تكلم تالي بلهجة مهدئة وكأن تالي طفلة استيقظت من كابوس، قالت: «لا نعلم ما الذي يحدث يا تالي-وا.»

– «لكنكم وجدتموه هنا وحده تمامًا؟ لماذا لم يخرجوه من المستشفى؟»

– «ربما لم يكن من الممكن نقله. ربما كان في أمان أكثر هنا وهو متصل بتلك الأجهزة.»

ضمت تالي قبضتيها. منذ أن صارت تتمتع بقدرات فائقة لم تشعر قط بهذا القدر من قلة الحيلة وتواضع القدرات والضعف. فجأة بدأ كل شيء يصبح عاديًا. قالت: «لكن ....»

قالت شاي بصوتها الهادئ الذي يثير جنون تالي: «اصمتي يا تالي-وا. ليس أمامنا سوى الانتظار، وهذا كل ما بوسعنا فعله الآن.»

بعد ساعة، انفتح الباب.

صار عدد الأطباء في حجرة زين خمسة، هم ما تبقى من سيل متدفق من العاملين بالمستشفى ظلوا يدخلون الحجرة ويخرجون منها. أخذ بعضهم يرمق تالي بنظرات مضطربة بعد أن أدركوا هويتها: إنها السلاح الخطير الذي هرب في بداية تلك الليلة.

أمضت تالي الوقت في تململ، وهي تتوقع أن يداهمها شخص ما ويخدرها بهدف انتزاع صفات المتميزين منها مرة أخرى، لكن شاي وتاكس بقيا بالقرب منها، وأخذا يخيفان الحراس الذين أتوا ليراقبوهم بنظراتهما. فثمة أمر يميز العلاج الذي صنعته مادي، هو أنه جعل الجارحين الآخرين يفوقون تالي كثيرًا في القدرة على الانتظار، فقد ظلوا هادئين على نحو عجيب، أما هي فلم تتمكن من أن تكف عن الحركة ساعة كاملة، وأخذت تغرس أظافرها في راحتيها، وهي تضم قبضتيها حتى اكتست راحتاها بسيل من الدماء.

تنحنح الطبيب وقال: «للأسف لدي خبر سيئ.»

لم يستوعب عقل تالي الكلمات في البداية، لكنها شعرت بقبضة شاي على ذراعها، صلبة كالحديد، وكأنها ظنت أن تالي أوشكت أن تقفز على الرجل وتمزقه إربًا.

– «في مرحلة ما أثناء الإخلاء، رفض جسد زين أنسجة المخ الجديدة، وحاولت أجهزة الإنعاش أن تنبه فريق الأطباء، لكن بالطبع لم يكن أحد موجودًا بالقرب منه، وحاولت الأجهزة أن تتواصل معنا عن طريق إرسال الأزيز، لكن العبء على شبكة

التواصل الخاصة بالمدينة كان كبيرًا جدًا بسبب عملية الإخلاء فحال دون استلام الرسالة.»

قال تاكس: «العبء كبير؟ أتقصد أن المستشفى ليس له شبكة خاصة به؟»

قال الطبيب: «توجد قناة طوارئ». ونظر باتجاه دار البلدية وهو يهز رأسه وكأنه ما زال لا يصدق أنها لم تعد موجودة، وأضاف: «لكنها تمر بشبكة التواصل الخاصة بالمدينة، التي لم يبق منها شيء»، لم تشهد دييجو كارثةً كهذه من قبل».

قالت تالي بينها وبين نفسها: «هذا بسبب الهجوم ... الحرب، هذا بسببي أنا».

– «لقد ظن جهاز المناعة أن أنسجة المخ الجديدة مرض، وتعامل معها على هذا الأساس. لقد فعلنا كل ما بوسعنا لكن عندما وجدناه كان التلف قد حل.»

قالت تالي: «ما مدى ... التلف؟» ضغطت يدا شاي عليها بقوة أشد.

نظر الطبيب نحو الحراس ورأت تالي بطرف عينيها أنهم يستعدون للقتال في توتر، إذ كانوا جميعًا خائفين منها.

تنحنح وقال: «تدركين أنه وصل إلى هنا وهو مصاب بتلف في المخ، أليس كذلك؟»

قالت شاي وصوتها لا يزال يحمل نبرة هادئة: «نعرف».

– «لقد قال زين إنه يريد أن يشفى: أي أن يتخلص من الارتعاش وخلل الإدراك، وطلب تحسين قدرته على التحكم في جسده، قدر الإمكان، وقد كان هذا خطيرًا لكنه أعطى موافقة مستنيرة.»

أطرقت تالي برأسها. لقد كان زين يريد استعادة استجاباته القديمة وتحسينها حتى لا تراه ضعيفًا متواضع القدرات.

واصل الطبيب حديثه قائلًا: «وهذه المناطق تأثرت بالرفض أشد من غيرها، أقصد جميع الوظائف التي كنا نحاول إصلاحها، لقد انهارت».

– «انهارت؟» لم يستوعب عقل تالي الأمر. «أتقصد مهاراته الحركية؟»

– «ووظائف أخرى تفوقها أهمية، وأهمها: القدرة على الكلام والإدراك.» تلاشى شعور الطبيب بالحذر، وصارت ملامحه تحمل الآن تعبيرات الاهتمام والهدوء والتفهم المعهودة في الحسان الراشدين، أضاف: «بل إنه لا يستطيع أن يتنفس من تلقاء نفسه، ولا نظن أنه سيستعيد وعيه أبدًا».

كان الحراس يحملون الآن في أيديهم عصي كهربائية متوهجة، وشمت تالي رائحة شحناتها الكهربائية.

أخذ الطبيب نفسًا عميقًا وقال. «المشكلة هي أننا ... نحتاج السرير».

لم تقوَ قدما تالي على حملها، لكن قبضة شاي حالت دون سقوطها.

واصل الطبيب حديثه قائلًا: «لدينا عشرات المصابين، وبعض العاملين في الورديات الليلية الذين هربوا من دار البلدية مصابون بحروق بشعة، ونحتاج إلى تلك الأجهزة، وكلما كان ذلك أسرع، كان أفضل».

قالت شاي: «وزين؟».

هز الطبيب رأسه أسفًا وقال: «سيتوقف عن التنفس فور أن نفصله عنها، في الأحوال العادية ما كنا لنأخذ هذه الخطوة بهذه السرعة، لكن الليلة ...».

قالت تالي في خفوت: «ظرف خاص».

قرَّبتها شاي إليها وهمست في أذنها قائلة: «تالي، علينا أن نرحل الآن، علينا أن نغادر هذا المكان، فأنت في غاية الخطورة».

– «أريد أن أراه».

– «ليست هذه فكرة جيدة يا تالي-وا، ماذا لو فقدت السيطرة على مشاعرك؟ قد تقتلين أحدًا».

قالت تالي في غضب: «دعيني أراه يا شاي-لا».

– «كلا».

– «دعيني أراه وإلا سأقتلهم جميعًا ولن تستطيعي منعي».

كانت شاي تحيطها بذراعيها الآن، ولكنها كانت تعلم أنها تستطيع أن تفلت من قبضتها، وبذلة التخفي التي ترتديها لا تزال تعمل إلى حد يكفي لتمكينها من أن تحولها إلى الوضع الزلق وتفلت من شاي، ثم تبدأ في التملص وتنقض على أعناقهم ...

تحركت قبضة شاي وشعرت تالي بشيء ما يضغط بخفة على رقبتها، قالت شاي: «تالي، أستطيع أن أحقنك بالدواء الآن».

– «كلا، لا تستطيعين، أمامنا حرب يجب أن نخمدها، وتحتاجين إلى عقلي وهو على حاله من المرض».

– «لكنهم يحتاجون تلك الأجهزة، وكل ما تفعلينه هو ...».

– «دعيني أكون محور الكون خمس دقائق أخرى يا شاي، ثم سأرحل وأتركه يموت، أعدك».

أطلقت شاي تنهيدة طويلة من بين أسنانها وقالت: «ليخرج الجميع من هنا».

كانت الأجهزة ما زالت متصلة برأسه وذراعيه، وحل إيقاع منتظم محل جوقة أصوات الصفير الحادة.

لكن تالي لاحظت أنه فارق الحياة.

لقد رأت جثمانًا ذات مرة من قبل. عندما ذهبت السلطات الخاصة لتدمر الضباب القديم، وقُتل مسئول المكتبة العجوز وهو يحاول الهروب. (كانت هي السبب في موته أيضًا، تذكرت تالي الآن كيف غابت عن عقلها تلك الحقيقة البسيطة!) كان جثمان الكهل يبدو مشوّهًا وهو ميت، وكان مشوهًا إلى حد جعل العالم من حوله يبدو مشوهًا، بل إن ضوء الشمس نفسه بدا مشوهًا في ذلك اليوم.

لكن هذه المرة أحست وهي تحدق في زين أن كل شيء أسوأ بكثير، إذ إنها تتمتع بعينين فائقتين الآن. وكل التفاصيل أشد وضوحًا ألف مرة: لون وجهه غير الطبيعي، والنبض المطرد أكثر من اللازم في عنقه، وشحوب أظافره وتحولها ببطء من اللون الوردي إلى اللون الأبيض.

احتبس صوت تاكس في حلقه وهو يقول: «تالي ...».

قالت شاي: «كم يحزنني هذا».

نظرت تالي إلى زملائها من الجارحين وأدركت أنهم لا يستطيعون أن يفهموا، ربما لا يزالون يشعرون بالسرعة والقوة، لكن الدواء الذي أعطتهم إياه ماتي جعل عقولهم تصبح فطرية مرة أخرى، فلا يستطيعون إدراك كيف أن الموت يزلزل كيان المرء بالغضب، وكم هو عبثي تمامًا.

كانت النيران لا تزال تحتدم في الخارج، وبدت جميلة وهي تمتد على صفحة السماء المظلمة الرائعة، وكأنها تسخر منها. كان ذلك هو ما لم يستطع أحد غيرها أن يراه، فالعالم يبدو في منتهى الروعة والبهجة حتى إنها لا تصدق أن زينًا فاته كل هذا.

مدت تالي يدها ولمست يده، أخبرتها أناملها فائقة الحساسية أن درجة حرارة جسده منخفضة على نحو أقل من المعدل الطبيعي.

إنها السبب؛ لقد حثته على المجيء إلى هنا حتى يصبح كما تتمنى هي، وأخذت تتجول في المدينة بدلًا من أن تعتني بأمره، وأشعلت الحرب التي قضت عليه.

هذا هو الثمن النهائي لأنانيتها.

قالت تالي وهي تشيح بوجهها: «أنا آسفة يا زين». فجأة شعرت أن وقوفها في ذلك المكان مدة خمس دقائق هو أطول مما تحتمل، فهي تشعر بحرقة في عينيها، لكنها عاجزة عن البكاء.

همست قائلة: «حسنًا، لنرحل».

– «هل أنت واثقة يا تالي؟ لم يمض سوى ...»

– «لنرحل على ألواحنا الطائرة، يجب إخماد نار هذه الحرب».

وضعت شاي يدها على كتفها وقالت: «حسنًا، مع أول خيط من خيوط الشمس، نستطيع أن نطير بلا توقف، فليس معنا أحد من مشوشي العقل حتى يبطئنا، ولا معنا أجهزة تحديد المواقع الخاصة بالضبابيين حتى تقودنا إلى طرق تحيط بها المناظر الطبيعية الخلابة، وسنصل إلى مدينتنا في غضون ثلاثة أيام».

فتحت تالي فمها وأوشكت أن تأمرهم بأن يتوجهوا إلى المدينة في التو واللحظة، لكن الإرهاق المرتسم على وجه شاي أسكتها. لقد ظلت تالي غائبة عن الوعي معظم الأربع والعشرين ساعة الماضية، أما شاي فقد سافرت لتقابل الجارحين وتعالجهم، وأنقذت تالي من جراحة انتزاع صفات المتميزين، وساعدتهم طوال هذه الليلة الطويلة المريعة، واستطاعت بالكاد أن تفتح عينيها.

علاوةً على ذلك فإن هذه لم تعد معركة شاي، فهي لم تدفع الثمن الذي تكبدته تالي.

قالت تالي وقد أدركت ما عليها أن تفعله: «أنت منهكة، اذهبي لتحصلي على قسط من النوم».

– «وأنت؟ هل أنت بخير؟»

– «كلا يا شاي، لست بخير».

– «آسفة، أقصد ... هل ستأذين أحدًا؟»

هزت تالي رأسها نفيًا، ومدت يدها، فلم ترتعش إطلاقًا، وقالت: «أترين؟ أنا أستطيع التحكم في نفسي، ربما لأول مرة منذ أن صرت من المتميزين، لكنني لا أستطيع أن أنام، سأنتظركم».

صمتت شاي مترددةً، ربما لتستشف ما يعتمل في عقل تالي، لكن عندما حل الإرهاق فوق تعبير القلق المرتسم على وجهها وضمت تالي مرةً أخرى، وقالت: «لا أحتاج سوى ساعتين، فأنا ما زلت أتمتع بما يكفي من سمات المتميزين».

– «بالطبع» ابتسمت تالي ثم قالت: «مع أول خيط من خيوط الشمس».

خرجت تالي مع الجارحين الآخرين من الحجرة ومروا بالأطباء والحراس المتوترين وابتعدت عن زين إلى الأبد، وعن مستقبلهما الذي حلما به، ومع كل خطوة بدأت تالي تتيقن من أن عليها أن تترك خلفها ليس زينًا فقط، بل الجميع.

أحست أن شاي ستعطل مسيرتها.

الفصل الثلاثون

العودة إلى المدينة

رحلت تالي فور أن نامت شاي.

ليس من المجدي أن يستسلما معًا. كان يجب على شاي أن تبقى هنا في دييجو، ففي هذه اللحظة أصبح الجارحون هم الفئة الأشبه بجيش نظامي في المدينة، ودكتورة كابل لن تصدق شاي على أية حال، إذ ستظهر في مخها آثار علاج مادي، وهي لم تعد من المتميزين.

لكن تالي من المتميزين. أخذت تتحنى وتتخذ سبيلًا ملتويًا بين أغصان الأشجار في الغابة، وهي تثني ركبتيها وذراعاها منبسطتان كالأجنحة، وراحت تطير بسرعة لم تعهدها من قبل قط. كان كل شيء حاد الوضوح: الرياح الدافئة التي ترتطم بوجهها المكشوف، وتغير الجاذبية تحت قدميها أثناء رحلة الطيران. كانت قد أخذت لوحين طائرين، تركب أحدهما ويتبعها الآخر، وتقفز بينهما كل عشر دقائق؛ فمع توزيع ثقلها بينهما، لن تتسبب السرعة القصوى في إرهاق مراوح الرفع إلا بعد أيام.

وصلت إلى حدود دييجو قبل الشروق بوقت طويل، وذلك عندما بدأت السماء البرتقالية تشع بالنور من فوقها كوعاء ضخم يصب نوره على البرية. كان جمال العالم يؤلمها مثلما تؤلم الشفرات الحادة، وأدركت تالي أنها لن تضطر أبدًا لأن تجرح نفسها مرةً أخرى.

إذ صارت تحمل سكينًا بداخلها الآن، سكينًا لا تكف عن جرحها. كانت تشعر به كلما ازدردت ريقها، وكلما تأملت روعة البرية.

بدأت كثافة الغابة تقل عندما وصلت تالي إلى الصحاري الشاسعة التي خلفتها الأعشاب البيضاء الضارة، وعندما تحولت الرياح التي ترتطم بوجهها إلى عاصفة محملة بالرمال، انعطفت نحو البحر حيث يتسنى لمغناطيس لوحها أن يتفاعل مع خط السكة الحديدية مما منحها مزيدًا من السرعة.

ليس أمامها سوى سبعة أيام لإخماد هذه الحرب.

يقول تاكس إن السلطات الخاصة كانت تنوي الانتظار أسبوعًا حتى يتدهور الوضع في دييجو. فتدمير دار البلدية سيضعف سير العمل في المدينة شهورًا، ويبدو أن دكتورة كابل ترى أن من لم يخضع لتشويش العقل سيثورون على أية حكومة في حالة عجزها عن توفير احتياجاتهم.

وإن لم تشتعل الثورة في الوقت المتوقع، فإن السلطات الخاصة ستهاجم المدينة مرةً أخرى مدمرةً أجزاءً أكبر منها حتى تجعل الأحوال تئول إلى الأسوأ.

صدر أزيز في برنامج تالي: لقد مرت عشر دقائق أخرى. استدعت اللوح الخالي ليقترب منها وقفزت عبر الفضاء، ومرت لحظة لم يكن تحتها سوى الرمال والشجيرات الكثيفة، ثم هبطت في وضع ركوب مثالي.

وجدت نفسها تبتسم في كآبة؛ إن وقعت فليس تحتها شبكة تمسكها، وإنما رمال كثيفة تتحرك بسرعة مائة كيلومتر في الساعة، لكنها لم تعد فريسة للمخاوف التي طالما كانت تنتابها، والتي كانت شاي تشكو منها حتى بعد أن صارت تالي من الجارحين.

ولم يعد الخطر يهمها، لم يعد شيء يهمها.

لقد صارت من المتميزين بمعنى الكلمة الآن.

حين بدأ الغسق يخيم على المكان، وصلت تالي إلى خط السكة الحديدية الساحلي الممتد على ضفاف البحر.

أخذت السحب تكفهر في وجهها من جهة البحر طوال العصر، وعند حلول الغروب انسدل ستار أسود على الكون وأخفى النجوم والقمر. بعد أن خيم الليل بساعة بدأت حرارة النهار التي كانت تختزنها قضبان السكة الحديدية تتلاشى لتترك هذه القضبان خفية على الرغم من استخدام الأشعة تحت الحمراء. بدأت تالي تسترشد بحاسة السمع في رحلة طيرانها معتمدةً على صوت تكسر الأمواج على الشاطئ فقط حتى تحافظ على مسارها. هنا فوق القضبان الحديدية، سينقذها سوارَاها إن سقطت.

ما إن بزغ الفجر حتى مرت فوق معسكر يعج بهاربين يبدو عليهم النعاس. سمعت صياحًا يأتي من ورائها، فنظرت خلفها فرأت أن الرياح التي نتجت عن مرورها بعثرت جمرات نيران المعسكر فوق العشب الجاف، وأخذ الهاربون يتدافعون

في ذعر لمنع الحريق من الانتشار، وراحوا يضربون النيران بحقائب النوم والسترات صارخين وكأنهم مجموعة من مشوشي العقل.

ظلت تالي تطير، فلم يكن لديها وقت لتعود وتساعدهم.

أخذت تفكر بشأن مصير جميع الهاربين الذين لا يزالون يقطعون طريقهم عبر البرية. هل من الممكن أن توظف دييجو أسطول مروحياتها الصغير لإحضارهم إليها؟ ما عدد المواطنين الذي يمكن للنظام الجديد استيعابهم الآن وهو يحارب من أجل بقائه؟

لا شك أن أندرو سيمبسون سميث لن يدرك أن الحرب مشتعلة، وسيستمر في تسليم الهاربين أجهزة كشف المواقع التي لن تؤدي إلى أي مكان. سيصل الهاربون إلى أماكن التجمع لكن لن تأتيهم أية طائرة لنقلهم إلى دييجو. سيفقدون الأمل تدريجيًا إلى أن ينفد طعامهم وصبرهم ثم يعودون إلى مدينتهم.

قد ينجح البعض في الوصول إلى الوجهة المطلوبة، لكن المجموعة كلها من أشبال المدينة ولا علم لهم بالأخطار الموجودة هنا في البرية. وما دام الضباب الجديد لن يرحب بهم، فسيهلك معظمهم في العراء.

في ثاني ليلة تواصل فيها تالي الطيران بدون أن تأخذ قسطًا من الراحة سقطت.

كانت قد لاحظت لتوها اضطرابًا في عمل أحد اللوحين الطائرين، إذ تسبب خلل متناهي الصغر أصاب مروحة الرفع الأمامية في أن ترتفع حرارته. ظلت تتابعه عن كثب طوال الدقائق القليلة الأخيرة، وصفحة تفصيلية من بيانات الأشعة تحت الحمراء تحجب بصرها تمامًا حتى إنها لم تلحظ إطلاقًا الشجرة التي فوجئت بوجودها أمامها.

كانت شجرة صنوبر وحيدة قد اعوجت أوراقها العلوية بفعل المياه المالحة، فصارت تشبه قصة شعر سيئة. اصطدم اللوح بالفرع عند منتصفه بالضبط فقصمه تمامًا، وانقلبت تالي رأسًا على عقب.

وجد سوارا الصدمات المعدنَ الموجود في قضبان خط السكة الحديدية في الوقت المناسب بالضبط. لم يمسكا بها فجأة وبسرعة مثلما كانا سيفعلان لو أنها سقطت في خط مستقيم، وإنما جعلاها تقفز فوق القضبان بسرعة. مرت لحظات مثيرة شعرت فيها تالي وكأنها قد رُبطَت في مقدمة قطار قديم والعالم يمضي بسرعة على جانبيها، والقضبان الداكنة ممتدة أمامها نحو الظلام، وبدت العوارض ضبابية تحت قدميها.

أخذت تفكر ما الذي سيحدث إذا انعطف قضبان السكة الحديدية فجأة؟ هل سيحملها السواران عبر المنعطف أم سيقذفانها على الأرض فجأة، أو من على المنحدر ...

لكن خط السكة الحديدية ظل يمضي في طريق مستقيم لم يحد عنه، وبعد مائة متر خفت القوة الدافعة التي تحركها. ساعد السواران تالي على الهبوط على الأرض، وأخذ قلبها يخفق بشدة، لكنها لم تصب بأذى. وجد اللوحان إشارتها بعد دقيقة، وأخذا يخرجان ببطء من الظلام كصديقين مرتبكين لهروبهما دون إخبارها.

أدركت تالي أنها على الأرجح يجب أن تحصل على قسط من النوم. فعندما تفقد التركيز في المرة القادمة، قد لا يحالفها الحظ. لكن الشمس سرعان ما ستشرق، والمدينة لا تبعد عنها سوى بمسافة يمكن قطعها في أقل من يوم. صعدت على اللوح شديد السخونة وركبته بتشبث شديد، وراحت تحافظ على يقظتها عن طريق الإنصات بتركيز لكل تغير يطرأ على صوت المروحة التالفة.

بعد الفجر مباشرةً انطلقت صرخة حادة، وقفزت تالي عن اللوح الطائر التالف في اللحظة التي تحطم فيها وتحول إلى كتلة معدنية مفرطة السخونة تطلق الصرخات. هبطت على اللوح الآخر، والتفتت لتشاهد بقايا اللوح الأول الصارخة وهي تترنح بزاوية جانبية وتسقط في البحر، تاركة آثارًا متطايرة ساخنة من الرذاذ والبخار.

ولّت تالي وجهها شطر مدينتها مرة أخرى، ولم تبطئ من سرعتها قط.

عندما ظهرت الأطلال القديمة في الأفق، ابتعدت عن الساحل.

كانت المدينة المهجورة القديمة تعج بالمعادن، ولذا — ولأول مرة منذ أن غادرت تالي دييجو — سمحت لنفسها بأن تخفض من سرعتها، وتركت مراوح رفع اللوح المتبقي تستريح. انطلقت في الشوارع الخاوية في سكون، محدقةً في السيارات المحترقة التي ظلت شاهدة على آخر أيام سكان الأطلال القديمة. ورأت المباني المهدمة العالية تحيط بها، وجميع البقاع المألوفة التي اختبأت فيها حين كانت من الضبابيين. أخذت تالي تفكر: هل لا يزال القبحاء المشاغبون يتسللون إلى هنا ليلًا؟ ربما لم تعد مدينة الأطلال القديمة تثير اهتمامهم، لا سيما أنه توجد الآن مدينة نابضة بالحياة يمكنهم الهرب إليها.

ومع هذا ظلت تبدو مخيفة، وكأن هذا الفراغ الشاسع يعج بالأشباح، وخُيل إليها أن النوافذ المفتوحة تحدق فيها، وذكرتها بالليلة الأولى التي أحضرتها فيها

شاي إلى هنا، عندما كانتا قبيحتين. كانت شاي قد علمت الطريق السري من زين، طبعًا فالفضل الأول يعود إليه في أن تالي يانج بلود لم تظل فقط واحدة من مشوشي العقل، سعيدةً وساذجة بين أبراج مدينة الحسان الجدد.

ربما بعد أن تعترف تالي لدكتورة كابل سينتهي بها المطاف إلى هناك مرةً أخرى، وتنمحي كل هذه الذكريات التعيسة أخيرًا ...

أزيز.

أبطأت تالي سرعتها إلى أن توقفت وهي لا تكاد تصدق ما سمعته، إذ كان الأزيز يأتي على تردد الجارحين، لكن لا يمكن أن يكون أحدٌ منهم قد وصل إلى هنا قبلها. كانت خانة الهوية فارغة، وكأن الأزيز صدر من العدم. لا بد أن مصدره هو جهاز لاسلكي تركه شخص ما بعد بعثة تدريبية، إشارة عشوائية بين الأطلال ليس إلا.

همست تالي قائلةً: «مرحبًا؟»

أزيز ... أزيز ... أزيز.

رفعت تالي حاجبيها، لم يكن ذلك عشوائيًا، وإنما بدا وكأنه إجابة: «هل تسمعني؟»

أزيز.

قطبت تالي جبينها وقالت: «ألا تستطيع أن تتكلم؟»

أزيز.

تنهدت تالي وقد أدركت حقيقة ما يحدث، وقالت: «حسنًا، خدعة جيدة أيها القبيح، لكن لدي أمورًا أهم يجب أن أقوم بها». شغلت مروحتي الرفع مرة أخرى منعطفةً نحو المدينة.

أزيز ... أزيز.

توقفت تالي بسرعة وهي لا تدري إن كان يجب عليها تجاهل الإشارة. أية مجموعة من القبحاء تتمتع بذكاء يتيح لها التلاعب بتردد الجارحين قد يكون لديها معلومات مفيدة، ولن يضيرها استكشاف كيف تسير الأمور في المدينة قبل مواجهة دكتورة كابل.

تحققت من قوة الإشارة، فوجدت أنها قوية وواضحة، إن من أرسلها ليس ببعيد.

انطلقت تالي جهة الشارع الخالي، وأخذت تتتبع الإشارة عن كثب، وزادت قوة الإشارة قليلًا جهة اليسار، فانعطفت في ذلك الاتجاه وانطلقت ببطء مسافة شارع آخر.

– «حسنًا يا فتى، صوت أزيز واحد يعني نعم، وصوتان يعنيان لا، أفهمت؟»

– أزيز.

– «هل أعرفك؟»

– أزيز.

ظلت تالي ماضية في طريقها إلى أن ضعفت الإشارة، ثم انعطفت وعادت أدراجها ببطء، وقالت: «هل أنت من الأشقياء؟»

– أزيز ... أزيز.

وصلت قوة الإشارة إلى ذروتها، فرفعت تالي بصرها، فرأت أعلى مبنى ظل سالمًا في الأطلال، فهو وكر قديم من أوكار الضبابيين ومكان منطقي لإقامة محطة إرسال.

– «هل أنت من القبحاء؟»

مرت مدة طويلة من الصمت، ثم صدر أزيز واحد.

بدأت تالي رحلة الصعود في صمت، ومغناطيس اللوح الطائر يتفاعل مع هيكل البرج المعدني القديم. زادت قوة حواسها والتقطت أذناها الأصوات كافةً.

تغير اتجاه الريح، فشمت رائحة مألوفة جعلت معدتها تنقبض.

وقالت: «اسباجتي بولونيز؟» هزت رأسها وأضافت: «إذن فأنت من هذه المدينة؟»

– أزيز ... أزيز.

ثم سمعت صوتًا، حركةً بين قطع الحجارة الكبيرة التي تكسو أحد الطوابق المهدمة في الأعلى. نزلت تالي من على لوحها ودخلت عبر إطار نافذة فارغة، وضبطت بذلة التخفي المتهرئة بحيث تشبه إلى حد ما قطع الحجارة المكسرة. أمسكت بجانبي الإطار ومالت بنصفها العلوي إلى الداخل ونظرت إلى أعلى.

ها هو ذا ينظر إليها، ناداها قائلًا: «تالي؟»

طرفت بعينيها في دهشة، إذ اكتشفت أنه ديفيد.

الفصل الحادي والثلاثون

ديفيد

صاحت قائلةً: «ما الذي تفعله هنا؟»

– «أنتظرك، كنت أعلم أنك ستأتين من هذا الطريق ... عبر الأطلال مرةً أخرى.»

صعدت تالي نحوه وهي تنتقل من عارضة حديدي لأخرى، فقطعت المسافة في ثواني معدودة. كان رابضًا في ركن من أرضية لم تنهرْ تمامًا، وكان الركن يكفي بصعوبة حقيبة النوم المنبسطة بجواره. كانت بذلة التخفي التي يرتديها مضبوطة بحيث تضاهي الظلال الموجودة داخل الطلل.

أصدرت وحدة ذاتية التسخين يمسكها بيده رنينًا يدل على أنها جاهزة، واجتاحت رائحة الاسباجتي بولونيز الكريهة تالي مرة أخرى.

هزت تالي رأسها في دهشة وقالت: «لكن كيف تمكنت من ...؟»

أمسك ديفيد بأداة بسيطة في إحدى يديه وجهاز هوائي يحدد الاتجاهات في اليد الأخرى، وقال: «بعد أن عالجنا فاوستو، ساعدنا في تركيب هذا، وكلما اقتربتم كنا نلتقط إشارات شبكة التواصل الداخلية الخاصة بكم، بل ونتمكن من التنصت.»

جلست تالي على عرق حديدي صدئ، وفجأة شعرت برأسها يدور إثر سفر دام ثلاثة أيام، قالت: «لم أكن أسألك كيف أرسلت إليَّ الأزيز، وإنما كيف وصلت إلى هنا بهذه السرعة؟»

– «كان هذا سهلًا، عندما رحلتِ وتركتِ شاي أدركت أنك على صواب، فدييجو بحاجة إليها أكثر مما أنت بحاجة إليها، لكنهم لا يحتاجون إليَّ.» تنحنح وأضاف: «وهكذا ركبت أول طائرة مروحية وذهبت إلى نقطة تجمع تقع في منتصف الطريق إلى هنا.»

تنهدت تالي مغمضةً عينيها. كانت شاي قد وصفتها بأن لها عقلًا كعقل المتميزين. كان من الممكن أن تستقل مركبة تقطع بها معظم المسافة. أحد عيوب النهايات الدرامية هو أنها تجعل المرء يبدو مشوش العقل، لكنها شعرت بالارتياح عندما سمعت أن مخاوفها بخصوص الهاربين لا أساس لها من الصحة، فدييجو لم تتخل عنهم حتى الآن.

– «إذن لماذا أتيت إلى هنا بالتحديد.»

ارتسم التصميم على ملامح ديفيد وقال: «أنا هنا لأساعدك يا تالي».

– «اسمع يا ديفيد، انضمامنا إلى الصف نفسه الآن لا يعني أنني أريدك معي. ألا يجب أن تعود إلى دييجو؟ هناك حرب مشتعلة كما تعلم.»

هز كتفيه وقال: «لا أحب المدن كثيرًا ولا أدري شيئًا عن الحروب».

– «ولا أنا، لكنني أفعل ما بوسعي.» أشارت إلى لوحها الذي كان لا يزال يحلق في الأسفل، وأضافت: «وإذا أمسكت بي السلطات الخاصة بصحبة أحد من الضبابيين، فإن هذا سيزيد صعوبة إقناعهم بأنني صادقة».

– «لكن يا تالي هل أنت على ما يرام؟»

قالت في خفوت: «هذه ثاني مرة يطرح علي شخص هذا السؤال السخيف، لا ألست على ما يرام؟»

– «نعم، أظن أن السؤال سخيف، لكننا قلقون عليك».

– «من تقصد؟ أنت وشاي؟»

هز رأسه نفيًا وقال: «كلا، بل أنا وأمي».

أطلق تالي ضحكة مدوية قصيرة وأضافت: «منذ متى ومادي تقلق علي؟»

أجاب قائلًا: «كانت تفكر فيك كثيرًا مؤخرًا»، ووضع الوجبة التي لم يلمسها على الأرض. أردف قائلًا: «كان عليها أن تدرس عملية إضفاء سمات المتميزين على الحسان حتى تتمكن من علاجها، وهي تعرف الكثير عما يكون عليه حال المرء في وضعك».

هبت تالي واقفة وهي تضم قبضتيها وقفزت عبر الفراغ الفاصل بينهما فقطعته بقفزة واحدة، مما أدى إلى سقوط شلال من الصدأ في الهوة الواقعة في قلب المبنى، وقالت في وجهه مباشرةً وهي تكشر عن أسنانها: «لا أحد يدرك ما يكون عليه حال المرء في وضعي الآن يا ديفيد، أؤكد لك: لا أحد».

ظل يبادلها النظر دون أن يطرف له جفن، لكن تالي شمت رائحة خوفه، وكل الضعف الذي يتسرب منه.

قال بهدوء: «آسف، لم أقصد ما فهمته ... هذا الأمر لا يتعلق بزين».

عندما سمعت تالي اسمه انكسر شيء بداخلها وخبا سخطها. ربضت وتنفست على نحو غير منتظم. مرت لحظة خيل إليها أن موجة السخط أزاحت شعورًا ثقيل الوطأة بداخلها. كانت هذه أول مرة منذ موت زين يتمكن أي شعور – حتى لو كان الغضب – من التغلب على يأسها.

لكن الشعور لم يدم سوى ثواني قليلة، ثم بدأ ينتابها الإرهاق الناجم عن قضائها أيامًا متواصلة في السفر.

وضعت رأسها بين يديها وقالت: «لا يهم».

– «لقد أحضرت لك شيئًا، ربما تحتاجينه».

رفعت تالي بصرها، فوجدت ديفيد يحمل في يده حقنة.

هزت رأسها بإرهاق وقالت: «يجب ألا تعالجني يا ديفيد، فالسلطات الخاصة لن تصدقني إلا إن كنت واحدة منهم».

– «أعرف يا تالي. فاوستو شرح لنا خطتك.» عقم الإبرة وأعدها، ثم قال: «لكن احتفظي بهذا، ربما ترغبين في تغيير نفسك بعد أن تخدعيهم بما حدث».

قطبت تالي جبينها وقالت: «أظن أنه لا طائل من التفكير فيما سيحدث بعد أن أعترف يا ديفيد، فالمدينة ربما تغضب مني قليلًا، لذا قد لا يكون لي يد في تحديد مصيري».

– «أشك يا تالي، فمن السمات المدهشة التي تميزك أنه دائمًا يكون لك خيار مهما كان ما تفعله بك المدينة التي تنتمين إليها».

قالت ساخرة: «دائمًا؟ لم يكن لي خيار حين مات زين، فيما يبدو».

قال ديفيد وهو يهز رأسه أسفًا: «صدقت ...»، وأضاف: «آسف مرة أخرى، لا أكف عن التفوه بكلام سخيف، لكن أتذكرين حين كنت من الحسناوات؟ لقد غيرت نفسك وتمكنت من قيادة الأشقياء والخروج بهم من المدينة».

– «زين هو الذي قادنا».

– «كان قد تناول قرصًا، أما أنت فلا».

قالت في ضعف: «لا تذكرني، هذا ما أودى به إلى ذلك المستشفى!»

– «مهلًا، مهلًا.» رفع ديفيد يديه وقال: «أريد أن أوضح لك شيئًا: أنتِ التي تمكنتِ من التخلص من حالة الحسان عن طريق التفكير».

– «نعم أعرف، أعرف، وقد أفادني هذا كثيرًا، وأفاد زينًا.»

– «في الواقع لقد أفاد على نحو أكبر من ذلك يا تالي. فبعد أن رأت أمي ما فعلت أدركت أمرًا مهمًّا بشأن طريقة إبطال مفعول العملية، وبشأن علاج حالة التشوش العقلي.»

رفعت تالي بصرها وهي تتذكر النظريات التي كان زين يؤمن بها حين كانوا من الحسان، وقالت: «أتقصد بشأن مساعدة نفسك على التيقظ والانتباه؟»

– «بالضبط. لقد أدركت أمي أنه ليس علينا أن نتخلص من إصابات تلف المخ، فكل ما نحتاجه هو أن نحفز المخ بحيث يعمل حولها، ولذا فإن العلاج الجديد أكثر أمانًا بكثير، ومفعوله سريع للغاية.» كان يتحدث بسرعة وعيناه تلمعان في الظلام، وأضاف: «هكذا نجحنا في تغيير دييجو في شهرين فقط، بفضل ما كشفته أنتِ لنا.»

– «إذن أنا السبب في تحويل هؤلاء الأشخاص أصابع الخنصر في أيديهم إلى ثعابين؟ رائع.»

– «أنت السبب في الحرية التي حصلوا عليها يا تالي وفي وضع نهاية للعملية.»

ضحكت تالي ضحكةً مفعمة بالمرارة وقالت: «تقصد نهاية دييجو، فور أن تحكم دكتورة كابل قبضتها عليهم. سيتمنون لو أنهم لم يروا الأقراص الصغيرة التي صنعتها والدتك قط.»

– «اسمعي يا تالي، دكتورة كابل أضعف مما تظنين.» قال مقتربًا منها وأضاف: «إليك ما أتيت لأطلعك عليه: بعد أن ظهر النظام الجديد إلى الوجود، تطوع بعض مديري العمليات الصناعية المنتمين لدييجو وساعدونا. حققنا إنتاجًا ضخمًا، وهربنا مائتي ألف قرص إلى مدينتكم على مدار الشهر الماضي. إن نجحت في فقد السلطات الخاصة لتوازنها، ولو لأيام قليلة، فستبدأ مدينتك رحلة التغيير. الخوف هو العامل الوحيد الذي يحول دون إقامة النظام الجديد هنا أيضًا.»

– «تقصد الخوف ممن هاجموا الترسانة.» تنهدت وأضافت: «إذن فأنا السبب مرةً أخرى.»

– «ربما، لكن إن استطعت القضاء على تلك المخاوف هنا، فستلفتين انتباه سائر مدن العالم.» أمسك ديفيد يدها قائلًا: «أنت لا تخمدين الحرب فحسب يا تالي، إنك على وشك إصلاح كل شيء.»

– «أو إفساد كل شيء، هل فكر أي منكم فيما سيحدث للبرية إن شفي الجميع مرةً واحدة؟» هزت رأسها وقالت: «كل ما أعرفه هو أنه يجب أن أوقف هذه الحرب.»

ابتسم وقال: «العالم يتغير يا تالي، والفضل في هذا يعود إليك».

تراجعت والتزمت الصمت للحظة. فإذا نطقت بكلمة أخرى فقد تجعله يلقي خطبةً أخرى يمتدح فيها شمائلها الرائعة. هي لا تشعر أنها رائعة، إنما منهكة فحسب. بدا ديفيد سعيدًا بالجلوس هناك، ربما يظن أن تالي تستوعب كلماته وتتأثر بها، لكن صمتها لم يكن يعني إلا أن التعب بلغ بها حدًّا يمنعها من الكلام.

في رأي تالي يانج بلود الحرب بدأت وانتهت، تاركةً في أعقابها أنقاضًا يتصاعد منها الدخان. هي لا تستطيع إصلاح كل شيء، لسبب بسيط وهو أن الشخص الوحيد الذي تهتم به فات أوان إصلاحه.

فلتعالج مادي كل مشوشي العقل في العالم، لكن هذا لن يعيد زينًا إلى الحياة.

لكن بقي سؤال وحيد يؤرقها، فقالت: «إذن تقول إن أمك صارت تحبني حقًّا؟»

ابتسم ديفيد وقال: «لقد أدركت أخيرًا مدى أهميتك، للمستقبل، ولي».

هزت تالي رأسها، وقالت: «لا تردد مثل ذلك الكلام، أقصد عني وعنك».

– «آسف يا تالي، لكن هذه هي الحقيقة».

– «لقد مات والدك بسببي يا ديفيد، بسبب أني خنت الضباب».

هز ديفيد رأسه نفيًا ببطء وقال: «لم تخنينا، وإنما تلاعبت بك السلطات الخاصة، مثلما تلاعبت بالكثيرين، والذي تسبب في قتل والدي هو تجارب دكتورة كابل، وليس أنت».

تنهدت تالي، فقد بلغ بها الإنهاك حدًّا لا يمكنها من الجدل، قالت: «يسعدني أن مادي لم تعد تكرهني. وعلى ذكر دكتورة كابل، أنا أريد أن أقابلها وأضع حدًّا لهذه الحرب. هل انتهينا من هذه النقطة؟»

– «نعم.» أمسك بوجبته وأعواد الطعام، ونظر إلى الطعام وانخفض صوته وهو يقول: «هذا كل ما أردت أن أقوله، فيما عدا ...»

زفرت تالي في ضجر.

– «اسمعي يا تالي، لست أنتِ الوحيدة التي فقدت عزيزًا.» وتطلع إليها وهو يضيق عينيه، وقال: «بعد أن توفي والدي، أردت أن أختفي من الوجود أنا أيضًا».

– «لن أختفي من الوجود يا ديفيد، ولن أهرب. أنا أؤدي واجبي، أتفهمني؟»

– «تالي، ما أحاول قوله هو: سأكون هنا عندما تفرغين.»

هزت رأسها وهي تقول: «أنت؟»

– «لست وحدك يا تالي، ولا تدعي أنك كذلك».

حاولت تالي أن تقف، أن تبتعد عن هذا السخف، لكن فجأة خُيل إليها أن البرج المحطم يترنح حولها، فجلست مرةً أخرى.

نهاية درامية سيئة أخرى.

– «حسنًا يا ديفيد، يبدو أنني لن أذهب إلى أي مكان إلا بعد أن أحصل على قسط من النوم. أظن أنني كان يجب أن أستقل تلك المروحية.»

– «إليك حقيبة النوم الخاصة بي.» تنحى جانبًا بسرعة ورفع الجهاز الهوائي، ثم قال: «سأوقظك إن جاء أحد يبحث عنك. أنت في أمان هنا.»

قالت تالي: «أمان!» تمددت بجواره في الحيز الضيق، ومرت لحظات شعرت فيها بحرارة جسده وراودها طيف ذكرى رائحته حين كانا مرتبطين، وخيل إليها أن الأمر مضى عليه دهر.

انتابها شعور غريب، فوجهه القبيح كان قد أثار اشمئزازها آخر مرة رأته فيها، لكن بعد أن رأت عددًا ضخمًا من الجراحات المجنونة في دييجو، بدا حاجبه المشوه بندبة وابتسامته المعوجة كصيحة أخرى من صيحات الموضة، وليست صيحة سيئة.

لكنه ليس زيفًا.

زحفت تالي إلى داخل حقيبة النوم، ثم نظرت من خلال طوابق المبنى المتهدمة إلى الأسفل حيث الأساس المكدس بالأنقاض على بعد عشرات الأمتار، وقالت: «حسنًا، فقط لا تدعني أتقلب وأنا نائمة، اتفقنا؟»

ابتسم وقال: «اتفقنا.»

– «وأعطني هذا.» أخذت الحقنة من يده، ودفعتها في جيب بذلة التخفي. «ربما أحتاجها يومًا ما.»

– «ربما لن تحتاجيها.»

تمتمت قائلةً: «لا تحيرني».

وضعت تالي رأسها على الأرض ونامت.

الفصل الثاني والثلاثون

اجتماع طارئ

عادت تالي إلى مدينتها عبر النهر.

أخذت ترتطم بالمياه الصافية التي يعلوها الزبد، وأفق مدينة الحسان الجدد المألوف أمامها، تساءلت: هل ستكون هذه آخر مرة ترى فيها مدينتها من الخارج؟ كم من الوقت يبقون على المرء جبيسًا حين يهاجم مدينته ويدمر عن غير قصد قواتها المسلحة ويزج بها في حرب بغيضة؟

لحظة أن وصلت إلى نطاق شبكة المدينة التي تعمل بنظام اتصالات يعيد تلقائيًا إرسال الإشارات المستقبلة عبر تردد ثابت مختلف خلال نطاق الإشارات نفسه — انهمرت الأخبار على الشبكة المغروسة في جلد تالي، كالسيل. أكثر من خمسين قناة كانت تغطي الحرب، واصفةً بانبهار كيف اقتحم أسطول الطائرات دفاعات دييجو وسوّى دار البلدية بالأرض. كانوا جميعًا سعداء بهذا، وكأن قصف عدو قليل الحيلة هو عمل شبيه بالألعاب النارية في نهاية احتفال طال انتظاره.

كان غريبًا سماع ذكر السلطات الخاصة كل خمس ثوان: كيف تدخلت بعد تدمير الترسانة، وكيف أنها ستحافظ على سلامة الجميع، فحتى أسبوع مضى لم يكن معظم الناس يؤمنون البتة بالمتميزين، لكنهم فجأة أصبحوا منقذي المدينة.

انفردت التعليمات الجديدة الخاصة بفترات اندلاع الحرب بقناة خاصة لها، وكانت عبارة عن قائمة تمرير بها قواعد كئيبة تتحرك على شاشة العرض حتى يحفظها الناس. وكانت قيود حظر التجول على القبحاء أشد صرامةً منها في أي وقت مضى، ولأول مرة — حسبما تتذكر تالي — تُفرض قيود على صغار الحسان تتعلق بالأماكن التي يسمح لهم بالذهاب إليها، والأنشطة التي يسمح لهم بالقيام بها. أصبح الطيران بالمناطيد محظورًا تمامًا، وحُظر ركوب الألواح الطائرة إلا في

الحدائق والساحات الرياضية. ومنذ أن أضاءت الترسانة السماء وهي تنهار، أُلغيت عروض الألعاب النارية التي كانت تقام ليلًا في مدينة نيو بريتي فيل.

ومع هذا لم يشكُ أحد، وهذا ينطبق على الجماعات مثل جماعة محبي المناطيد التي كانت تعيش في المناطيد صيفًا. طبعًا إن كان مائتا ألف شخص قد شُفوا من تلف المخ، فإنه لا يزال يبقى نحو مليون شخص مشوش العقل. ربما يكون عدد من يريدون الاعتراض لا يزال يمثل أقلية لا تتمكن من إيصال صوتها إلى الجميع.

أو ربما كانوا خائفين من السلطات الخاصة إلى حد منعهم من رفع أصواتهم أساسًا.

وبينما اجتازت تالي الحزام الأخضر الخارجي لمدينة كرامبلي فيل (يرجى إدراج ثلاث نقاط لكلمة فيل)، تواصلت الشبكة المغروسة في جلدها مع طائرة بلا طيار تحرس حدود المدينة. فتشتها المركبة إلكترونيًا بسرعة قبل أن تدرك أنها من عملاء السلطات الخاصة.

أخذت تفكر: هل توصل أي شخص إلى طريقة التغلب على دوريات الحراسة الجديدة بعد أم لا؟ أم أن القبحاء المشاغبين لم يعد لهم وجود الآن، إما عن طريق الهرب إلى دييجو أو الانضمام إلى السلطات الخاصة. كل شيء تغير تغيرًا جذريًا في الأساليب المعروفة التي عاشت فيها، كلما اقتربت من المدينة، زاد شعورها بالاغتراب، خاصةً الآن وقد صار من المستحيل أن يرى زين هذا الأفق مرةً أخرى ...

أخذت تالي نفسًا عميقًا. حان وقت إتمام هذه المهمة والتخلص من عبئها.

«رسالة إلى دكتورة كابل.»

جاءها أزيز يعلن أن شبكة المدينة وضعتها في صف الانتظار. يبدو أن رئيسة السلطات الخاصة مشغولة هذه الأيام. لكن بعد دقيقة رد عليها صوت آخر يقول: «العميلة تالي يانج بلود؟»

قطبت تالي جبينها، فهذه ماكسميلا فيستر، واحدة من معاوني دكتورة كابل. كانت دكتورة كابل دائمًا مسئولة مسئولية مباشرة عن الجارحين. قالت تالي: «دعيني أتحدث إلى دكتورة كابل».

– «إنها مشغولة يا آنسة تالي، فهي في اجتماع مع مجلس المدينة.»

– «هل هي في وسط المدينة؟»

– «كلا، في المقر.»

أبطأت تالي سرعة لوحها إلى أن توقف، وقالت: «في مقر السلطات الخاصة؟ منذ متى ومجلس المدينة يجتمع هناك؟»

– «منذ أن دخلنا الحرب يا تالي. حدثت أمور كثيرة عندما كنت أنت والأنذال زملاؤك تتجولون في البرية. أين كنتم أيها الجارحون بالله عليكم؟»

– «هذه قصة طويلة، قصة يجب أن أطلع دكتورة كابل عليها وجهًا لوجه. أخبريها أنني قادمة وأن ما علي قوله أمر شديد الأهمية.»

مرت فترة صمت قصيرة ثم عاد صوت المرأة، وكان منزعجًا، قالت: «اسمعي يا تالي، نحن في حالة حرب ودكتورة كابل حاليًا تتولى رئاسة المجلس. عليها مسئولية إدارة مدينة كاملة وليس لديها وقت لمعاملتكم أيها الجارحون المعاملة الخاصة المعتادة، لذا أخبريني ما الأمر وإلا فلن تقابليها عما قريب، أفهمت؟»

ابتلعت تالي ريقها. دكتورة كابل تدير المدينة كلها؟ ربما الاعتراف لها لن يكون كافيًا. ماذا لو كانت تستمتع بتوليها المسئولية لدرجة تحول دون تصديقها الحقيقة؟

– «حسنًا يا ماكسيميلا. فقط أخبريها أن الجارحين كانوا في دييجو الأسبوع الماضي – يحاربون، حسنًا؟ – وأنني أود إطلاع المجلس على معلومات هامة جدًا تتعلق بأمان المدينة. هل يكفيك هذا؟»

بدأت الكاتبة حديثها قائلة: «كنتم في دييجو؟ كيف ...» لكن تالي أنهت التواصل. لقد قالت ما يكفي لجذب انتباه المرأة.

مالت تالي إلى الأمام وشغلت مراوح رفع اللوح متوجهة نحو المنطقة الصناعية بأقصى سرعة، آملةً أن تصل إلى هناك قبل انتهاء اجتماع مجلس المدينة.

إنهم أفضل من يستمع لاعترافها.

كان مقر السلطات الخاصة يمتد على الجانب المقابل للمنطقة الصناعية، ليس مرتفعًا ولا ضخمًا ولا مبهرًا؛ لكنه أكبر مما يبدو عليه، إذ كان به اثنا عشر طابقًا تحت الأرض. إن كان مجلس المدينة خائفًا من هجوم ثان، فهذا هو المكان المنطقي للاختباء فيه. كانت تالي واثقة من أن دكتورة كابل استقبلت المجلس بحفاوة، وقد سرها أن تختبئ حكومة المدينة ذُعرًا في قبوها.

راحت تالي تحدق من على قمة التل العالي المائل الذي يطل على المقر. عندما كانت من القبحاء كانت هي وديفيد يقفزان من هنا إلى السطح على متن لوحيهما الطائرين. منذ ذلك الحين رُكبت أجهزة استشعار الحركة لتحول دون حدوث تسلل

مثل ذلك. لكن لم يُصمم أحد حصنًا بحيث يحول دون دخول أحد سكان المكان إليه، خاصة إن كان يحمل أنباءً مهمة.

أعادت تالي فتح شبكة التواصل المغروسة فيها. «رسالة إلى دكتورة كابل.»

هذه المرة ردت النائبة ماكسميلا على الفور. «كفي عن العبث يا تالي.»

– «دعيني أتحدث إلى دكتورة كابل.»

– «إنها لا تزال مع المجلس. عليك أن تتحدثي معي أولًا.»

– «ليس لدي وقت يسمح لشرح الأمر مرتين يا ماكسميلا. ما أحمله يهم المجلس كله.» صمتت لتأخذ نفسًا طويلًا عميقًا ثم قالت: «يوجد هجوم آخر مرتقب.»

– «ماذا؟»

– «هجوم، سيحدث قريبًا. أخبري دكتورة كابل أنني سأكون هناك في غضون دقيقتين. سأتوجه مباشرةً إلى اجتماع المجلس.»

أغلقت تالي الشبكة مرةً أخرى، في وجه المزيد من الإجابات المرتبكة من الطرف الآخر. أدارت لوحها الطائر، وانطلقت متجهة إلى أسفل عبر الجانب المنحدر الطويل من التل، ثم استدارت لتواجه القمة مرةً أخرى، وهي تقبض أصابعها وترخيها.

تتمثل خطتها في أن يكون دخولها دراميًا إلى أقصى حد ممكن، فتندفع بغرور أمام الجميع وتتوجه مباشرةً إلى اجتماع مجلس المدينة، والأرجح أن دكتورة كابل ستستمتع برؤية واحدةً من أحبائها الجارحين تندفع إلى المكان لتطلعها على نبأ هام، فهذا دليل على أن السلطات الخاصة تقوم بعملها على خير ما يرام.

طبعًا ما ستقوله تالي ليس هو ما تتوقعه دكتورة كابل.

حثت تالي لوحها على الاندفاع إلى الأمام وعملت المراوح والمغناطيس بأقصى طاقتهما. صعدت التل وهي تزيد من سرعتها طوال الطريق.

عند القمة لم تعد تالي ترى الأفق، إذ اختفت الأرض تحت قدمي تالي، وحلقت عاليًا في السماء.

أوقفت تالي عمل مراوح الرفع، وثنت ركبتيها وهي تمسك باللوح بأصابعها.

خيم الصمت، وبدأ سطح المقر يزداد حجمًا وتالي تهبط. شعرت بالابتسامة تتسع على وجهها. قد تكون هذه آخر مرة تقوم فيها بفعل مثير كهذا، وكل حواسها الفائقة تشعر بكل ما يحيط بها من تفاصيل، لعله من الأفضل أن تستمتع بالأمر.

عادت مراوح الرفع إلى العمل واللوح على بعد مائة متر من السطح، وقبل اصطدامها بالسطح دفعت المراوح باللوح لأعلى تجاه قدميها وجاهدت لأن توقف تالي. قبض سوارا الصدمات على معصميها بشدة على الرغم من قوة هبوطها.

اصطدم اللوح الطائر بالسطح بقوة متخذًا وضعًا أفقيًا، وتدحرجت تالي ونزلت من عليه ثم أخذت تركض. كانت أجهزة الإنذار تدوي في كل مكان حولها، لكنها بحركة واحدة أسكتت شبكة التواصل المغروسة في جلدها. صاحت في أبواب العربات الطائرة الموجودة أمامها مطالبةً بأن تدخل من مُدخل الطوارئ.

مرت فترة صمت قصيرة ثم ردت ماكسيملا بصوت قلق: «تالي؟»

– «أريد الدخول، بأقصى سرعة!»

– «أخبرت دكتورة كابل ما قلته. تريدك أن تتوجهي مباشرةً إلى اجتماع المجلس. هم في غرفة العمليات في الطابق العاشر.»

ابتسمت تالي، فالخطة تنجح: «فهمت، افتحي هذا الباب.»

ردت: «حسنًا». بدأ المهبط الذي تقف عليه تالي يفتح أبوابه، وهو يصدر صريرًا معدنيًا، وراح السطح ينفلق إلى قسمين، ونزلت من خلال الصدع الذي أخذ يتسع، فانتقلت من المكان الذي يغمره ضوء الشمس إلى مكان شبه مظلم، وهبطت فوق إحدى العربات الطائرة التابعة للسلطات الخاصة، وتجاهلت تالي عمال حظيرة العربات الطائرة الذين أصابهم الذعر، وتدحرجت إلى الأرضية وأخذت تركض.

انطلق الصوت يردد في أذنيها: «يوجد مصعد ينتظر أمامك مباشرةً.»

توقفت تالي قبل صف المصاعد وقالت لاهثة: «بطيء جدًا، فقط افتحي لي بئر مصعد فارغ.»

– «أتمزحين يا تالي؟»

– «كلا، كل ثانية مهمة، هيا!»

بعد دقيقة انفتح باب آخر وبدا الظلام من ورائه.

خطت تالي نحو بئر المصعد.

أخذ حذاؤها المزود بنعل مانع للانزلاق يصرخ وهي تقفز من أحد جانبي البئر إلى الجانب الآخر، وهي تكاد تفقد السيطرة على رحلة الهبوط التي كانت أسرع عشر مرات من أي مصعد. على قناة شبكة التواصل الخاصة بالمقر، سمعت صوت ماكسيملا يحذر الجميع بالابتعاد عن طريقها. أضيء بئر المصعد، وكان الباب المؤدي إلى الطابق العاشر تحت الأرض مفتوحًا لها بالفعل.

أمسكت تالي بنتوء بارز من الطابق الأعلى وتأرجحت عبر الفتحة هابطة بسرعة قصوى. اندفعت بسرعة البرق في الممر والمتميزون يلصقون أجسادهم بالجدران حتى يفسحوا لها الطريق، وكأن تالي رسول من عصر ما قبل سكان الأطلال القديمة يحمل أخبارًا إلى الملك. عند مدخل غرفة العمليات الرئيسية بالطابق كانت ماكسميلا تنتظر مع اثنين من المتميزين وهما مدججان بعدة السلاح كاملة. «آمل أن يكون الأمر مهمًا يا تالي.»

– «صدقيني إنه مهم.»

أومأت ماكسميلا برأسها إيجابا فانفتح الباب. ودخلت تالي منه ركضًا.

توقفت تالي فجأة. كان الصمت يخيم على الغرفة وحلقة ضخمة من المقاعد الشاغرة تحدق فيها من جميع الاتجاهات، ولكن لم تجد دكتورة كابل ولا مجلس المدينة.

لم يوجد أحد سوى تالي يانج بلوو، لاهثةً وحيدةً. دارت قائلةً: «ماكسميلا؟ ما هذا؟»

انغلق الباب فوجدت نفسها محبوسة في الحجرة.

عبر شبكة التواصل، سمعت ماكسميلا وهي تقول بسعادة: «فقط انتظري هنا يا تالي، ستلتحق بك دكتورة كابل فور أن تنهي اجتماعها بالمجلس.»

هزت تالي رأسها في حالة من عدم التصديق، فاعترافها لن يكون له قيمة إن لم ترغب دكتورة كابل في تصديقه. هي بحاجة إلى شهود. قالت: «لكن هذا يحدث الآن! في رأيك لماذا قطعت كل هذا الطريق جريًا؟»

– «لماذا؟ ربما لتخبري المجلس أن دييجو لم يكن لها يد في الهجوم على الترسانة؟ وأنك أنت الفاعلة الحقيقية؟»

فغرت تالي فاها، ولم يتجاوز دفاعها التالي شفتيها، وراحت تستعيد كلمات ماكسميلا مرةً أخرى في عقلها ببطء دون أن تصدق أنها سمعتها حقًا.

كيف علموا بالأمر؟

أخيرًا نجحت في أن تقول: «عما تتحدثين؟»

زادت نبرة السرور المشوب بالقسوة في صوت ماكسميلا وهي تقول: «اصبري يا تالي، دكتورة كابل ستشرح لك.»

ثم انطفأت الأنوار وظلت في ظلام دامس. بدأت تالي تتحدث مرةً أخرى ثم أدركت أن شبكة التواصل أصبحت مغلقة.

الفصل الثالث والثلاثون

الاعتراف

ظل الظلام الدامس مخيمًا مدة خُيل إليها أنها ساعات طوال. وأخذ الغضب العارم يتصاعد داخل تالي، وكأنه حريق من حرائق الغابات يزداد اضطرامًا مع مرور كل ثانية. وأخذت تقاوم رغبة شديدة في أن تجري على غير هدى في الظلام، محطمةً كل ما تصل إليه يداها، وتخترق السقف إلى الطابق التالي ثم تظل تصعد حتى تصل إلى الهواء الطلق.

غير أن تالي أجبرت نفسها على الجلوس على الأرض، وراحت تتنفس بعمق وتحاول الاحتفاظ برباطة جأشها. ظلت تدور برأسها فكرة أنها ستخسر أمام دكتورة كابل مرة أخرى، مثلما خسرت عندما تعرض الصبيان للغرق، عندما سلمت نفسها ليجعلوها من الحسان، وعندما هربت هي وزين معًا، وألقي القبض عليهما.

وأخذت تالي تكبح جماح غضبها، وهي تضم قبضتيها بشدة حتى شعرت وكأن أصابعها ستتحطم. شعرت بقلة الحيلة، وهو الشعور نفسه الذي انتابها حين كان زين راقدًا أمامها يموت ...

لكنها لا تتحمل أن تخسر مرةً أخرى، ليس هذه المرة والمستقبل عرضة للخطر. وهكذا راحت تنتظر في الظلام وهي تغالب غضبها.

أخيرًا انفتح الباب وظهرت في مدخله هيئة دكتورة كابل المألوفة. وأضيئت من السقف أربعة مصابيح ذات إضاءة موضعية مباشرة، وأخذت تسطع في عيني تالي مباشرةً. أعماها الضوء للحظة، فسمعت مزيدًا من المتميزين يدخلون بسرعة ثم انغلق الباب خلفهم.

هبت تالي واقفةً، وقالت: «أين أفراد مجلس البلدية؟ من المهم أن أتحدث أمامهم».

– «للأسف ما لديك قد يغضبهم، ولا يمكن أن تسمح بذلك. فأعضاء المجلس صاروا سريعي الغضب هذه الأيام.» صدرت ضحكة مكتومة من الصورة الظلية لدكتورة كابل التي تجسدت لها، وأضافت: «إنهم في الطابق الثامن، يواصلون حديثهم الممل».

فوقها بطابقين ... لقد اقتربت جدًا، ولكنها فشلت مرة أخرى.

قالت دكتورة كابل بصوت خافت: «مرحبًا بعودتك يا تالي».

تلفتت تالي حولها في قاعة الاجتماعات الفارغة وقالت: «شكرًا على الحفلة المفاجئة».

– «أنت التي كنت تنوين مفاجأتنا، على ما أظن.»

– «أية مفاجأة؟ قول الحقيقة؟»

أطلقت دكتورة كابل ضحكة وقالت: «الحقيقة؟ أنت من سيقولها؟» وأضافت: «أية مفاجأة أكبر من هذه؟»

اجتاحت تالي نوبة غضب، لكنها أخذت نفسًا طويلًا ببطء وقالت: «كيف عرفت؟»

تقدمت دكتورة كابل نحو بقعة مضاءة وأخرجت سكينًا صغيرة من جيبها وقالت: «أظن أن هذه لك»، وألقت بالسكين في الهواء، فأخذت تتلألأ في الأضواء الضعيفة للمصابيح الأربع، ثم سقطت على الأرض بين قدمي تالي وأردفت قائلة: «خلايا الجلد التي وجدناها عليها تخصك بلا شك».

راحت تالي تحدق في السكين.

إنها السكين نفسها التي ألقتها شاي حتى تطلق جهاز الإنذار الموجود في الترسانة، وهي السكين نفسها التي استخدمتها تالي لتجرح نفسها في تلك الليلة. فتحت تالي قبضتها وحدقت في كفها؛ الوشوم المتحركة ما زالت تدور بإيقاعها المتقطع بفعل الندبة. لقد رأت شاي تمسحها لتزيل من عليها البصمات، لكن لا بد أن أثرًا ضئيلًا من جلدها ظل عالقًا بالسكين ...

لا بد أنهم عثروا عليها وأجروا تحليل الحامض النووي بعد الهجوم مباشرةً، وأنهم كانوا يعرفون من البداية أن تالي يانج بلود كانت هناك في الترسانة.

تمتمت دكتورة كابل قائلةً: «كنت أعرف أن تلك العادة السيئة ستؤدي بكم إلى المشاكل في النهاية أيها الجارحون، أحقًا تشعرين بشعور رائع حين تجرحين نفسك؟ يجب أن أتحرى عن ذلك في المرة القادمة لو استعنت بصغار السن ليصبحوا من المتميزين».

ركعت تالي ورفعت السكين من الأرض وراحت تزنها في يدها، وهي تفكر فيما إذا كانت ستتمكن من التصويب على رقبة دكتورة كابل برمية متقنة، لكن المرأة تتمتع بالسرعة نفسها التي تتمتع بها تالي، وهي مثلها تمامًا من المتميزين.

لم تعد تحتمل أن تظل من المتميزين بعد الآن، وعليها أن تخرج من هذا المأزق بالتفكير.

ألقت بالسكين جانبًا.

قالت دكتورة كابل: «فقط أريدك أن تجيبي على سؤال واحد: لماذا أقدمت على ذلك؟»

هزت تالي رأسها؛ فالإفصاح عن الحقيقة كاملة سيضطرها لذكر زين، وهو ما سيؤدي إلى زيادة صعوبة السيطرة على الموقف.

– «حدث الأمر مصادفةً».

– «مصادفة؟» ضحكت دكتورة كابل وقالت: «يا لها من مصادفة هائلة تلك التي تدمر نصف جيش المدينة».

– «لم نكن ننوي إطلاق العنان لجزيئات النانو».

– «ننوي؟ من تقصدين؟ الجارحين؟»

هزت تالي رأسها نفيًا، فلا داعي لذكر شاي أيضًا، وقالت: «وقعت أحداث متلاحقة تسببت في ما حدث ...».

– «فعلًا. دائمًا ما تسير الأمور معك على هذا النحو، أليس كذلك يا تالي؟»

– «لكن لماذا كذبت على الجميع؟»

تنهدت دكتورة كابل وقالت: «يجب أن يكون ذلك واضحًا لك يا تالي. فليس من الحكمة أن أخبرهم أنك دمرت دفاعات المدينة تقريبًا. فالجارحون هم قرة عيني، إنهم صفوة المتميزين». اتسعت ابتسامتها الحادة وأضافت: «إضافةً إلى هذا، فإنك قدمت لي فرصة رائعة للتخلص من عدو قديم».

– «ما الأذى الذي سببته لكِ مدينة دييجو؟»

– «لقد ساندت الضباب القديم. وظلت لسنوات تحتضن من يهربون من مدينتنا، ثم أخبرتنا شاي أنه يوجد من يمد الضبابيين ببذلات تخفٍ وكميات هائلة من تلك الأقراص الشنيعة. من غيرها يمكن أن يفعل هذا؟» وأخذ صوتها يشتد وهي تقول: «المدن الأخرى كانت في انتظار أن يقضي أحد على دييجو بنظامها الجديد وضربها

عرض الحائط بمعايير التكوين الشكلي المورفولوجي. وأنت وفرتِ لي الذريعة. لطالما أفادتني خدماتك يا تالي.»

أغمضت تالي عينيها بشدة وهي تتمنى أن يكون المجلس قد سمع كلمات دكتورة كابل بطريقة أو بأخرى أثناء اجتماعه. آه لو علموا أنها كذبت عليهم ...

لكن المدينة بأسرها تعاني من خوف شديد يحول دون القدرة على التفكير السليم، وقد أسكرتها نشوة الهجوم المضاد الذي شنته، وصارت على أتم استعداد لقبول حكم هذه المختلة عقليًا.

هزت تالي رأسها، لقد انصب تركيزها طوال الأيام القليلة الماضية على إعادة برمجة نفسها، لكنها تريد إعادة برمجة الجميع.

أو ربما إعادة برمجة شخص بعينه ...

سألت بهدوء: «متى ينتهي كل هذا؟ إلى متى ستظل هذه الحرب مشتعلة؟»

– «لن تنتهي أبدًا يا تالي، فأنا أنجز الكثير من المهام لم أكن أستطيع إنجازها من قبل، وصدقيني، مشوشو العقل يستمتعون بمتابعة الموقف من خلال المواد الإخبارية. و[illegible] بقضية الأمر[illegible] شن حرب يا تالي. كان ينبغي أن أفكر في هذا منذ سنوات.» [illegible] المرأة [illegible] ووجهها الجميل المشوب بالقسوة يتوهج عند حافة [illegible] تضيئها المصابيح تلك الإضاءة المباشرة، وأردفت قائلة: «ألا ترين [illegible] تحت جبينك؟ ومن الآن فصاعدًا سيكون كل يوم ظرفًا خاصًا».

أومأت تالي برأسها ببطء، ثم سمحت للابتسامة أن تتسلل إلى وجهها، وقالت: «كم هو لطيف منك أن تشرحي ذلك لي وللجميع كذلك».

رفعت دكتورة كابل أحد حاجبيها وقالت: «ماذا؟ ماذا تقصدين؟»

– «كابل، لم آتِ إلى هنا لأطلع مجلس البلدية على ما حدث، فهم زمرة من الجبناء إن كانوا سعداء عن تولي مقاليد الأمور. لقد أتيت لأطلع الجميع على أكاذيبك.»

أطلقت المرأة ضحكة عميقة خافتة وقالت: «لا تخبريني أنك مثلًا صورت شريط فيديو تشرحين فيه أنك أنت التي أشعلتِ الحرب؟ من سيصدق هذا؟ ربما كنت تتمتعين يومًا ما بشهرة بين مشوشي العقل والقبحاء، لكن لا أحد ممن فوق العشرين يعرفك أصلًا».

– «صحيح، لكنهم يعرفونك ولا سيما بعد أن استوليت على زمام الأمور.» مدت تالي يدها في جيب سترة التخفي الكبير وأخرجت المحقن ثم أضافت: «ونظرًا لأنهم رأوك وأنتِ تشرحين أن هذه الحرب بأكملها اندلعت على أسس زائفة، فلن ينسوك أبدًا».

قطبت دكتورة كابل جبينها وقالت: «ما هذا؟»

– «جهاز إرسال للأقمار الصناعية لا يمكن التشويش عليه.» خلعت تالي الغطاء من على الجزء العلوي من المحقن، فظهرت الإبرة وقالت: «أترين هذا الهوائي الصغير؟ مذهل أليس كذلك؟»

– «لا يمكنك هذا ... ليس من هنا في الأسفل.» أغمضت دكتورة كابل عينيها وجفناها يرتجفان وهي تطلع على التغذية المعلوماتية المقدمة في شبكة التواصل الخاصة بها.

واصلت تالي حديثها وابتسامتها الواسعة التي تكشف عن أسنانها تتسع، وقالت: «إنهم يجرون أغرب الجراحات في دييجو، وهكذا زرعوا في عينيّ كاميراتين مجسمتَين، وفي أظافري ميكروفونات، والمدينة كلها شاهدتك وأنت تشرحين ما اقترفتِه».

فتحت كابل عينيها وقالت بازدراء: «لا يوجد شيء في الأخبار يا تالي، لعبتك الصغيرة لا تعمل».

رفعت تالي حاجبيها ونظرت إلى الجزء الأسفل من المحقن في حيرة وقالت: «يا إلهي، لقد نسيت أن أضغط على زر الإرسال»، وحركت أصابعها ...

قفزت كابل للأمام، واندفعت إحدى يديها نحو المحقن، وفي نفس الجزء من الثانية حركت تالي الإبرة لتصبح في الزاوية الصحيحة تمامًا ...

أطاحت الضربة بالمحقن من يد تالي، وسمعته يسقط في ركن الحجرة بدوي عالٍ ثم يتحطم.

قالت دكتورة كابل مبتسمة: «حقًا يا تالي، إنك تتصرفين أحيانًا بمنتهى الحماقة قياسًا إلى كونك خارقة الذكاء».

طأطأت تالي رأسها وأغمضت عينيها، لكنها كانت تتنفس ببطء عبر أنفها طلبًا للهواء ...

ثم شمت الرائحة ... رائحة دماء ضئيلة للغاية.

فتحت عينيها، ورأت دكتورة كابل تنظر إلى يدها وهي منزعجةً قليلًا بسبب وخزة الإبرة. كانت شاي قد أخبرتها أنها لاحظت مفعول العلاج بصعوبة في البداية، وأن العلاج استغرق أيامًا حتى يظهر مفعوله.

إلى حين ذلك، لا تريد تالي أن تبدأ كابل في التفكير كيف وخزت نفسها «بالهوائي» أو أن تلقي نظرة فاحصة على المحقن المحطم. ربما يكون من المناسب أن تصرف انتباهها عن ذلك.

رسمت تالي تعبيرًا غاضبًا على وجهها وقالت: «أتصفينني بالحماقة؟»

فجأة ركلت دكتورة كابل بعنف في معدتها مما جعل أنفاسها تحتبس.

بدأ المتميزون الآخرون يصدرون رد فعل على الفور، لكن تالي كانت قد بدأت تركض، واندفعت نحو المكان الذي سمعت المحقن يسقط فيه، وداست على بقاياه بقدمها بقوة فهشمته بأقصى ما يمكنها من قوة، ثم وجهت ركلة قوية أصابت فك أقرب من كانوا يطاردونها، وقفزت إلى أعلى حيث يوجد الصف الأول من صفوف المقاعد، وأخذت تركض بمحاذاة ظهورها دون أن تلمس أرضية الحجرة.

صاح أحد الحراس قائلًا: «أيتها العميلة تالي، إننا لا نريد أن نؤذيك!»

ردت قائلة: «يؤسفني أنكم ستضطرون إلى هذا!» وأسرعت عائدة إلى حيث يرقد الحارس الأول الذي لكمته. انفتح باب غرفة العمليات بعنف، واندفع منه حشد كبير من الأفراد يرتدون زيًّا موحدًا حريريًّا من اللون الرمادي.

وثبت تالي بالقرب من الحارس الواقع على الأرض، واستقرت مرة أخرى فوق شظايا المحقن. وجه الحارس الآخر المدجج بالسلاح إلى كتفها لكمةً ألقت بها إلى صف المقاعد الأول، فنهضت واقفة وألقت بنفسها عليه متجاهلة حشد المتميزين الذي ينقض عليها.

بعد ثوانٍ قليلة وجدت تالي نفسها منبطحة على الأرض وذراعاها تحتها، أخذت تتلوى لكي تفتت آخر ما تبقى من شظايا المحقن تحتها، ثم ركلها شخص آخر في ضلوعها، فأطلقت أنة مكتومة.

أخذ آخرون يتكدسون فوقها فشعرت وكأن فيلًا يجلس على ظهرها. بدأ ضوء الحجرة يخفت وشعرت تالي أنها على وشك أن تفقد الوعي.

قال أحد المتميزين: «لا تقلقي يا دكتورة كابل، لقد سيطرنا عليها».

لم ترد دكتورة كابل. اشرأبت تالي حتى ترى، كانت دكتورة كابل منحنية وهي تشهق وتحاول أن تتنفس.

سألها أحد المتميزين: «هل أنت بخير يا دكتورة كابل؟»

قالت تالي لنفسها: «فقط امنحوها فسحةً من الوقت، وستتحسن كثيرًا ...».

الفصل الرابع والثلاثون

الانهيار

شاهدت تالي كل ما يحدث من زنزانتها.

أخذت التغيرات في الظهور على دكتورة كابل ببطء في البداية. بدت دكتورة كابل طيلة بضعة أيام بطابعها المختل المعتاد عندما كانت تزور تالي، وهي تطلب منها بلهجة متعجرفة أن تمدها بمعلومات عما كان يحدث في دييجو. وأخذت تالي تطيعها بسرور، وراحت تختلق قصصًا حول انهيار النظام الجديد وكانت أثناء هذا تترقب ظهور أية علامة تدل على شقائها.

لكن سنوات الغرور والقسوة بدأت تتلاشى ببطء، وخُيل إليها أن الزمن نفسه قد توقف داخل جدران زنزانتها الأربعة. فليس من طبيعة الجارحين أن يعيشوا في أماكن مغلقة، ولا سيما الضيقة منها، واضطرت تالي إلى تركيز معظم قوتها على الحيلولة دون أن تفقد صوابها. وراحت تحدق في باب الزنزانة وقد استبد بها اليأس وهي تغالب موجات الغضب التي أخذت تجتاحها، وتقاوم رغبتها الجامحة في أن تجرح نفسها بأظافرها أو أسنانها.

فتلك هي الطريقة التي نجحت بفضلها في إعادة برمجة نفسها من أجل زين، ولا يمكن أن تستسلم للضعف الآن.

كان أصعب ما في الأمر هو عندما تفكر تالي في أنها تحت الأرض بمسافة كبيرة، باثني عشر طابقًا، وكأن زنزانتها تابوت مدفون في أعماق الأرض، كأنها ماتت لكن ثمة آلة شريرة من آلات دكتورة كابل كانت تبقيها على وعيها مع أنها في القبر.

كانت الزنزانة تذكرها بطريقة معيشة سكان الأطلال القديمة: غرف صغيرة ضيقة في أطلال تعوزها الحيوية، ومدنهم المزدحمة التي تشبه سجونًا تطاول عنان السماء. كلما انفتح الباب كانت تالي تتوقع أن يجروا لها عمليةً جراحية، وأن تفيق لتجد نفسها مشوشة العقل، أو تكتشف أنها لا تزال من المتميزين ولكن صارت

أشد جنونًا، وكادت تشعر بالسرور حين تجد أن من بالباب هي دكتورة كابل جاءت لتستجوبها مرةً أخرى، فأي شيء أفضل من أن تظل وحيدةً في هذه الزنزانة الخاوية.

وأخيرًا بدأت تلاحظ أن العلاج يأتي بمفعول ... ببطء. تدريجيًا أخذت ثقة دكتورة كابل في نفسها تقل وراحت قدرتها على اتخاذ القرارات تضعف.

بدأت تتمتم ذات يوم وهي تتخلل شعرها بأصابعها قائلةً: «إنهم يطلعون الجميع على أسراري!»

– «من الذي يفعل ذلك؟»

فأجابت دكتورة كابل بحدة: «دييجو». وأضافت: «الليلة الماضية ظهر كلٌّ من شاي وناكس في القنوات الإخبارية العالمية وكشفا عن الندوب الناجمة عن الجروح ووصفاني بأنني متوحشة».

– قالت تالي: «يا لهما من خبيثين».

حدقت دكتورة كابل فيها بغضب وقالت: «ويبثان صورًا مفصلة لجسدك من الداخل واصفين إياك بأنك «نموذج لانتهاك قواعد التكوين»».

– «أتقصدين أنني صرت شهيرة مرة أخرى؟»

أومأت كابل برأسها إيجابًا وقالت: «صرتِ سيئة السمعة يا تالي، فالجميع خائفون منك. ربما يكون النظام الجديد قد أخاف المدن الأخرى، لكن يبدو أنها تخاف أكثر من عصابتي الصغيرة المكونة من مختلين عقليًا في السادسة عشر من عمرهم».

ابتسمت تالي قائلةً: «كان أداؤنا رائعًا».

– «إذن كيف تركت دييجو تلقي القبض عليك!»

هزت تالي كتفيها وقالت: «آه، كان ذلك أمرًا بشعًا، كانوا زمرة حقيرة من الحراس يرتدون ذلك الزي الموحد السخيف الذي يشبه النحل الطنان».

حدقت فيها دكتورة كابل وبدأت ترتجف مثلما كان زين المسكين يرتجف وقالت: «لكنك كنت قويةً جدًا يا تالي، وسريعة جدًا».

هزت تالي كتفيها مرةً أخرى وقالت: «وما زلت».

هزت دكتور كابل رأسها نفيًا وقالت: «هذا يا تالي إلى حين، إلى حين».

بعد أسبوعين من الصمت والوحدة، أشفق شخص ما على تالي وما تعانيه من ملل، على غير المتوقع، فشغل شاشة الحائط في زنزانتها. اندهشت من سرعة تراخي قبضة

دكتورة كابل على المدينة. وكفت المواد الإخبارية عن تكرار عرض المعركة المنتصرة التي خاضها الجيش ضد مدينة دييجو، وامتلأت الشاشة بالأعمال الدرامية الموجهة إلى مشوشي العقل ومباريات كرة القدم بدلًا من الإنجازات العسكرية. وأخذ مجلس البلدية يوقف العمل بالقواعد الجديدة تدريجيًّا.

يبدو أن العلاج الذي صنعته مادي سيطر على عقل كابل في الوقت المناسب تمامًا، إذ لم يشن أحد أي هجوم آخر على دييجو قط.

طبعًا ربما يكون للمدن الأخرى يد في ذلك، إذ لم يعجبها النظام الجديد قط، لكنها كانت ترفض اندلاع حرب عسكرية رفضًا قاطعًا، فهناك من لقوا مصرعهم بسبب ذلك.

وبعد أن ساءت سمعة التجارب الجراحية التي تجريها دكتورة كابل، بدأ الإنكار المتكرر الذي أعلنته دييجو تجاه الهجوم الذي شن على الترسانة يكتسب المصداقية تدريجيًّا، وبدأت المواد الإخبارية تتساءل عن حقيقة ما حدث في تلك الليلة خاصة بعد أن أذيعت رواية أمين المتحف الكهل الذي شهد الهجوم، إذ ذكر أن من أطلق جزيئات النانو التي ترجع إلى عهد سكان الأطلال القديمة هما شخصان مجهولان يبدو عليهما صغر السن والطيش أكثر من الخطر، وليس جيشًا محتلًا.

ثم بدأت قصص متعاطفة مع دييجو تظهر على المواد الإخبارية المحلية من بينها لقاءات أجريت مع الجرحى الناجين من الهجوم على مبنى دار البلدية، كانت تالي دائمًا تسارع بتحويل المؤشر عندما تأتي تلك الفقرات التي عادةً ما تنتهي بذكر أسماء السبعة عشر شخصًا الذين لقوا حتفهم في الهجوم، وخاصة الضحية الذي كان — لسوء حظه — هاربًا من المدينة نفسها التي شنت الهجوم.

وكانوا دائما ما يعرضون صورته أيضًا ...

بدأت تُطرح نقاشات حول الحرب، والأمور الأخرى كافة. وراحت تالي تشاهد كيف أخذت حدة الخلافات تشتد، وتزداد وقاحة كل يوم، إلى أن أصبح النقاش حول مستقبل المدينة قبيحًا بمعنى الكلمة. ودار حوار حول وضع معايير تكوين جديدة، وحول السماح للقبحاء والحسان بالاختلاط، بل حول التوسع في البرية.

بدأ مفعول العلاج يظهر هنا، مثلما حدث في دييجو، وأخذت تالي تفكر: ما شكل المستقبل الذي ساعدت في إطلاقه؟ هل سيبدأ حسان المدينة يتصرفون مثل سكان الأطلال القديمة الآن؟ هل سيتوسعون في البرية ويتسببون في حدوث زيادة سكانية في الأرض محطمين كل ما في طريقهم؟ من بقي ليوقفهم؟

ويبدأ يقل ذكر اسم دكتورة كابل في المواد الإخبارية، ويبدأ نفوذها يضمحل وراحت شخصيتها تتضاءل أمام عيني تالي. ولم تعد تأتي إلى الزنزانة، ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى أزاحها مجلس البلدية عن السلطة على أساس أن الأزمة انتهت وكذلك مدتها كرئيسة منتدبة.

ثم بدأ الحديث عن نزع سمات المتميزين.

قيل إن المتميزين مصدر خطر، وأنه من المحتمل أنهم مختلون عقليًا، وأن فكرة إجراء عملية تحويل العاديين إلى متميزين من أساسها تعد فكرة تفتقر إلى العدل، فمعظم المدن لم تصنع قط مخلوقات من هذا النوع، فيما عدا أنهم أجروا عمليات زيادة الاستجابات لدى بضعة من حراس الغابات ورجال الإطفاء، ولذلك ربما حان وقت التخلص من المتميزين جميعًا بعد هذه الحرب الطائشة.

بعد جدال طويل بدأت مدينة تالي في تطبيق هذه الإجراءات بوصفها بادرة سلام للعالم. وراح عملاء السلطات الخاصة واحدًا تلو الآخر يخضعون لعمليات إعادة تصميم تعيدهم مواطنين عاديين أصحاء، ولم تنبس دكتورة كابل قط بكلمة واحدة اعتراضًا على ذلك.

كانت تالي تشعر بجدران زنزانتها تضيق عليها كل يوم، وكأن فكرة أنها ستتغير مرة أخرى تسحقها. نظرت إلى نفسها في مرآة الحائط متخيلة عينيها الشبيهتين بعيني الذئب تتحولان إلى عينين واهنتين، ومتخيلة ملامحها تتدهور لتصبح ملامح عادية، بل إن الندوب التي تغطي ذراعها ستختفي، وأدركت أنها لا تريد أن تفقدها، فهي تذكرها بكل المواقف التي مرت بها، والأخطار التي نجحت في التغلب عليها.

كانت شاي والآخرون لا يزالون في دييجو، لا يزالون أحرارًا، وربما يتمكنون من الهرب قبل أن يحدث هذا لهم، يمكنهم العيش في أي مكان، فالجارحون صُمموا ليعيشوا في البرية.

أما تالي فليس أمامها مكان تهرب إليه، وليس لديها أي مجال لإنقاذ نفسها.

وأخيرًا ذات ليلة جاء الأطباء ليحضروها.

الفصل الخامس والثلاثون

العملية

سمعت صوتين متوترين قادمين من الخارج، غادرت تالي فراشها بهدوء وذهبت إلى الباب ووضعت كفها على الحائط المكسو بالخزف المقاوم للمتميزين، فنجحت الشرائح المزروعة في يديها في تحويل الهمهمة إلى كلمات ...

– «أواثق أن هذا سيؤثر فيها؟»

– «لقد أثر في الآخرين حتى الآن.»

– «لكن أليست هي — كما تعلم — تتمتع بقدرات فائقة؟»

ابتلعت تالي ريقها، إنها بلا شك تتمتع بقدرات فائقة، تالي يانغ بلوم أشهر مختلة عقليًا في السادسة عشرة في العالم، وقد أذيعت السمات الفتاكة لجسمها بالتفصيل في أنحاء العالم.

– «اهدأ لقد صنعوا هذه المجموعة خصوصًا لها.»

تساءلت: «أية مجموعة؟»

ثم سمعت صوت فحيح ... صوت غاز يتسرب إلى الزنزانة.

قفزت تالي مبتعدةً عن الباب وهي تستنشق جرعات سريعة من الهواء قبل أن ينتشر الغاز في أنحاء الزنزانة. أخذت تدور في المكان في اهتياج وهي تتطلع في غضب إلى الجدران الأربعة التي أصبحت تألفها كصداع مزمن، محاولةً للمرة المليون أن تجد فيها نقطة ضعف ما، وراحت تبحث مرة أخرى عن وسيلة للهرب ...

تصاعد الذعر في نفس تالي، فلا يمكنهم أن يفعلوا هذا بها، لا يمكن أن يفعلوا هذا بها مرةً أخرى، فليس ذنبها أنها مصدر خطر، فهم الذين جعلوها على هذه الحالة!

لكنها لم تجد سبيلًا إلى الهرب.

حبست تالي أنفاسها والأدرينالين يندفع في عروقها، وبدأت عشرات النقاط الحمراء تشوش مجال رؤيتها، مرت دقيقة وهي لم تتنفس إلى الآن، وبدأت شدة الذعر الذي تشعر به تخبو، لكنها لا تستطيع أن تستسلم.

ليتها تتمكن من التفكير على نحو منظم ...

نظرت إلى ذراعها، إلى صف الندوب، لقد مضى أكثر من شهر منذ أن جرحت نفسها آخر مرة، وشعرت وكأن كل الحسرات التي انتابتها منذ ذلك الحين على وشك أن تنفجر من عروقها. ربما لو جرحت نفسها مرةً أخرى تستطيع أن تفكر في طريقة تخرجها من هنا.

على الأقل ستكون آخر دقيقة تمر عليها وهي من المتميزين مفعمة بالانتعاش ...

وضعت تالي أظافرها على جلدها وضغطت على أسنانها الحادة، وهمست قائلةً: «أنا آسفة يا زين».

سمعت صوتًا يحمل نبرة استهجان في رأسها: «تالي!»

طرفت بعينيها، فلأول مرة منذ أن ألقوا بها في الزنزانة لا تكون شبكة التواصل المغروسة في جلدها مشوشة.

– «لا تقفي هكذا، أيتها البلهاء الحقيرة! تصرفي وكأنك تفقدين الوعي!»

استنشقت رئتا تالي المتألمتين نفسًا وملأت رائحة الغاز رأسها، وجلست على الأرض والنقاط الحمراء تزداد أمام عينيها.

– «نعم، هذا أفضل كثيرًا، استمري في التظاهر.»

أخذت تالي نفسًا عميقًا إذ لم تعد تستطيع أن تمنع نفسها، لكن شيئًا غريبًا كان يحدث، إذ راحت السحب السوداء تختفي من مجال رؤيتها، وجعلها الأوكسجين الذي تحتاجه بشدة أشد يقظةً.

لم يؤثر الغاز عليها.

استندت على الحائط وعيناها مغمضتان وقلبها ما زال يدق بعنف. ما الذي يحدث هنا؟ من الذي يتحدث في عقلها؟ شاي والجارحون الآخرون؟ أم أن هذا ...

تذكرت كلمات ديفيد: «لست وحدك».

أغمضت تالي عينيها وسقطت على جانبها، تاركةً رأسها تصطدم بالأرض بقوة، وظلت تنتظر في مكانها بلا حراك.

وبعد دقيقة مرت ببطء انفتح الباب.

سمعت من يقول: «مر ما يكفي من الوقت». كان الصوت متوترًا وصاحبه يقف في الممر في تردد.

سمعت وقع أقدام، ثم سمعت أحدهما يقول: «مثلما قلت أنت، إنها تتمتع بقدرات فائقة، لكنها في طريقها الآن نحو الحالة العادية».

– «هل أنت واثق من أنها لن تفيق؟»

شعرت بقدم تنخسها في جانبها، وقال صاحبها: «أرأيت؟ إنها غائبة عن الوعي».

شعرت تالي بموجة من الغضب تجتاحها بفعل الركلة، لكنها تعلمت أن تسيطر على نفسها في الشهر الذي قضته بمفردها. عندما نخستها القدم مرةً أخرى، تركت نفسها تتدحرج حتى استقرت على ظهرها.

– «لا تتحركي يا تالي، لا تفعلي أي شيء. انتظريني ...»

أرادت تالي أن تهمس وتقول: «من أنت؟»، لكنها لم تجرؤ. فالشخصان اللذان هاجماها بالغاز كانا يميلان عليها الآن وراحا ينقلانها على نقالة طائرة.

واستسلمت لهما فحملاها إلى الخارج.

راحت تالي تنصت إلى الأصداء بعناية.

أصبحت الممرات في مبنى السلطات الخاصة خاوية بدرجة أكبر الآن، فمعظم الحسان ذوي الملامح القاسية أجريت لهم عمليات التغيير بالفعل. سمعت بضع كلمات من حوارات عابرة، لكن لم يتسم أي منها بالحدة التي تميز صوت المتميزين.

أخذت تفكر: ترى هل تركوها لتكون الأخيرة؟

لم تستغرق الرحلة داخل المصعد وقتًا طويلًا، فلم يصعد إلا طابقًا واحدًا، حيث توجد غرف العمليات الأساسية. سمعت بابًا مزدوجًا ينفتح وشعرت بجسدها ينعطف بزاوية حادة، ودلفت النقالة إلى غرفة ضيقة مليئة بأسطح معدنية وروائح مطهرات.

كانت كل خلية من خلايا تالي تتوق إلى أن تقفز من على النقالة الطائرة وأن تقاتل حتى تصل إلى السطح. لقد هربت من هذا المبنى بعينه حين كانت من القبحاء. إن كان باقي المتميزين قد قضي عليهم جميعًا حقًا، فلن يستطيع أحد إيقافها الآن ...

لكنها سيطرت على نفسها، وراحت تنتظر إلى أن يخبرها الصوت بالخطوة التالية المطلوبة منها.

ظلت تردد لنفسها مرارًا: «لست وحدي».

نزعها عنها ملابسها وحملاها إلى حوض العمليات، فشعرت بأن جدرانه البلاستيكية كتمت الأصوات الصادرة من الغرفة. وشعرت بنعومة طاولة العمليات

وبرودتها على ظهرها، وشعرت بالمخلب المعدني للذراع المؤازرة للطاولة يحيط بكتفها. تخيلت مشرطًا يخرج منها ويجرح الجارحة للمرة الأخيرة، ويجردها من سمات المتميزين.

ألصق الرجلان بذراعها ضفيرة من الجلد، أخذت إبرها ترش مسكنًا موضعيًا قبل أن تدخل إلى عروقها. أخذت تفكر: متى سيبدءون في حقنها بمخدر قوي؟ وهل سيتمكن الأيض في جسدها من مساعدتها على أن تظل مستيقظة؟

حين انغلق الحوض أخذ معدل تنفسها يزداد تدريجيًا، وتمنت ألا يلحظ فردا الفريق الطبي الوشم المتحرك الذي يدور على أنحاء وجهها.

لكن كان يبدو من صوتهما أنهما منشغلان جدًا، كانت الأجهزة تعمل في جميع أنحاء الغرفة وهي تصفر وتطن، والأذرع المؤازرة تتحرك حولها، ومناشيرها الصغيرة تطلق أزيزًا على سبيل التجربة.

امتدت يدان وأقحمتا أنبوبًا في فمها، أحست أن البلاستيك له مذاق المطهرات، وأحست أن الهواء الذي ينبعث منه معقم وغير طبيعي. وعندما بدأ الأنبوب العمل، وامتدت أطرافه حول أنفها ورأسها كانت تتقيأ.

كانت تريد أن تنتزع ذلك الشيء وتقاوم.

لكن الصوت كان قد طلب منها أن تنتظر. فذلك الشخص الذي جعل غاز التخدير لا يضرها لا بد أن لديه خطة ما، وعليها أن تظل هادئة.

ثم بدأ الحوض يمتلئ.

أخذ السائل ينسكب من جميع الجوانب وأخذ يتجمع حول جسدها العاري، سميكًا لزجًا، مليئًا بالمواد المغذية وجزيئات النانو التي تحافظ على أنسجتها حيةً أثناء تمزيق الجراحين لجسدها. كانت حرارته تضاهي حرارة جسدها، لكن عندما تسرب المحلول إلى أذنيها، سرت رعشة في جسدها. وخمدت الأصوات في الغرفة حتى كاد الصمت يخيم على الغرفة.

ارتفع السائل مغطيًا عينيها، وطرف أنفها، إلى أن غطى جسدها كله ...

أخذت تستنشق الهواء غير الطبيعي المنبعث من الأنبوب وهي تكافح لكي تظل مغمضة العينين، الآن وقد أصبحت صماء تقريبًا، أصبح اضطرارها لإغماض عينيها يعذبها.

همس صوت في رأسها: «أنا في الطريق إليك يا تالي».

أم لعلها كانت تتخيل ذلك؟

أصبحت الآن حبيسة عاجزة عن الحركة، وها هي المدينة تنتقم منها الانتقام الأخير: سيدقون عظامها حتى يصبح طولها مثل طول الحسان العاديين، وينزعون عظمتي وجنتيها البارزتين، وعضلاتها وعظامها الجميلة، والشرائح المغروسة في فكها ويديها، وأظافرها الفتاكة، ويبدلون عينيها السوداويتين اللتين بلغتا حد الكمال، لتصبح مشوشة العقل مرةً أخرى.

غير أنها هذه المرة مستيقظة، وستشعر بكل شيء ...

ثم سمعت تالي صوتًا، صوت جسم يصطدم بقوة بالجانب البلاستيكي من الحوض، ففتحت عينيها.

سائل العمليات جعل الرؤية ضبابية، لكنها رأت حركة عنيفة من خلال جدران الحوض الشفافة، وسمعت صوت ارتطام مكتوم مرةً أخرى، إذ سقطت إحدى الآلات اللعينة.

وصل منقذها.

بدأت تالي تتحرك، وراحت تمزق الضفيرة الحلمية من على ذراعها، ثم مدت يدها إلى أعلى لتنزع أنبوب التنفس من فمها، فالتوى الجهاز، وأخذت أطرافه تلتف على مؤخرة رأسها وحاولت التشبث بمكانها، فأخذت تالي تعض عليه، فشقت أسنانها الطبقة البلاستيكية ومزقت الجهاز في يدها لافظًا وابلًا أحمر من الفقاعات في وجهها.

أخذت تبحث عن موضع تتشبث به عند حافتي الحوض، وحاولت أن ترفع نفسها لتخرج من الحوض، لكن كان يوجد حاجز شفاف وقف في طريقها.

فأطلقت سبة وأصابعها تتحسس الجدران البلاستيكية بحثًا عن أية فجوة. لم يسبق لها قط رؤية أي حوض عمليات قيد التشغيل، فالغطاء يكون دائمًا مفتوحًا والحوض فارغًا. راحت تالي تخدش الجانبين بأظافرها حتى ملأتهما بالخدوش وذعرها يتصاعد.

لكن الجدران لم تنكسر ...

احتكت كتفها بأحد مشارط الذراع المؤازرة الذي كان متخذًا وضع الاستعداد وانتشرت سحابة وردية من الدماء أمام مجال رؤيتها. لم تستغرق جزيئات النانو الموجودة في سائل العمليات سوى ثوانٍ حتى توقف النزيف.

قالت لنفسها: «أعجبني ذلك، لا شك أنه سيكون من اللطيف أن أتمكن من التنفس كذلك!»

أمعنت في النظر من خلال السائل الضبابي، ووجدت أن الشجار لا يزال مستمرًا، وأن شخصًا واحدًا يواجه كثيرين. قالت لنفسها: «أسرع». وراحت تبحث بسرعة عن الأنبوب مرة أخرى، ووضعته في فمها، لكنها وجدته معطلًا، إذ كان مسدودًا بسائل العمليات.

عند الجزء العلوي من الحوض لم يكن يوجد سوى سنتيمتر واحد من الحيز الهوائي، فرفعت تالي نفسها لتستنشق هذا المقدار الضئيل من الأوكسجين، لكنه لن يبقى مدة طويلة، وعليها أن تخرج من هذا الشيء!

حاولت أن تضرب جدار الحوض لتحطمه وتخرج، لكن المحلول كان كثيفًا ولزجًا جدًا، وأخذت قبضة تالي تتحرك حركةً بطيئةً وكأنها توجه لكمات في حيز مليء بالعسل الأسود.

راحت بقع حمراء تتلألأ عند طرف مجال رؤيتها ... فرغت رئتاها.

ثم رأت شبحًا غير واضح المعالم ينطلق نحوها مباشرةً مترنحًا وقد أطاح به الشجار، واصطدم بجانب الحوض، فأخذ الحوض يتأرجح بشدة على المنصة التي تحمله.

ربما ذلك هو الحل.

بدأت تالي تهز جسدها من جانب إلى آخر حتى بدأ المحلول يتحرك حركة عنيفة حولها، مما جعل الحوض يتمايل إلى نقطة أبعد قليلًا في كل مرة. أخذت المشارط تمزق كتفيها وهي تلقي بنفسها يمينًا ويسارًا. وأزيز جزيئات النانو العلاجية يواكب النقاط الكثيرة التي تظهر أمام عينيها، وبدأ السائل يمتلئ بلون وردي خفيف من الدماء.

لكن أخيرًا بدأ الحوض ينقلب.

خيل إليها أن العالم يميل من حولها، وأخذ السائل يدور وهي تنقلب وانقلب الحوض كله وهو يسقط. سمعت تالي صوت اصطدام البلاستيك المكتوم وهي ترتطم بالأرض، ورأت شبكة من الشقوق ترتسم على جدار الحوض، وراح المحلول يسيل من حولها تدريجيًا وعادت الأصوات إلى أذنيها بغتة وهي تستنشق أول نفس من الهواء.

غرست أظافرها في البلاستيك المشروخ وأخذت تمزقه محاولة أن تحرر نفسها من حوض العمليات.

أخذت تالي تسير مترنحة وهي عارية تنزف، وراحت تشهق طلبًا لمزيد من الهواء والمحلول عالق بها وكأنها خرجت من حوض استحمام مليء بالعسل. كان الأطباء وطاقم التمريض متكدسين بعضهم فوق بعض فاقدي الوعي والمحلول يتدفق بجوارهم.

ورأت تالي من أنقذها يقف أمامها، فأخذت تسأل: «شاي؟»، ومسحت السائل من على عينيها وهي تسأل ثانيةً: «ديفيد؟»

– «ألم أطلب منك ألا تتحركي؟ أم أنك يجب أن تفسدي كل شيء دائمًا؟»

طرفت تالي بعينيها وهي لا تصدق عينيها، إذ اكتشفت أن دكتورة كابل هي التي أنقذتها.

الفصل السادس والثلاثون

دموع

بدت أكبر من سنها بألف عام. فقدت عيناها السواد الكامن في عمقيهما ولمعة الشر فيهما، ومثل فاوستو بدت مثل شمبانيا بدون فقاقيع، شفيت أخيرًا.

لكنها لا تزال قادرة على التهكم.

قالت تالي وهي تشهق: «ما الذي تفـ ...؟»

ردت د. كابل: «أنقذتك».

نظرت تالي إلى الباب محاولة أن تلتقط صوت إنذارات أو وقع أقدام.

هزت المرأة العجوز رأسها وقالت: «أنا بنيت هذا المكان يا تالي، وأعرف خباياه، لن يأتي أحد، دعيني أستريح لحظة.» ألقت بنفسها على الأرض المبتلة، وأردفت قائلة: «سني لا تسمح بهذا».

حدقت تالي في عدوتها العجوز، ويديها المعقوفتين وقد برزت منهما مخالب فتاكة، لكن دكتورة كابل كانت تلهث، وكانت مصابة بجرح في شفتها بدأ ينزف. بدت كإحدى العجائز الطاعنات في السن، كعجوز بدأ مفعول العلاج الذي خضعت له لإطالة العمر يتلاشى.

إلا أنها وجدت ثلاثة أطباء فاقدي الوعي عند قدميها.

– «ما زالت استجاباتك كاستجابات المتميزين؟»

– «لست لي صلة بالمتميزين يا تالي، أنا في حالة بائسة.» هزت العجوز كتفيها وأردفت قائلة: «لكنني لا أزال مصدر خطر».

مسحت تالي باقي محلول العمليات من على عينيها وهي تتأوه ثم قالت: «ومع هذا فقط استغرقت وقت طويلًا».

– «نعم، لقد تصرفتِ ببراعة يا تالي، أقصد حين نزعتِ أنبوب التنفس أولًا.»

– «طبعًا، خطة عظيمة، أن تتركيني هناك حتى كادوا ...» طرفت تالي بعينيها. «لماذا تفعلين هذا؟»

ابتسمت كابل وقالت: «سأخبرك يا تالي إن أجبت على سؤالي أولًا». صارت نظرتها ثاقبة لوهلة وقالت: «ما الذي فعلتِه بي؟»

جاء دور تالي لتبتسم: «عالجتك».

– «أعلم هذا أيتها الحمقاء التافهة، لكن كيف؟»

– «أتتذكرين عندما خطفت جهاز الإرسال؟ لم يكن هذا جهاز إرسال على الإطلاق، وإنما كان محقنًا. صنعت مادي علاجًا للمتميزين».

– «تلك الحقيرة مرةً أخرى» أطرقت دكتورة كابل رأسها مرة أخرى وتطلعت إلى الأرض المبتلة، وأردفت قائلة: «أعاد المجلس فتح حدود المدينة وانتشرت الأقراص التي صنعتها في كل مكان».

أومأت تالي برأسها وقالت: «ألاحظ ذلك».

رفعت دكتورة كابل عينيها إلى تالي وهي ترميها بنظرة ساخطة وتقول بغضب: «كل شيء ينهار، وسرعان ما سيبدءون في تدمير البرية حسبما تعلمين».

– «نعم أعلم مثلما حدث في دييجو» تنهدت تالي وهي تتذكر حريق الغابات التي أشعلها أفراد سيبسوبس سميث، وأضافت قائلة: «أظن أن الحرية أحيانًا تؤدي إلى التدمير».

– «وتسمين هذا علاجًا يا تالي؟ وكأنك تفتحين باب جهنم على العالم».

هزت تالي رأسها ببطء وهي تقول: «ألهذا أتيتِ يا دكتورة كابل؟ لتحملني مسئولية كل ما حدث؟»

– «كلا، أتيتُ لأطلق سراحك».

رفعت تالي بصرها، لا بد أن هذه خدعة، طريقة ما لتنتقم دكتورة كابل منها مرة أخيرة. لكن فكرة أن تخرج إلى النور مرةً أخرى أثارت بداخلها بارقة أمل مؤلمة.

ابتلعت تالي ريقها: «لكن ألم أدمر العالم حسبما تقولين؟»

حدقت دكتورة كابل فيها مدة طويلة بعينيها الشاردتين الواهنتين، ثم قالت: «صحيح، لكنك آخر من تبقى يا تالي. لقد شاهدت شاي والآخرين على الدعاية الإخبارية التي تبثها مدينة دييجو، وهم لم يعودوا على ما يرام، وأحسب أن سبب هذا هو علاج مادي». تنهدت ببطء وقالت: «هم ليسوا على ما يرام مثلي تمامًا. لقد جرد المجلس جميعنا تقريبًا من سمات المتميزين».

أومأت تالي برأسها تفهمًا وقالت: «لكن لمَ أنا؟»

قالت دكتورة كابل: «أنت الوحيدة التي بقت على حالها من جماعة الجارحين، آخر المتميزين الذين صممتهم للعيش في البرية، ليعيشوا خارج المدن. بإمكانك أن تهربي من هنا، وأن تختفي إلى الأبد، فأنا لا أريد لعملي أن ينقرض يا تالي، أرجوك ...».

طرفت تالي بعينيها، فلم تنظر إلى نفسها قط على أنها من الكائنات المعرضة للانقراض، لكنها لم تكن على استعداد للمجادلة، ففكرة الحرية كانت تصيبها بالدوار.

– «اخرجي من هنا يا تالي، واركبي المصعد إلى السطح. المبنى خالٍ تقريبًا وقد أطفأت معظم الكاميرات. وبصراحة، لا أحد يستطيع إيقافك. هيا اذهبي، وحافظي على كونك من المتميزين من أجل خاطري، فربما يحتاج إليك العالم في يوم ما.»

ازدردت تالي ريقها، وأحست أن الخروج سيرًا أبسط مما كانت تتوقع وقالت: «هل يوجد لوح طائر؟»

قالت دكتورة كابل في ضجر: «ينتظرك على السطح طبعًا. ما سر اهتمامكم أيها الأوغاد بتلك الأشياء؟»

نظرت تالي إلى الأشخاص الثلاثة الغائبين عن الوعي على الأرض.

فقالت دكتورة كابل في ضجر: «سيكونون بخير، أنا طبيبة كما تعلمين».

تمتمت تالي قائلةً: «نعم، بالتأكيد». وانحنت لتنزع ملابس العمليات الجراحية برفق عن أحد أفراد الطاقم الطبي. عندما ارتدت الملابس تشبعت بمحلول العمليات فاكتست ببقع داكنة، لكنها على الأقل لم تعد عارية.

قطعت خطوةً نحو الباب لكنها استدارت لتواجه دكتورة كابل.

وقالت: «ألا تخافين أن أعالج نفسي؟ عندئذٍ لن يبق منا أحد».

رفعت المرأة عينيها لها وقد تبدل تعبير الهزيمة الذي كان مرتسمًا على وجهها وعاد إلى عينيها بريق الشر القديم، قالت: «لطالما كنت أهلًا لثقتي يا تالي يانج بلود، فلماذا أقلق الآن؟»

عندما وصلت تالي إلى العراء، وقفت للحظة تنظر إلى السماء المظلمة، لم تشعر بالقلق بشأن من قد يأتي ليطاردها، فكابل على حق: من بقي ليوقفها؟

أخذت النجوم تتلألأ هي وكذلك القمر هلالي الشكل، وحملت الرياح روائح البرية. بعد شهر من استنشاق الهواء غير الطبيعي، جعلها نسيم الصيف العليل تشعر بالانتعاش. أخذت تالي تستمتع بالتواصل مع الطبيعة الخلابة.

أخيرًا تحررت من زنزانتها، ومن حوض العمليات، ومن دكتورة كابل، لن يغيرها أحد على غير إرادتها، لن يحدث ذلك مرة أخرى أبدًا. لم تعد توجد سلطات خاصة.

لكن مع أن تالي شعرت بموجة من الارتياح تجتاحها، فإنها شعرت بنفسها تنزف من داخلها، فالحرية تجرحها.

مات زين، عليها أن تتذكر هذا.

أحست بمذاق الملح على شفتيها، فتذكرت آخر قبلة مريرة تبادلتها معه بجوار البحر. وتذكرت ذلك المشهد الذي كانت تعيد تخيله كل ساعة وهي في زنزانتها الواقعة تحت الأرض؛ آخر مرة تحدثت إليه، والاختبار الذي أخفقت في اجتيازه وانتهى بإبعاده عنها. لكنها أحست أن تغيرًا ما طرأ على هذه الذكرى هذه المرة، إذ أصبحت طويلة وبطيئة وعذبة في عقلها، وكأنها لم تشعر بأن زينًا يرتعش، وكأنها سمحت لتلك القبلة بأن تستمر...

شعرت بمذاق الملح مرة أخرى، وشعرت بشيء ساخن يسيل على وجنتيها. رفعت تالي يديها وهي لا تصدق، إلى أن رأت أطراف أصابعها تلمع في ضوء النجوم.

المتميزون لا يبكون، لكن دموعها سالت أخيرًا.

الفصل السابع والثلاثون

الأطلال

قبل أن تغادر تالي المدينة شغلت شبكة التواصل المغروسة في جلدها ووجدت ثلاث رسائل في انتظارها.

الرسالة الأولى من شاي تخبرها فيها أن الجارحين سيبقون في دييجو. فبعد المساعدة التي قدموها أثناء الهجوم على دار البلدية أصبحوا يمثلون قوة الدفاع عن المدينة، وكذلك صاروا هم رجال الإطفاء وعمال الإنقاذ، باختصار صاروا الملاذ الأخير للمدينة، بل إن دار البلدية غير القوانين بحيث يسمح لهم بالاحتفاظ بانتهاكات معايير التكوين، وذلك مؤقتًا على الأقل.

هذا مع استثناء الأظافر والأسنان، إذ كان من الضروري القضاء عليهما.

ولما كان مقر دار البلدية ما زال أنقاضًا، فإن دييجو تحتاج إلى أية مساعدة تستطيع الحصول عليها. ومع أن العلاج بدأ يغزو المدن الأخرى وراح يغير القارة كلها ببطء، فإن الهاربين الجدد ما زالوا يصلون إلى دييجو يوميًا وهم على استعداد لتأييد النظام الجديد.

لقد اختفت ثقافة تشوش العقل القديمة الراكدة، وحل محلها عالم يعلو التغيير فيه على كل شيء، لذلك في يوم من الأيام، ستلحق مدن أخرى بدييجو، فمن الآن وصاعدًا صار تغير العادات وصيحات الموضة أمرًا حتميًا، لكن في الوقت الحالي ما زالت دييجو هي المكان الذي تغير أسرع من أي مكان آخر، إنها أرض الأحلام، وأخذ حجمها يزداد يومًا بعد يوم.

كانت شاي تلحق بالرسالة الأصلية التي بعثت بها رسائل أخرى كل ساعة، فأصبحت رسالتها أشبه بيوميات حول التحديات التي واجهها الجارحون وهم يساعدون في إعادة إعمار المدينة وهي تتغير أمام أعينهم. لعل شاي كانت تريد أن

تطلع تالي على الأمور كلها حتى تسرع وتأتي إليهم وتساعدهم عندما تتمكن من الفرار في نهاية الأمر.

ومع ذلك كان أمر ما يحزن شاي، وهو أنهم جميعًا قد سمعوا بأمر عمليات تجريد المتميزين من ميزاتهم، وأصبح الأمر يعرفه القاصي والداني، وتحول إلى بادرة سلام. اعترت الجارحين رغبة جامحة في أن يذهبوا لإنقاذ تالي، لكنهم لم يستطيعوا أن يندفعوا ويهاجموا المدينة بعد أن صاروا قوات الدفاع الرسمية لدييجو. لا يمكنهم إعادة إشعال نيران هذه الحرب بعد أن أوشكت على أن تضع أوزارها. تستطيع تالي أن تتفهم هذا، أليس كذلك؟

تالي يانج بلود ستظل دائمًا من الجارحين، سواء أكانت من المتميزين أم لا ...

الرسالة الثانية كانت من والدة ديفيد.

قالت إن ديفيد غادر دييجو وأنه انطلق في البرية. سكان الضباب ينتشرون في أنحاء القارة، وما زالوا يُهرِّبون العلاج إلى تلك المدن التي ما زالت متمسكة بإجراء عمليات تشويش العقل، سرعان ما سيرسلون حملة استكشافية إلى أقصى الجنوب، وحملة أخرى عبر البحار إلى القارات الشرقية. كان الهاربون في كل مكان على ما يبدو، يتوقفون عن مدنهم ويقيمون مدنًا ضبابية جديدة خاصة بهم بناءً على ما وصلهم من شائعات بغيضة تأتي من أقاصي الأرض.

يوجد عالم بأكمله ينتظر التحرير، وذلك إن أرادت تالي مد يد العون.

ختمت مادي حديثها بهذه الكلمات: «انضمي إلينا، وإن رأيت ابني، أبلغيه أني أحبه».

والرسالة الثالثة من بيريس.

غادر هو والأشقياء الآخرون دييجو. كانوا يعملون في مشروع خاص تابع لحكومة المدينة، لكنهم لم يفضلوا البقاء داخل المدينة، إذ اكتشفوا أنه من السخيف حقًّا أن يعيشوا في مكان كل من فيه من الأشقياء.

لذا أخذوا يجوبون أنحاء البرية، وراحوا يجمعون القرويين الذين أطلق سراحهم الضبابيون. وأخذوا يعلمونهم أمور التكنولوجيا، وكيف يسير العالم خارج مستعمراتهم، ويوضحون لهم مخاطر إشعال حرائق الغابات. ففي نهاية المطاف، سيعود هؤلاء القرويون إلى شعوبهم ويساعدونهم في إخراجهم إلى العالم.

في المقابل أخذ الأشقياء يتعلمون كل ما يتعلق بالبرية، كيف يصطادون ويعيشون بعيدًا عن اليابسة، وراحوا يكتسبون معارف سكان ما قبل عصر الأطلال القديمة قبل أن تضيع مرة أخرى.

ابتسمت تالي وهي تقرأ الأسطر الأخيرة:

> ذلك الفتى أندرو، لا أذكر لقب عائلته، يقول إنه يعرفك، أهذا صحيح؟ كيف حدث هذا؟ طلب مني أن أقول لك: «استمري في تحدي الآلهة»، أو شيء من هذا القبيل.
>
> على أية حال، أراك قريبًا يا تالي-وا. أخيرًا سنظل أعز الأصدقاء إلى الأبد!
>
> بيريس

لم ترد تالي على أية من هذه الرسائل إلى الآن. انطلقت بلوحها الطائر فوق النهر، في رحلة أخيرة بين منحدرات النهر التي لن تراها مرةً أخرى.

أضاء ضوء القمر المياه المليئة بالزبد، وكل وابل من الرذاذ يلمع حولها كظلال من الماس. كانت الكتل الجليدية المتدلية قد ذابت كلها في هواء بداية الصيف الدافئ، وأخذت تفوح برائحة شجر الصنوبر القائمة من الغابات لتغلف أنسامها وكأنها شراب حلو غليظ القوام. لم تشغل تالي الرؤية بالأشعة تحت الحمراء، وتركت حواسها الأخرى تستكشف الظلام بلا مساعدة.

وسط كل هذا الجمال أدركت تالي بالضبط ما ينبغي أن تفعله.

بدأت مراوح الرفع تعمل وهي تنطلق في الطريق القديم المألوف عبر الطريق الذي يؤدي إلى طبقة الحديد الطبيعية التي اكتشفها أحد القبحاء المشاغبين منذ سنوات. انطلقت عبره بسرعة بفضل الآلية المغناطيسية وهبطت إلى الأطلال القديمة المظلمة.

وجدت نفسها بين المباني المتهدمة المرتفعة، التي أصبحت آثارًا شاهقة تروي قصة قوم أسرفوا في الشراهة والتكاثر، إلى أن انتشر مليارات الجياع منهم في أنحاء العالم.

أخذت تالي تحدق طويلًا وهي تمر بالسيارات المحترقة والنوافذ المحطمة التي بلا مصاريع ولا زجاج، وعيونها المتميزة لا تبدي في المقابل سوى نظرات خاوية في ظل جمجمة صارت رفاتًا. إنها لا تريد أن تنسى هذا المكان قط.

لا تريد أن تنسى في ظل كل هذه التغيرات ...

ارتفع بها لوحها الطائر فوق الهيكل المعدني لأعلى مبنى، وهو المكان الذي أحضرتها إليه شاي أول ليلة خرجوا فيها إلى البرية، قبل عام تقريبًا. وأخذت تالي ترتفع داخل الهيكل الفارغ بفضل المغناطيس الذي يعمل في صمت، ورأت المدينة الساكنة تمتد على مساحة شاسعة أمامها من خلال إطارات النوافذ الخاوية المحطمة.

لكن عندما وصلت إلى القمة، اكتشفت أن ديفيد قد رحل.

اختفت حقيبة النوم وجميع المستلزمات الأخرى، ولم تجد سوى أغلفة الوجبات ذاتية التسخين الفارغة مبعثرة حول ذلك الركن شبه المتهدم من الأرضية. ولاحظت أن الأغلفة كثيرة جدًا، فاستشفت أنه انتظرها طويلًا.

أخذ معه أيضًا الجهاز الهوائي البدائي الذي تواصل معها به.

شغلت تالي شبكة التواصل وشعرت بذبذباتها تمتد في أنحاء المدينة الخاوية الميتة، وراحت تنتظر تلقي أي رد وعيناها مغمضتان.

لكن لم يصلها أي أزيز. مساحة كيلومتر لا تعتبر مساحة كبيرة في العراء.

أخذت ترتفع أكثر حتى وصلت إلى قمة البرج وعبرت إحدى الفجوات الواسعة في السقف لتصل إلى الرياح العاتية. ظل لوحها يرتفع إلى أن فقد المغناطيس التفاعل مع الهيكل الحديدي لناطحة السحاب، ثم بدأت مراوح الرفع تعمل وارتفعت حرارتها ارتفاعًا شديدًا وهي تجاهد حتى ترفعها أكثر.

قالت في خفوت: «ديفيد؟»

لم تصلها أية إجابة مرة أخرى.

ثم تذكرت الحيلة القديمة التي كانت شاي تلجأ إليها حين كانت هي وشاي من القبحاء.

انحنت تالي على اللوح المرتجف الذي تعصف به الرياح ومدت يدها إلى داخل مقصورة التخزين، ووجدت أن دكتورة كابل كانت قد ملأتها ببخاخات طبية، وبلاستيك ذكي، وولاعات، ووجبة اسباجتي بولونيز من أجل الأيام الخوالي.

ثم أطبقت تالي أصابعها على عود إشعال مخصص لإصدار إشارات ضوئية.

وأشعلته ورفعته بإحدى يديها وأخذت الرياح العاتية تبعثر وابلًا من الشرر خلفها على مسافة تبلغ طول خيط طائرة ورقية. وقالت: «لست وحدي».

ظلت ممسكة به وهي على ذلك الارتفاع حتى بلغت حرارة اللوح الطائر تحت قدميها حدًا لا يحتمل، وأخيرًا خمدت شعلة العود وصارت جمرة متوهجة فحسب.

وعندئذٍ هبطت تالي عائدةً إلى داخل ناطحة السحاب وتكورت على الجزء المرتفع من الأرضية المتهدمة، وقد أصابها فجأة الإعياء بسبب هروبها، وبلغ بها الإرهاق حدًا جعلها لا تعبأ باحتمال أن يكون أحد قد رأى شعلتها.

جاء ديفيد عند الفجر.

الفصل الثامن والثلاثون

الخطة

قالت بصوت ناعس: «أين كنت؟»

نزل من على لوحه وهو منهك ولحيته نامية، لكن عينيه كانتا متسعتين، وقال: «كنت أحاول أن أصل إلى المدينة، كنت أحاول البحث عنك».

قطبت تالي جبينها وقالت: «فتحوا الحدود مرةً أخرى، أليس كذلك؟»

– «قد تكون كذلك إن كنت تعلمين كيف تسير الأمور في المدن ...»

ضحكت: لقد أمضى ديفيد كل سنوات حياته الثمانية عشرة في البرية، ولا يعرف كيف يواجه الأمور البسيطة مثل طائرات الحراسة.

واصل حديثه قائلًا: «نجحت أخيرًا، لكن عندها واجهت صعوبة في العثور على مقر السلطات الخاصة». جلس منهكًا.

– «لكنك رأيت الشعلة التي أطلقتها».

قال: «نعم رأيتها». ابتسم وأخذ ينظر إليها بانتباه، وقال: «السبب في أنني كنت أحاول ...» ابتلع ريقه وقال: «يستطيع الهوائي الخاص بي التقاط أخبار المدينة، وجاء فيها أنهم سيغيرونك تمامًا ويحولونك إلى كيان أقل خطورةً، هل ما زلتِ ...؟»

حدقت فيه وقالت: «ماذا تظن يا ديفيد؟»

مرت دقيقة بطيئة وهو يتطلع إلى عينيها بنظرة متأنية ثم تنهد وهز رأسه يمينًا ويسارًا وقال: «أرى أني أحس أنك تالي فحسب».

أطرقت تالي رأسها وقد شعرت بأن الرؤية صارت ضبابية أمام عينيها.

– «ما بك؟»

– «لا شيء يا ديفيد.» هزت رأسها نفيًا وأضافت: «لقد ظهر عليك تأثير خمسة ملايين عام من التطور مرة أخرى».

– «ماذا؟ هل تفوهت بشيء خاطئ؟»

– «كلا.» ابتسمت وقالت: «بل تفوهت بشيء صحيح».

تناولا وجبةً من طعام المدينة، واستبدلت تالي بوجبة الاسباجتي بولونيز التي وجدتها في مقصورة التخزين الخاصة بها علبة الأرز التايلاندي الخاصة بديفيد.

أخبرته كيف استخدمت المحقن الخاص الذي أعطاها إياه لتغيير دكتورة كابل، وحكت له عن الشهر الذي قضته في الأسر وكيف هربت في النهاية. أوضحت أن النقاشات التي سمعها ديفيد في المواد الإخبارية معناها أن العلاج يحقق نجاحًا في المدينة وأنها تتغير أخيرًا.

لقد ربح الضبابيون في هذه المدينة أيضًا.

سألها أخيرًا: «إذن فأنت ما زلت من المتميزين؟»

– «ينطبق ذلك على جسدي، لكن باقي أجهزتي أظن أنها جميعًا ...»

اضطرت أن تزدرد لعابها قبل أن تنطق بكلمة زين: «أعيد برمجتها».

ابتسم ديفيد وقال: «كنت أعلم أنك ستتدبرين أمرك».

– «لهذا انتظرت هنا، أليس كذلك؟»

– «طبعًا، كان يجب أن تجدي أحدًا ينتظر هنا.» تنحنح ثم قال: «أمي تظن أنني منشغل باستكشاف العالم ونشر الثورة».

أنعمت تالي النظر في المدينة المتهدمة وقالت: «الثورة تمضي في طريقها على ما يرام بدون تدخل من أحد يا ديفيد، لم يعد من الممكن إيقافها الآن».

قال: «صحيح»، ثم تنهد وأضاف: «لكنني لا أشعر أنني ساهمت إسهامًا فعالًا في إنقاذك».

قالت تالي: «لست أنا من يحتاج إلى الإنقاذ يا ديفيد، ليس بعد. آه، صحيح، نسيت أن أقول لك إن مادي أرسلت معي رسالة لك».

ارتفع حاجباه وقال: «أرسلت معك رسالة لي؟»

– «نعم: «أحبك ...»» ابتلعت تالي ريقها مرةً أخرى ثم قالت: «أوصتني أن أقول لك هذا، لذا فربما تكون على علم بمكانك».

– «ربما»

قالت مبتسمةً: «أنتم أيها الفطريون يسهل التنبؤ بتصرفاتكم إلى حد بعيد». كانت تراقبه عن كثب، وعيناها تسجلان كل ما به من نقائص: عدم تناسق ملامحه، مسام جلده، أنفه الضخم، الندبة.

لم يعد قبيحًا؛ ففي نظرها أحست أنه ديفيد فحسب. وربما كان على صواب، ربما لم تعد مضطرة لتنهض بهذا الهدف بمفردها.

ديفيد يكره المدن، ولم يعرف كيف يستخدم شبكة التواصل أو يستدعي عربة طائرة، وملابسه يدوية الصنع ستبدو بلا شك سيئة جدًّا في الحفلات. وهو بالتأكيد ليس مستعدًا للعيش في مكان يستبدل الناس فيه الثعابين بأصابع الخنصر في أياديهم.

الأهم من هذا هو أن تالي تعلم أنه مهما كان ما ستئول إليه خطتها، ومهما كانت الأفعال البشعة التي أجبرها العالم على اقترافها، فإن ديفيد سيتذكرها على حقيقتها.

قالت: «يدور في رأسي خاطر».

– «أهو بخصوص أين ستكونين فيما بعد؟»

أومأت تالي برأسها إيجابًا: «نعم، إن الأمر يتعلق تعلقًا ما بخطة ... لإنقاذ العالم».

تجمد ديفيد، والعصوان اللتان يتناول بهما الطعام في منتصف المسافة إلى فمه، والاسباجتي بولونيز ينزلق منهما عائدًا إلى الإناء. وارتسمت على وجهه مشاعر متباينة كان من السهل فهمها كما هو الحال مع أي من القبحاء: الارتباك، والفضول، ثم لمحة فهم. سألها ببساطة: «هل يمكنني المساعدة؟»

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت: «بالطبع، فأنت الرجل المناسب لهذه المهمة». ثم شرحت كل شيء.

في تلك الليلة ركبت هي وديفيد لوحين طائرين إلى أقصى حافة المدينة، وتوقفا ببطء عندما التقطت الشبكةُ التي تعمل بنظام اتصالات يعيد تلقائيًا إرسال الإشارات المستقبلة على تردد ثابت مختلف خلال النطاق نفسه شبكةَ التواصل المغروسة فيها. ووجدت الرسائل الثلاث التي بعث بها شاي وبيريس ومادي تنتظرها. حركت تالي أصابعها في توتر.

قال ديفيد وهو يشير بإصبعه: «انظري إلى ذلك!»

كان أفق مدينة نيو برتي تاون متوهجًا، والصواريخ تنطلق عاليًا وتنفجر فترتسم أشكال زهور هائلة من اللونين الأحمر والأرجواني، عادت الألعاب النارية.

ربما يحتفلون بنهاية حكم دكتورة كابل، أو بالتغيرات الجديدة التي تجتاح المدينة أو نهاية الحرب، أو ربما أن هذا العرض يحتفل بآخر أيام السلطات الخاصة، ولا سيما أن آخر المتميزين قد هربت إلى البرية.

أو ربما أنهم عادوا يتصرفون كما يتصرف مشوشو العقل. قالت ضاحكة: «لقد رأيت ألعابًا نارية من قبل، أليس كذلك؟»

هز رأسه نفيًا، وقال: «ليس كثيرًا، إنها مبهرة».

فقالت تالي: «نعم المدن ليست سيئة يا ديفيد». وابتسمت آملة أن تكون عروض الألعاب النارية التي تقام ليلًا قد عادت لأن الحرب كادت تضع أوزارها. ففي ظل كل التغيرات الجذرية التي توشك أن تزعزع استقرار مدينتها، ربما يجب ألا يطرأ تغيير على هذه العادة أبدًا. العالم يحتاج إلى مزيد من الألعاب النارية، خاصة الآن إذ إنه سيشهد نقصًا في الأشياء الجميلة غير النافعة.

وحين بدأت تستعد للكلام، سرت قشعريرة في جسدها. سواء أكان عقلها كعقول المتميزين أم لا، يجب أن تلقي هذه الرسالة بلهجة مقنعة وهادئة؛ فمصير العالم يتوقف عليها.

وإذ بها فجأة تجد أنها أصبحت مستعدة.

بينما هما يقفان هناك يشاهدان نيو برتي تاون تتلألأ، وعيناهما تتابعان الصواريخ وهي تصعد ببطء، ولحظة انفجارها المفاجئ، تحدثت تالي بوضوح رافعةً صوتها فوق هدير المياه، حتى تتمكن الشريحة الموجودة في فكها من التقاط كلماتها.

أرسلت لهم جميعًا — شاي، ومادي وبيريس — الرد نفسه ...

بيان رسمي

بقلم تالي يانج بلود

لا أحتاج إلى علاج، مثلما لا أحتاج إلى جرح نفسي لأتمكن من أن أشعر أو أفكر، فمن الآن فصاعدًا، لن يأتي أحد سواي لإعادة برمجة عقلي.

عندما كنت في دييجو، قال الأطباء إنني أستطيع أن أتعلم التحكم في سلوكي، وقد حدث ذلك فعلًا. جميعكم ساعدتموني بطريقة أو بأخرى.

لكن لم يعد سلوكي هو ما يقلقني، بل سلوككم أنتم.

ولهذا سأختفي مدة قد تطول، إذ سأقيم أنا وديفيد هنا في البرية.

جميعكم تقولون إنكم تحتاجون إلينا، ربما يكون هذا صحيحًا لكنكم لا تحتاجون إلى مساعدتنا، فلديكم ما يكفي من المساعدة بفضل إفاقة ملايين العقول الجديدة التي أوشكتم أن تطلقوا لها العنان، ولأن جميع المدن أفاقت أخيرًا، إن اتحدتم فستتمكنون من تغيير العالم بدوننا.

لذا من الآن فصاعدًا، سأكون أنا وديفيد هنا لنقف في طريقكم.

تعلمون أن الحرية أحيانًا ما تؤدي إلى التدمير.

ها قد أصبح لديكم الضباب الجديد، وأفكار جديدة، ومدن كاملة جديدة، ونظم جديدة. والآن ... نحن السلطات الخاصة الجديدة.

كلما تماديتم في اختراق البرية، كنا هنا في انتظاركم، على استعداد لصدكم. تذكرونا كلما قررتم الحفر لوضع أساس مبنى جديد، أو بناء سد على نهر، أو قطع شجرة، خافوا منا. ومهما اشتد نهم الجنس البشري والذي صاحبته إفاقة

الحسان، فإن البرية لا يزال لها أسنان، أسنان فائقة، أسنان قبيحة، هذه الأسنان هي نحن.

سنظل هنا في مكان ما في البرية نراقبكم، ونحن مستعدون أن نذكركم بالثمن الذي دفعه سكان الأطلال القديمة مقابل تماديهم في أفعالهم غير المكترثة.

أحبكم جميعًا، حان وقت الوداع، مؤقتًا.

اعتنوا بالعالم وإلا قد يكون الموقف قبيحًا حين نلتقي المرة القادمة.